الغلاف الأمامي

الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

الإرث الأخير

الواجب. الرغبة. المصير

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

الغلاف الأمامي

الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

الإرث الأخير

الواجب. الرغبة. المصير

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...ليست مجرد مكتبة ...not just a Bookstore

حقوق الطبع والنشر

الإرث الأخير

الواجب. الرغبة. المصير

أدريان يانج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة



للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

الطبعة الأولى 2024

THE LAST LEGACY

A NOVEL

ADRIENNE YOUNG





الأغلفة الداخلية

الإرث الأخير

الواجب. الرغبة. المصير

رواية رائعة تتناول العلاقات الأسرية وروابط الدم وإعادة اكتشاف الذات، وتشكيل المصير.

عندما تصل رسالة من خالها هنريك في عيد ميلادها الثامن عشر يستدعيها للعودة إلى باستيان، تفرح برين روث بشدة حيث تتوق إلى إثبات نفسها وترسيخ مكانتها الخاصة وسط عائلتها التي ابتعدت عنها لفترة طويلة.

يُعول هنريك على برين كثيراً، لكنها يجب أن تفوز بثقة الجميع إذا أرادت ترسيخ مكانتها والتمتع بسلطة قوية بين أفراد العائلة. وسرعان ما تدرك برين تورط عائلة روث في العديد من المعاملات المشبوهة. وعلى الرغم من شهرتهم في منطقة باستيان ومكانتهم المرموقة هناك، فإنهم ما زالوا متورطين في الأنشطة غير المشروعة نفسها التي أدت إلى الوفاة المأساوية لوالدي برين منذ سنوات. وما بين خوض العديد من المهام المحفوفة بالمخاطر والدخول في علاقة حب ترفضها العائلة، تصبح تكلفة قبول برين بين أفراد العائلة وترسيخ مكانتها وسطهم أكبر مما يمكنها تحمله.



أدريان يانج

من عشاق الطعام، ولديها شغف عميق بالتاريخ والسفر إلى جانب حب شديد للقهوة. في الأوقات التي لا تنشغل فيها بالكتابة، تمارس رياضة اليوجا، وتستمتع بتناول مشروبها المفضل خلال وجبات العشاء الطويلة أو تغوص بين جنبات متاحفها الفنية المفضلة. تعيش مع زوجها مخرج الأفلام الوثائقية وأطفالهما الأربعة في جبال بلو ريدج بولاية كارولينا الشمالية، وهي مؤلفة الثنائيتين الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز: سماء في العمق وفيبل.

إصدارات أخرى للكاتبة

سماء في العمق

الفتاة التي لفظها البحر

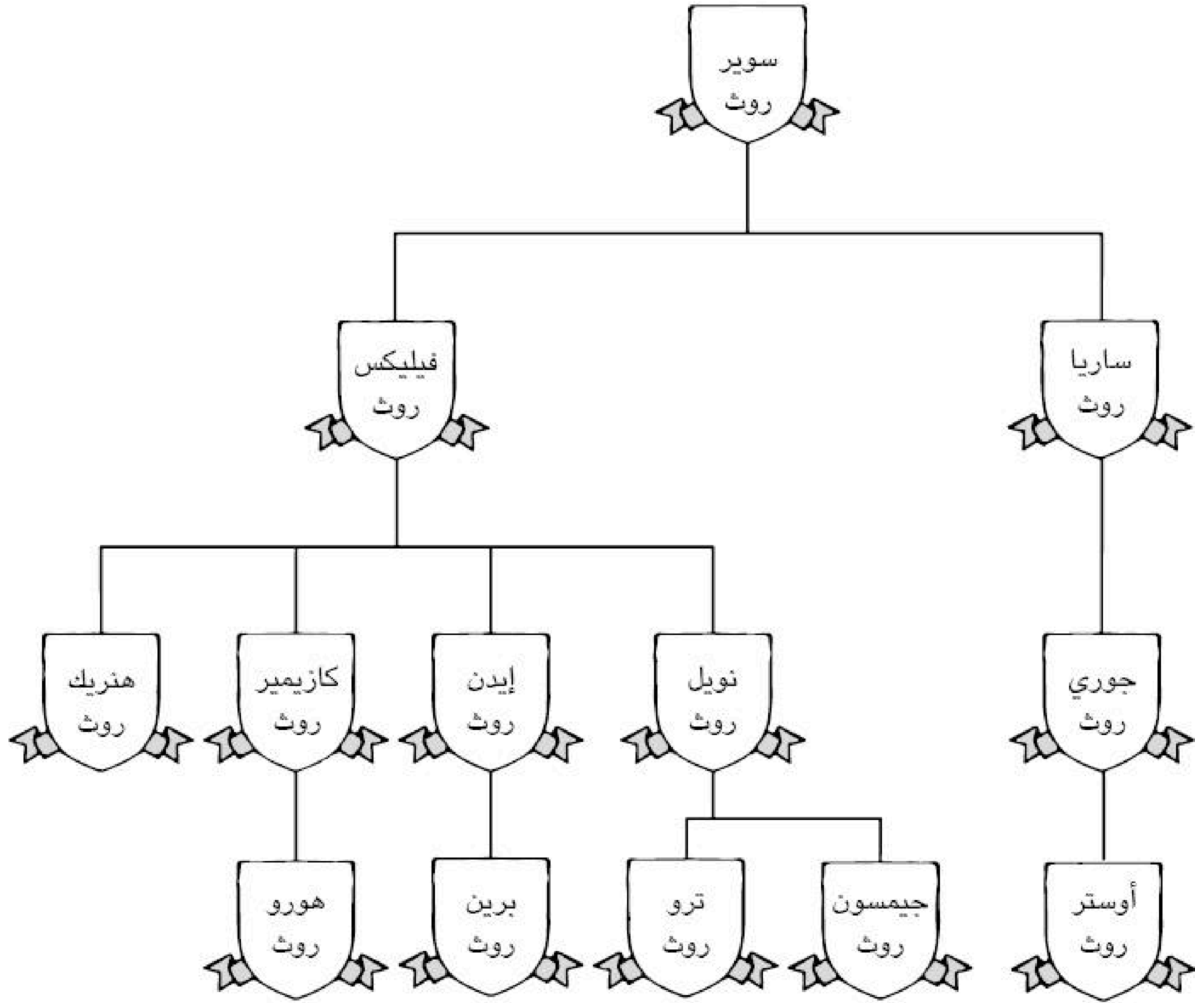
فيبل

السَّمِيَّة

إهداء

إلى ريفير اصنع مصيرك بنفسك

شجرة عائلة روث



الأول

ليس من الملائم وقوف السيدات الراقيات على أرصفة الموانئ.

ترددت في ذهني كلمات شقيقة جدي ساريا هذه مع صوت انهمار المطر الغزير. وفي تلك اللحظة قمت على الفور برفع أطراف ثوبي إلى أعلى، فوجدت أن حوافه قد بللتها المياه. وكان هذا أحد الدروس العديدة التي علمتني إياها خلال السنوات التي أمضيتها تحت وصايتها، غير أنها على الرغم من حكمتها وتمتعها بالكثير من المزايا المختلفة، لم تكن تتمتع بسمات الأنوثة المعروفة.

تدفق تيار صغير من الماء على الدرج، بينما كنت أبحث عن ملجأ أسفل مدخل المرفأ، في محاولة لحماية نفسي من هطول الأمطار.

جذبت أطراف ثوبي أكثر إلى أعلى بينما كنت ألقي نظرة أخرى على الشارع. وقد اتشحت مدينة باستيان باللون الرمادي الكئيب، وغطى أسطح منازلها ذات القمم المدببة ضباب أبيض كثيف. كنت قد وصلت في الوقت المحدد على متن السفينة جاسبر، ولكن لخيبة أملي، لم يكن هناك أحد في استقبالي على عكس ما وعدني به خالي.

تنحيت جانبًا عندما مرت مجموعة من الرجال بجواري، وأخذوا يتفحصونني بنظراتهم الثاقبة من رأسي حتى أخمص قدمي. كان هذا الثوب الذي اختارته ساريا لي لا يبدو ملائمًا أبدًا لهذا المكان الذي يعج بالباعة المتجولين، والصيادين، والتجار الذين ملأوا الأرصفة. لقد راودني حينها شعور بعدم الانسجام مع هذه الأجواء، لكن هذا لم يكن بالشيء الجديد، فقد اعتدت طيلة حياتي عدم التأقلم أو الانتماء إلى أي مكان، بيد أن هناك شعورًا راودني الآن بأن كل ذلك كان على وشك التغير.

اشتدت الرياح، وها هي تكمل الفوضى التي بدأها المطر، فلسعت ببرودتها وجنتيَّ، وتطاير شعري شعثًا بعد أن كان مثبتًا بإحكام. يبدو أنني بحلول الوقت الذي سيصل فيه مورو، سأكون أشبه بغريق أُخرج من المياه في الحال. كان ثوبي يزداد ثقلًا كل دقيقة بفعل مياه المطر المتزايدة.

أخذت أتمتم ببعض عبارات الاستياء، بينما كنت أضع يدي في جيبي لأخرج الخطاب الذي وصلني في ذكرى ميلادي الثامن عشر كما كان متوقعًا، فقد كنت أنتظر هذا الخطاب منذ أن كنت فتاة صغيرة ترتدي ثوبًا مكشكشًا، وتتعلم كيفية حمل فنجان الشاي دون سكب نقطة واحدة منه. فقد كان وعدًا انتظرته طيلة حياتي في مدينة نيمسمير، يشير قدومه إلى اقتراب وقوع حدث مهم.

وفي ذاك الصباح المتمم لعامي الثامن عشر، وبينما كنت أهبط درج المنزل، وجدت الخطاب في انتظاري على مائدة الفطور، ولا يزال مغلقًا. كانت ساريا تجلس بجواره واضعة نظارتها على طرف أنفها، فيما تقرأ التقارير الصباحية الخاصة بمشاريعها العديدة. بدا الأمر كأننا نعيش يومًا عاديًّا، لم يتغير أي شيء فيه بوصول هذا الخطاب المختوم بالشمع.

بيد أن هذا الخطاب كان يحمل بين طياته تغييرات كبيرة.

تحسست حواف الخطاب الناعمة، فجذبته من جيبي، وقد بدا مهترئًا من كثرة ما فتحته لقراءته مرارًا وتكرارًا. وعلى الرغم من أنني أحفظ كلماته عن ظهر قلب، فإنني أعدت قراءتها مرة أخرى.

برين

حان وقت العودة إلى الديار. لقد حجزت لك تذكرة إلى باستيان على متن السفينة جاسبر المغادِرة من نيمسمير. سيكون مورو في انتظارك عند ميناء السفن.

هنريك روث

لم يكن هذا الخطاب يعتبر دعوة مهذبة، أو طلبًا بسيطًا من خالي، بل كان أمرًا لي بالعودة إلى منزل العائلة، وكان هذا الطلب جزءًا من صفقة أبرمها مع ساريا بعد وفاة والديَّ. لقد كان الخطاب مكتوبًا بكلمات منمقة تعكس دقة ومهارة فائقتين، وقد كُتب بحبر شديد السواد على ورقة بيضاء متلألئة. بيد أنه لم يخلُ من بعض العيوب الملحوظة، فقد لفتت انتباهي الحركة الجامحة للريشة عند نهاية بعض الكلمات ما يدل على الافتقار إلى البراعة في الكتابة.

شعرت حينئذ بقشعريرة باردة تجتاح جسدي.

طويت الخطاب ووضعته في جيب ثوبي، وأنا أكزُّ بأسناني. فقد استدعاني خالي للعودة إلى باستيان من نيمسمير، لكنه لم يملك من الذوق ما يكفي ليستقبلني ويحييني بنفسه، لكن بعد كل ما حكته لي ساريا عن ابن أخيها، لم يفاجئني تصرفه.

امتدت أمامي تلك المدينة الشاسعة التي تلاشت ملامحها من ذاكرتي، وقد اكتنفها الضباب بشكل كامل، وامتدت على طول الخط الساحلي الصخري حتى اختفت بين التلال. فقد مرت أربعة عشر عامًا منذ أن رحلت عن هذا المكان على متن السفينة برفقة ساريا، بينما كنت لا أزال طفلة صغيرة. وعندها قطعت لي وعدًا بأنها لن تكذب عليَّ أبدًا. وبمرور السنوات، وبينما كنت أسألها عن عائلتنا التي تركناها وراءنا هنا، كانت تجيبني بنظرة حزينة، لكن غالبًا ما تركتني إجاباتها أتمنى لو أنني لم أسألها قط. فعلى الرغم من إقامتي مع تلك المرأة الأرستقراطية في نيمسمير، ظلت لعنة اسمي تطاردني: برين روث.

لم أكن أملك أي خيار مطلقًا إزاء ذلك الأمر، فقد كان حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها، بالضبط مثل كون عينيَّ بنيتين، أو امتلاكي خمسة أصابع في يدي. وبينما كانت الفتيات اللائي ينتمين إلى عائلات نيمسمير المرموقة يتزوجن، ويحصلن على فرص عمل خاصة بهن، كنت أنتظر أنا خطاب خالي. وكنت أعرف طوال حياتي أنني سأعود إلى باستيان لا محالة في يوم من الأيام، وكثيرًا ما تقت إلى ذلك اليوم، حيث سأتمكن من الابتعاد عن ساريا ومراقبتها الدائمة لي، وتجنب المصير المؤسف الذي كان ينتظر قريناتي.

رن جرس المرفأ معلنًا بدء العمل في مبنى التجار. واصطف بالفعل طابور طويل من التجار في انتظار تسلم بضائعهم قبل أن يتوجهوا إلى المدينة الساحلية التالية. نظر بعضهم إليَّ نظرات فضولية، وبخاصة إلى تلك الحقيبة الكبيرة التي كانت تقبع عند قدميَّ، وتمتلئ بالفساتين والأحذية والحلي، فقد حزمتها لي ساريا معتبرة أنها درعي الواقية في باستيان، وقالت إنني سأحتاج إلى ما بها من أغراض هناك قطعًا، فقد استدعيت إلى هناك لهذا السبب تحديدًا.

حدقت إلى تلك الحقيبة الكبيرة وأنا أفكر فيما إذا كان باستطاعتي حملها، وأيقنت أنني لن أستطيع، خاصة وأنا أرتدي هذا الثوب الثقيل. وإذا لم يأتِ أحد لاصطحابي، فسأضطر إلى استئجار شخص لحملها إلى لوير فالي. لكنني أعتقد إن فعلت ذلك، فستساوي فرصة رؤيتي إياها مرة أخرى الفرصة نفسها لفشلي في إزالة بقع الطين من أطراف ثوبي إذا حملتها بنفسي. وللحظة فكَّرت في أنه ربما لن يكون ذلك شيئًا سيئًا.

حملت الرياح الباردة صوتًا هادئًا يحمل نبرة سخرية ترددت في أذني: «روث الابنة الضالة تعود أخيرًا إلى بيتها».

أفلت طرف ثوبي من بين يديَّ، واستدرت باحثة في وجوه المارة عن مصدر ذلك الصوت حتى وجدته؛ إذ كان ثمة شاب يرتدي سترة من الصوف عالي الجودة يقف بالقرب من عمود إنارة، واضعًا قدمًا فوق أخرى مراقبًا إياي باهتمام. وقد قصَّر شعره على جانبي رأسه، بينما كان الجزء العلوي الذي يقع بينهما يمتلئ بالشعر الداكن المُجعَّد.

عقدت حاجبيَّ في دهشة، بينما ارتسم على وجهه طيف ابتسامة، وسألته: «هل أنت مورو؟».

هنا قال مبتسمًا ملء فمه: «مرحبًا برين!».

سألته بغضب وأنا أصعد الدرج تاركة ورائي حقيبة أغراضي: «منذ متى وأنت تقف هناك؟». كشف وجهه عن ملامح حادة لا تخلو من وسامة، لكن عينيه هما اللتان لفتتا انتباهي بلونهما الرمادي الذي تألق في الضوء. أومأ برأسه تحية لي، واعتدل واقفًا بعيدًا عن عمود الإنارة، واضعًا كلتا يديه في جيبي سترته.

قال وهو يسير نحوي ببطء: «لقد مر وقت طويل منذ مغادرتك مدينتنا». ولم ألحظ قامته الطويلة إلا عندما وقف منتصبًا على بعد بضعة أمتار مني. كان يفوقني طولًا؛ لذا مال برأسه إلى أسفل وهو يخاطبني: «من الجيد رؤيتك يا ابنة عمتي».

حدقت إلى وجهه، وقلت له: «لقد أخبرني هنريك في خطابه بأنك ستكون في انتظاري».

أجابني على الفور: «وهآنذا في انتظارك».

حكت لي ساريا عن مورو، واصفة إياه بالوغد، كان صبيًّا عندما غادرت مدينة باستيان إلى نيمسمير. وعلى الرغم من ابتعادي عنهم فترة طويلة، فإن شجرة العائلة كلها كانت منقوشة في ذهني، بما في ذلك أسماء كل هؤلاء الذين يعيشون هنا. وقد بدت جميع الروايات المتعلقة بعائلة روث أشبه بأساطير البحر الخيالية التي تناقلها البحارة، بيد أن حكايات عائلة روث كانت واقعية.

سألني وهو يتفقد ساعة جيبه: «ألم تأتِ ساريا معك؟».

أجبته: «كلَّا». في الواقع رفضت ساريا الحضور. فقد كانت قد أقسمت عندما غادرت باستيان أنها لن تطأها بقدميها مرة أخرى، وكان هذا وعدًا آخر عزمت على الوفاء به.

أطلق تنهيدة عالية، وتمتم: «هذا متوقع»، ثم أضاف وهو يشير برأسه تجاه مدخل المرفأ: «هيا بنا»، وبدأ السير دون أن ينتظرني.

قلت في لهفة وأنا أنظر إلى الخلف: «لكن ماذا عن أغراضي؟»، فوجئت بأن حقيبتي التي كانت موجودة عند أسفل الدرج قد اختفت. وبينما أخذت أتفحص المارة بحثًا عن مورو الذي علا رأسه بوضوح بين الحشد، لمحت رجلين آخرين يسيران أمامه وهما يحملان حقيبتي على كتفيهما بطريقة غريبة.

ناديته مندفعة في محاولة للحاق به: «انتظر!».

أبطأ مورو من سرعته متمهلًا بدرجة سمحت لي باللحاق به والسير إلى جانبه. أمال طرف قبعته قليلًا على عينيه. وكونت قطرات المطر المتساقطة على سترته الصوفية ذات اللون الرمادي الداكن حبات صغيرة تشبه حبات الماس المتلألئة، بينما لمعت السلسلة الذهبية التي تحمل ساعة جيبه التي كانت تتدلى من جيب سترته. وبدا للوهلة الأولى بمظهره المتأنق هذا مثل رجال نيمسمير الأرستقراطيين، لكن تعبيرات وجهه لم تكن تخلو من الصرامة والقسوة.

رفع مورو قبعته تحية لرجل كان يمر بجوارنا، لكن ما كان من ذلك الرجل إلا أن عبس مبتعدًا عنا على الفور.

ضحك مورو، يبدو أنه قد استمتع بما حدث. ثم قال موجهًا حديثه إليَّ: «لن يكون سعيدًا أبدًا إذا تأخرنا».

سألته وأنا ألتفت ثانية إلى ذاك الرجل في ارتباك: «من يكون هذا؟».

نطق مورو اسمه بنبرة صارمة جعلتني أتسمَّر في مكاني: «إنه هنريك».

كان خالي هنريك يعمل في تجارة الأحجار الكريمة المقلدة التي ورثها عن والده فيليكس، شقيق ساريا التي تولت رعايتي بعد وفاة والديَّ في حادث مؤسف. فقد أبرمت صفقة مع هنريك آنذاك تتضمن السماح لها بتولي تربيتي في مدينة نيمسمير بعيدًا عن المخاطر المرتبطة بأعمال عائلة روث، على أن تعيدني إلى موطني الأصلي مرة أخرى في ذكرى

ميلادي الثامنة عشرة. وقد أوفى بوعده، وحان الآن الوقت الذي تفي فيه ساريا بوعدها أيضًا.

أسرع مورو من خطواته قليلًا، ثم سألني: «كيف كانت رحلتك؟».

رفعت طرف ثوبي لأعلى تجنبًا لتعرضه لمزيد من البلل، حيث كانت هناك بركة صغيرة من المياه في طريقنا، وتفادينا خلال ذلك الاصطدام بعربة متهالكة ممتلئة بثمرات الخوخ الأحمر كانت تقف على الرصيف، ثم أجبته: «كانت جيدة على أية حال».

أمضيت ليلة واحدة على متن السفينة، وقد فارق النوم جفوني خلالها، حيث أخذت أتأمل النجوم عبر نافذة المقصورة الخاصة التي كنت أقيم فيها. وكان هنريك هو من تولى سداد نفقات هذه الرحلة. لقد استحوذت ساريا على كل تفكيري في تلك اللحظة، إذ تذكرت اقترابها مني، وطبعها قبلة حانية على خدي قبل أن نفترق أخيرًا بعد أن جمعنا القدر عدة سنوات. أظهرت ساريا خلال تلك اللحظات مشاعر مودة وحب جياشة تجاهي لم أعهدها منها من قبل، ما جعلني أشعر بمزيد من القلق مما ينتظرني. وشعرت حينها بملمس بشرتها الناعمة الباردة، وخطرت في ذهني فكرة في تلك اللحظة وهي أنه ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أراها فيها. ومع ذلك ابتعدت عنها دون أن أذرف دمعة واحدة. كانت هذه السيدة ذات فضل عظيم عليَّ؛ فبالإضافة إلى تعليمي أصول القراءة والكتابة، وتعريفي بأنواع الأحجار الكريمة المختلفة، فقد علمتني أصول السلوك القويم، إذ كانت تدعوني دائمًا لتقبل مصيري بصدر رحب، فكثيرًا ما استاءت من هؤلاء الأشخاص الذين يسخطون على أقدارهم، ويرفضون الانصياع لها.

سألني مورو فجأة بينما توقف في منتصف الطريق: «هل تتذكرينني؟».

نظرت مباشرة إلى وجهه، وأخذت أتفحص ملامحه باهتمام شديد. وللأسف لم أستطع تذكره على الإطلاق. كانت هناك لحظات عابرة اعتقدت خلالها أنني أتذكر حياتي قبل إقامتي في نيمسمير. فقد كانت تراودني أحلام عديدة أرى خلالها كثيرًا من الصور المألوفة

التي تحمل ذكريات من الماضي، بيد أنها كانت تتلاشى وتتبخر عند استيقاظي، فتفشل محاولتي الاحتفاظ بها في ذاكرتي.

وهنا سألته بفضول: «هل تتذكرني أنت إذن؟».

ضاقت عيناه، كأنه يفتش في حقيبة ذكرياته، ثم أجاب: «ربما».

ثم انعطف إلى الشارع التالي، دون أن ينطق بكلمة واحدة. لقد ارتسمت على شفتيَّ ابتسامة تنم عن الارتباك والحيرة، قبل أن أقرر أن أسير في إثره. قد يبدو مورو من مظهره الخارجي شخصًا نعم بنشأة أرستقراطية، بيد أنه كان مختلفًا عن باقي أقرانه، فقد كان يتمتع بروح الدعابة التي لا تخلو من المكر، ولم أكن أعرف إذا كنت قد وجدت في اكتشافي ذلك راحة أم انزعاجًا.

سرت معه عبر الممر الحديدي المؤدي إلى مجموعة من الشوارع المتداخلة الواقعة بين صفوف المباني. وكان ضوء الشمس يلقي وهجًا فوق أسطح المنازل، انعكس بدوره على النوافذ الزجاجية التي حجبها الضباب. اكتظت الممرات بالمارة في كل الاتجاهات، واجتاحت رائحة مياه البحر والخبز الطازج الهواء البارد.

لم يكن هذا المكان يشبه مدينة نيمسمير الصغيرة الجذابة بشوارعها الأنيقة الممهدة، وميناءها الصغير. وللحظة عابرة، تملكني شعور بأنني أتذكر هذا المكان، حتى إنني تمكنت من تخيُّل نفسي أقف هنا وأنا في الرابعة من عمري، بينما كانت ساريا تمسك بيدي ونحن متوجهتان نحو الميناء. لكن مرة أخرى تناثرت خيوط تلك الذكريات وتلاشت كما يحدث في كل مرة أحاول فيها جمعها في ذهني.

وبينما تعمقت أكثر بين حنايا مدينة باستيان، إذ أخذت تتكشف أمامي ككتاب مفتوح ما أثار لديَّ شعورًا بالألفة والإثارة. ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيَّ. فهآنذا أسير في شوارع تلك المدينة التي تزخر بالقصص العديدة، بيد أنها جميعًا لم تنتهِ نهايات سعيدة.

الثاني

لم يكن تصميم هذا المبنى تقليديًّا مثل غيره من المنازل المألوفة، أو لم يكن من النوع الذي اعتدته على أية حال.

وقف مورو أمام مبنى صغير من الطوب، يقع بين مبنيين آخرين في زقاق رُصفت أرضيته بالحصى. توقف المطر أخيرًا، لكن ما خلفه من مياه ظلت تسيل من حواف السطح العلوي، وكان لهذا المبنى ثلاثة صفوف من النوافذ المطلة على الشارع. كان ذلك هو منزل الأجداد، إذ سكنه في البداية جدي الأكبر سوير روث. وقد اعتقدت ساريا دائمًا أن أفراد هذه العائلة لن يتوقفوا أبدًا عن العيش فيه. كان رائعًا حقًّا، لكنه مقارنة بالمنزل الذي تربيت فيه في نيمسمير، بدا أشبه بالكوخ.

أحكمت قبضتي على تنورتي فزعًا عندما وقع نظري على واجهة ذاك المنزل المظلم. كما لفتت انتباهي فجأة حركة بسيطة لستارة انزاحت قليلًا عن إحدى نوافذه، بيد أنها لم تكشف إلا عن ظلام دامس خلفها.

أخرج مورو مفتاحًا من جيبه، ثم أداره في قفل الباب. وكنت قد رأيت عندما تجاوزنا المنعطف حقيبة أغراضي تنتظرني بجانب الدرج المؤدي إلى باب المنزل، استأت فور رؤيتي إياها؛ فقد كنت أتمنى أن تؤخذ بعيدًا عني. كانت محتوياتها مثل قيد يكبلني، ويمنعني من الإفلات من ذلك الدور الذي وُلدت لأقوم به.

بدا هذا الجزء من الزقاق فارغًا ومعزولًا تمامًا عن الشارع الرئيسي المزدحم في لوير فالي. وكان من الواضح أنه لا يوجد الكثير ممن يترددون على هذا المكان؛ إذ لم تكن هناك الكثير من آثار الأقدام في الوحل المنتشر على الأرض، كما بدا أنه من غير المرجح أن يمر به

الكثيرون في المستقبل. فأولئك الذين جمعتهم بعض الأعمال التجارية بعائلة روث، لم يكونوا من ذلك النوع الذي يمكن أن يزور هذا المكان أثناء النهار.

فُتح الباب مُحدثًا صريرًا حادًا، وطل من الظلام وجه صبي صغير، بدا عليه العبوس الذي تحول على الفور إلى ابتسامة عريضة حين رأى مورو، ففتح له الباب على مصراعيه ليسمح له بالدخول. فوجئت عند رؤيتي هذا الصبي الذي لا يتجاوز السنوات العشر تقريبًا؛ إذ كان يرتدي سترة وسروالًا يشبهان بالضبط ما كان يرتديه مورو، بيد أنهما كانا مصنوعين من صوف أزرق غامق بدلًا من الرمادي. حتى إن قميصه الأبيض كان نظيفًا وغير مجعد.

تفحصني بعينيه الواسعتين من رأسي حتى أخمص قدمي، كأنه كان ينتظر قدومي بفارغ الصبر، ثم نظر إلى مورو متسائلًا: «هل هذه هي؟».

أجاب مورو وهو يعبث بشعر الصبي المصفف بعناية شديدة متوجهًا إلى الداخل: «نعم».

انزعج الصبي ودفع مورو بعيدًا عنه، وترددت لحظة قبل أن ألج إلى ذلك المنزل الذي بدا من الداخل موحشًا غريبًا.

سألني مورو: «ألن تدخلي؟»، ودون أن ينتظر سماع جوابي، تقدَّم مسرعًا إلى ردهة ذات إضاءة خافتة.

نظرت إلى الزقاق في كلا الاتجاهين مرة أخرى، بيد أنني لم أعرف سبب ذلك. يبدو أن عائلة روث لم يكون أفرادها مجرد سكان في لوير فالي، بل كانوا حراسه، وربما لم يكن هناك مكان أكثر أمانًا في ذلك الجزء من المدينة سوى هذا المنزل. لكن على الرغم من كل ذلك تملكني شعور قوي بأنني ألقي بنفسي بين براثن خطر جسيم.

دلفت إلى الداخل، وأغلق الصبي الباب خلفي، وشرعت أفك أزرار عباءتي، فانزلقت عن كتفيَّ قليلًا.

قال وهو يطالعني بابتسامة مشرقة، شادًّا بإبهاميه حمالات سرواله: «أنا ترو». وبغض النظر عن بريق المرح الطفولي في عينيه، بدا لي كأنه رجل صغير.

تذكرت اسم ترو؛ فقد كان من بين الأسماء التي احتفظت بها في دفتر العائلة المحفور في ذهني، فقد كان الابن الأكبر لخالي نويل. ثم قلت وأنا أنظر إليه: «وأنا برين، سعدت بلقائك».

سأله مورو في دهشة بينما كان يفك أزرار سترته: «أليس لديك عملًا لتقوم به؟».

تنهد ترو قبل أن يستدير صاعدًا الدرج على مضض. ثم اختفى عن الأنظار، ولم يتبقَ منه سوى وقع خطواته خلف الجدران.

عندما دخلت المنزل اجتاح البرد جسدي، فارتعشت أوصالي، وشحبت بشرتي من شدة هذا البرد القارس بينما كنت أتجول بنظراتي بين جنبات المدخل متأملة إياه. اكتست جدران المنزل بالألواح الخشبية القديمة، حتى بدا المكان أشبه بالجزء الداخلي من مقصورة السفينة، بينما اكتست الردهة بورق حائط أحمر داكن تسببت الرطوبة في تموجه وتجعد حوافه القريبة من السقف. كان هناك ضوء خافت ينبعث من مصابيح الزيت المثبتة على حوامل نحاسية، وقد بدا الإهمال جليًّا عليها؛ فقد كانت بحاجة ماسة إلى الصقل.

قال مورو فجأة، وهو يمد يده لتناول عباءتي: «أتعلمين؟ أنتِ لم تتغيري كثيرًا».

ناولته إياها، بينما شعرت بخجل احمرت له وجنتاي.

فسألته متعجبة: «هل تتذكرني إذن؟».

قال بابتسامة ساخرة، وهو يعلق العباءة على الخطاف الخشبي المثبت في الحائط: «بالطبع، أتذكرك، وأتذكر حالتك المزاجية المتقلبة أيضًا».

تجهمت قليلًا؛ إذ تذكرت ساريا التي لو كانت حاضرة وسمعت هذا الكلام، لرمقتني بنظرة أعرف مغزاها جيدًا، فقد كان مزاجي المتقلب هو السمة الوحيدة التي لم تستطع تغييرها

لديَّ.

لم ترق لي فكرة أن مورو قد يعرف عني أكثر مما أعرفه أنا عنه. فمنذ الصغر وأنا أستمع إلى حكايات عن عائلة روث، لكنني لم أفكر في القصص التي ربما قد سمعوها عني، ربما لم يسمعوا شيئًا، حيث لم تتواصل ساريا مع أفراد العائلة منذ أن غادرنا، باستثناء مراسلاتها الضرورية مع هنريك فيما يتعلق بمصالحهما التجارية المشتركة.

كان انتقالها للإقامة في نيمسمير وإدارة مصالحها العائلية بشكل مستقل من هناك بعيدًا عن باستيان يعد امتيازًا منحها إياه شقيقها فيليكس، حتى بعد رحيله، أبقى هنريك هذا الامتياز الممنوح لها. وقد بدا واضحًا لي أنها امتلكت من الحكمة ما يجعلها تتجنب إثارة غضب خالي هنريك بعصيان أوامره؛ لذا لم تتردد قط في حزم أغراضي عندما وصل خطابه. وقد كشف لي هذا الإجراء الكثير عن سمات عائلة روث بما يفوق ما أخبرتني به ساريا طيلة حياتي.

قادني مورو عبر الردهة ذات الإضاءة الخافتة، ومررنا بالمطبخ، حيث وقفت امرأة صغيرة الحجم عند المنضدة تصنع كتلة من العجين. وقد غطت خصلات من شعرها الأشقر الجليدي عينيها جزئيًا بينما كانت تنظر إليَّ، لكن مورو واصل السير دون توقف، متجاوزًا باب المطبخ. وتبعته حتى انعطف، ووقف أمام مجموعة من الأبواب المطلية باللون الأسود ذات مقابض برونزية.

أدركت في تلك اللحظة فقط مدى الهدوء الشديد الذي يخيِّم على هذا المنزل، وهو ما يوحي بعدم وجود أشخاص يعيشون بين جنباته. كان ذلك الأمر مزعجًا حقًّا، فقد شعرت بأن الغرف ظلت شاغرة سنوات عديدة، بل إن المواقد بدت كأنها لم تُستخدم منذ فترة كبيرة أيضًا. وبينما هَمَّ مورو بالإمساك بمقبض الباب، وضعت إصبعي بلطف على ذراعه في محاولة لمنعه من فعل ذلك.

وسألته محاولة أن أبدو أكثر فضولًا، دون أن أبدي له خوفي: «كيف يبدو هذا الرجل؟». الحقيقة أنني شعرت بمزيج من الفضول والخوف، بيد أنني لم أستطع تحديد السبب وراء ذلك. فعلى الرغم من أنني دعيت للمجيء إلى هذا المكان، فقد جعلتني أجواء المنزل الغريبة غير المألوفة أشعر بأنني ضيفة غير مرحب بها.

ترك مورو المقبض، واستدار نحوي، وبدا نصف وجهه مضاء بفعل شعاع ضوء قادم من نافذة مرتفعه، وسألني مستوضحًا: «هل تقصدين هنريك؟».

أجبته: «نعم».

بدا متشككًا في الغرض من هذا السؤال لحظة وجيزة، لكنه عندما مال برأسه قليلًا، ثم زم شفتيه، أدركت أنه كان يفكر حقًّا في إجابته، ثم بدأ اختيار كلماته بعناية قائلًا: «هو شخص واسع الحيلة، ذو حظ وافر من الذكاء، وأكثر ما يهمه حقًّا هو الولاء». بدت نبرة صوته أثناء الحديث هادئة ما بعث في نفسي الطمأنينة، لكن عندما هَمَّ بفتح الباب، توقف مؤقتًا، وأضاف قائلًا: «لكن.. برين».

نظرت إلى وجهه، بينما كنت أمرر يدي على تنورتي من فرط التوتر، وسألته: «ماذا هناك؟».

تقلصت عضلات فكِّه، ثم قال: «عليكِ أن تحرصي على ألا تعارضيه مطلقًا».

داهمني شعور شديد بالقلق عندما فُتح الباب، وملأت الحرارة المنبعثة من المدفأة جنبات الردهة، ما تسبب في سريان قشعريرة في كامل جسدي. بدا أن هذه الغرفة هي غرفة مكتبه، فقد كانت تحتوي على مكتب من الخشب المصقول، وقد وضع أمام مدفأة مشتعلة، كما رصت أكوام من الورق غير المستخدم والمرتَّب بدقة في أحد جوانبه، بينما وضعت في الجانب الآخر منه ريشة ووعاء حبر، وفي منتصفه كان يوجد كتاب صغير ذو غلاف جلدي.

يبدو أن الضوء الموجود في الغرفة لم يكن يصل إلى أركانها ما جعل الإضاءة تبدو خافتة بعض الشيء، على الرغم من نار المدفأة المستعرة. كما تناثرت على أحد الأرفف بعض

الغليونات وصناديق السيجار الفاخر، بالإضافة إلى بعض الحلي. لكن ما لفت انتباهي حقًّا لدى دخولنا إلى الغرفة هو ذاك الجدار الموجود في الخلف؛ حيث وُضعت لوحات ذات إطارات ذهبية مزخرفة مرتبة معًا بشكل وثيق فيما يشبه الفوضى المنظمة. وكانت أبرزها لوحة لجدي الأكبر سوير الذي بنى المنزل، وأسس عمله التجاري الخاص، الذي كان يديره من ورشته الموجودة في هذا المنزل، وعلى يسارها توجد لوحات لابنيه فيليكس وساريا، ولوحة لجوري، نجل ساريا، تقع تمامًا تحت لوحتها، كان جوري هو ابنها الوحيد الذي فقد في البحر عندما كان شابًّا، غير أنه بجوار لوحة جوري كان يوجد مكان خالٍ ويُفترض أن توجد به لوحة أخرى، وقد تُركت في مكانها بقعة دائرية مختلفة في لونها عن باقي لون الحائط.

كانت اللوحة المعلقة فوق المدفأة هي الأكثر ألفة بالنسبة إليَّ، فقد وقف فيها ثلاثة شبان وشابة واحدة، وكان أطول الشبان، الذي خمَّنت أنه هنريك، يقف خلف الآخرين الذين لا بد أنهم كازيمير ونويل وأمي إيدن.

كان هنريك هو الأكبر سنًّا تلاه في العمر كازيمير، بينما كان نويل هو أصغر الثلاثة، وكانت إيدن هي الابنة الوحيدة، وترتيبها الثالث بين إخوتها إذ يعقبها نويل.

كان هناك ما أشعرني بالألفة في وجوههم، لكنني لم أكن متأكدة مما إذا كان ذلك بسبب أنني أعرفهم بالفعل، أم لأنني أردت أن أبدو أنني أعرفهم. فكل ما عرفته عن والدتي كان من خلال ساريا التي كانت تخبرني ببعض المعلومات عنها بنبرة متحفظة قليلًا. فقد كانت مقربة من أمي كثيرًا؛ إذ عندما توفي ابنها جوري حرصت أمي على مواساتها، وأصبحتا مقربتين إحداهما من الأخرى إلى أن تُوفيت إيدن. أخبرتني ساريا ذات مرة بأن فقدانها كان بالنسبة إليها كأنه فقدان ابن آخر من أبنائها.

ارتدت إيدن في اللوحة فستانًا أخضر، بينما تركت شعرها مسترسلًا على كتفيها. اقتربتُ خطوة من اللوحة عندما لاحظت الرسمة الموجودة في باطن ذراعها. كانت رسمة شهيرة معروفة باسم الأوربوروس وهي عبارة عن ثعبانين متشابكين يبلع كل منهما ذيل الآخر،

وكانت هذه هي الرسمة نفسها الموجودة لدى كل فرد من أفراد عائلة روث، حتى ساريا نفسها. ولم يظهر في الرسمة الموجودة لديها سوى رأس ثعبان واحد، بينما كان الثعبان الآخر مخفيًّا تحت ملابسها برأسه وجسده.

لم تكن هناك لوحة لوالدي، فأولئك الذين ينتمون إلى عائلة روث فقط هم من يتاح لهم مكان هنا. ولهذا السبب، حملت أنا اسم أمي بدلًا من اسم والدي؛ إذ لا يهم إلى أي نسب تنتمي، ما دمت ولدت في عائلة روث، ومن ثم لا بد أن تحمل اسمها.

فُتح الباب الواقع في الجانب الآخر من غرفة المكتب، وحينها استقام مورو في وقفته بشكل مفاجئ ثم تنحنح. وتخلَّى سريعًا عن طبعه البسيط غير الرسمي، فرفع ذقنه إلى أعلى، وأرجع كتفيه إلى الخلف، فبدا أطول قامة بشكل غريب.

وقف على الجانب الآخر من الغرفة عند الباب المفتوح رجل بإمكاني التعرف عليه، حتى لو رأيته في أي مكان آخر، ليس لأنني أتذكره فقط، بل لأن حضوره طغى على كل أرجاء الغرفة معلنًا عن نفسه وشخصيته بكل وضوح. كان شعره ذو اللون البني الداكن ممشطًا بعناية، وقد ربطه خلف أذنيه، كان حليق الذقن، فيما أبقى على شارب سميك مجعد ممتد فوق شفته. تركزت نظراته الحادة عليَّ وهو يتفحصني.

قال بصوت أجش مرتفع لا يتناسب مع صغر حجم الغرفة: «ما بال سترتك يا مورو؟».

توتر مورو قليلًا، وامتدت يداه على الفور إلى أزرار سترته، وأغلقها، ثم اعتذر وهو يتنحنح: «آسف».

كان هنريك ممسكًا بخرقة في يديه الكبيرتين، وشعرت بالقلق عندما رأيت مفاصل أصابعه اليمنى مغطاة بجروح ما زالت في طور الشفاء، بينما اكتسى جلد يديه باللون الأحمر، كأنه قد شارك من فوره في مشاجرة وجَّه خلالها بعض اللكمات إلى أحد الأشخاص.

وقفت صامتة في انتظار أن يبدأ الحديث. فعلى الرغم من أنني أتمتع بموهبة تفسير ما تعنيه حركات الآخرين وإيماءاتهم، فقد كان صعبًا عليَّ فعل ذلك مع هذا الرجل.

بعد عدة لحظات من الصمت المطبق، افترَّ ثغره عن ابتسامة باهتة ظهرت أسفل شاربه، أضاء لها وجهه، وتغير نتيجة لها شكل عينيه، ثم قال بنبرة حازمة لا تخلو من المودة: «مرحبًا برين».

وهنا زفرت أنفاسي التي كنت أحبسها.

انتهى من مسح يديه، وألقى الخرقة على المكتب، ثم خلع المئزر الجلدي الذي كان يرتديه ساحبًا إياه من فوق رأسه. كان يرتدي أيضًا قميصًا ناصع البياض تحت المئزر، بينما لمع حذاؤه المصقول في الضوء. سلّم المئزر إلى مورو الذي تقدم إلى الأمام ليتناوله، ثم علَّقه على مشجب الحائط.

قال هنريك وهو يمد يده لمصافحتي: «أنا سعيد بوجودكِ هنا». ولاحظت حينها أنه يرتدي خاتمًا مميزًا لإحدى المجموعات التجارية في أصبعه الثالث، وتتوسطه جوهرة مصقولة على شكل عين النمر.

ألقيت نظرة خاطفة نحو مورو، وقد هالني هذا التحول المفاجئ في سلوكه وحالته المزاجية، حيث وقف صامتًا مستندًا إلى الحائط. ثم مددت يدي إلى هنريك، فضم أصابعي كلها بيده، وضغط عليها قليلًا بمودة واضحة، وقال بينما ما زال ممسكًا بيدي: «ها قد عدتِ إلى حيث تنتمين حقًّا».

عندما أفلت يدي أخيرًا، اتكأ بظهره على طرف المكتب مشبكًا ذراعيه فوق صدره، ثم قال: «لقد مر وقت طويل منذ أن غادرت».

قلت له: «لقد مر وقت طويل جدًّا بالفعل». لم أكن أعرف كيف يمكنني الرد على تحية مثل هذه، ولم يعطني هنريك أي مؤشر لتوقعاته.

ثم سألني: «وكيف حال عمتي؟».

أجبته: «إنها بخير». ولم أخبره بأنها ترسل تحياتها إليه؛ لأنها لم تفعل، وكان لديَّ شعور بأن ذلك لن يكون مفاجئًا له، فمن الواضح أن علاقتهما لم تكن على خير ما يرام.

قال وهو يومئ برأسه: «أنا سعيد لسماع ذلك»، ثم أضاف متسائلًا: «وكيف كانت رحلتك، والمقصورة التي أقمتِ فيها على متن السفينة جاسبر؟».

أجبته: «كان كل شيء على ما يرام، شكرًا لترتيبك كل هذا، أنا ممتنة لك حقًّا».

ساد الصمت الغرفة مجددًا، بينما أخذ هنريك يتفحصني بفضول، حيث نظر أولًا إلى شعري، ثم إلى ثوبي، وحذائي، والسوار المتلألئ حول معصمي، ثم قال: «سوف يصطحبك مورو إلى غرفتك، فأنا متأكد من أنك متعبة جدًّا، ستقابلين بقية أفراد العائلة الليلة على العشاء».

حملت كلماته نبرة آمرة تنم عن سلطة فوقية، لكنني على الرغم من ذلك شعرت ببعض الراحة. وبينما هممت بالحديث مرة أخرى، كان مورو يفتح الباب بالفعل، نقلت نظراتي بينهما، وأدركت حينها أن هنريك لم يكن يقدِّم اقتراحًا مهذبًا، بل كان ينهي كلامه ليصرفني.

اضطررت إلى رسم ابتسامة مهذبة على شفتيَّ، وقلت له: «أنا سعيدة بلقائي لك أول مرة منذ فترة طويلة». بدا هنريك في ذلك الوقت أكثر حدة، حيث قال بنبرة صارمة: «أعتقد أن هذا ما قد يبدو لكِ».

تلاشت ابتسامتي تدريجيًا، فلم أكن أعرف ما الذي يعنيه بذلك، ربما بالنسبة إليه لم يكن هذا يعد اللقاء الأول لنا؛ إذ كان يعرفني منذ أن كنت طفلة، أو ربما لأنه لم يشعر بأنني غريبة عنه، وفي كلتا الحالتين لم يبدُ عليه الغضب، وقد اعتبرت ذلك إشارة جيدة.

قال بعد أن ابتعد عن المكتب، ووقف مستقيمًا: «سأراك الليلة»، ثم استدار نحو المدفأة، وتناول الكتاب الصغير ذا الغلاف الجلدي، نظرت إليه خلسة بينما كنت أغادر الغرفة.

لطَّفت برودة الجو في الخارج من حرارة جسدي المرتفعة نتيجة نيران المدفأة المشتعلة في غرفة المكتب.

أشار مورو إلى درج خلفي كان ترو قد صعده منذ قليل، وقال: «اتبعيني من فضلك».

تبعته إلى أعلى، وبينما كنا نرتقي الدرج المتعرج كانت كل خطوة لنا تحدث صريرًا. وعندما وصلنا إلى الطابق التالي لاحظت دخول بصيص من ضوء الشمس من خلال نافذة مرتفعة في الطابق الأعلى من المنزل، بينما تحولت السماء في الخارج من اللون الرمادي إلى اللون الأزرق.

قادني مورو عبر منعطفين قبل أن يتوقف أمام باب مغلق. ما إن فتحه حتى زاد المكان إشراقًا بمزيد من الضوء الناصع . كانت النافذة الوحيدة في الطرف الآخر من الغرفة الصغيرة متصدعة، بعض الشيء، ما أتاح مرور بعض نسمات الهواء.

نقر مورو على الجزء العلوي من حقيبتي الموضوعة عند طرف السرير لافتًا انتباهي إلى وجودها، فقد أحضرها أحد الأشخاص، بالإضافة إلى عباءتي المعلقة الآن على المشجب خلف الباب.

تجولت بنظري في الغرفة، فرأيت طاولة صغيرة لأدوات الزينة وسريرًا. بينما كانت هناك في إحدى الزوايا مرآة طويلة، وضع على أحد جانبيها وعاء وإبريق مصنوعان من الخزف، ووضع على الجانب الآخر كرسي. كما طُليت جدران الغرفة بلون أخضر باهت للغاية، كما كشفت شقوق الطلاء عن الجص الأبيض تحته.

كانت الغرفة بسيطة لا تحتوي على الكثير من الأثاث أو الزخارف، لكن بدا أن أحدًا قد سكنها من قبل، وقد أحببت ذلك.

دائمًا ما شعرت في نيمسمير بأنني جوهرة غير مصقولة يتحلى بها مشبك زينة لامع، فقد كنت أشعر بأنني لم أكن في المكان المناسب لي حقًّا، ما زاد من حدة غضبي وسرعة استثارتي. وقد بذلت ساريا قصارى جهدها لتجعلني واحدة من الفتيات اللائي ينتمين إلى عائلات تجارية مرموقة، وينتظرن زواجهن بالشخص المناسب تمامًا مثلما يجري التوفيق بين حذاء لامع وثوب أنيق، لكن باءت جميع محاولاتها بالفشل، فلم أنصهر في بوتقتهن، ولم أكن يومًا لأرغب في ذلك.

وهكذا شعرت بأن باستيان هي وجهتي المنشودة، وفرصتي للتحرر من تلك المسرحيات الهزلية التي كنت مضطرة إلى المشاركة فيها، والزواج المدفوع بأغراض مالية وسياسية.

سألت، وأنا أتطلع إلى مشط مصنوع من صدفة سلحفاة، وضع فوق طاولة أدوات الزينة: «لمن كانت هذه الغرفة؟ أعني.. قبل ذلك».

اعترى وجه مورو قليلٌ من التغيير، وأجاب قائلًا: «كانت لشخص لم يعد هنا الآن» ثم تراجع إلى الردهة وأضاف: «مرحبًا بكِ في بيتك!».

بعد أن أصبحت بمفردي تقدمت بضع خطوات نحو النافذة، ومددت يدي لأغلقها، فنظرت إلى الخارج لأجد أسطح المنازل في باستيان لا تزال تتلألأ بحبات مياه المطر، بينما اختبأت الشمس خلف سُحب الضباب، عندها فقط أدركت حقًّا مدى اتساع هذه المدينة العريقة. انتشرت العديد من المباني فوق التلال الممتدة على طول الخط الساحلي لأبعد نقطة يمكن أن يصل إليها بصري. وبدت نيمسمير تلك المدينة الساحلية التي كانت عالمي كله صغيرة جدًّا مقارنة بمدينة باستيان، وجعلتني تلك الفكرة أشعر بالضآلة وأنا أنظر من النافذة.

توجهت نحو عباءتي، ووضعت يدي في جيبها لأخرج من داخله الظرفين اللذين كانا فيه. كان الظرف الأول هو خطاب هنريك المجعد المهترئ، بينما كان الظرف الآخر، الذي لم أمتلك الشجاعة بعد لقراءته، في حالته الأولى كما هو نظيف ومستوٍ، وفي داخله يوجد

الخطاب الذي أعطتني إياه ساريا قبل مغادرتي، وكان مختومًا بالشمع الذي كان يحمل الأحرف الأولى من اسمها«س.ر».

فتحت الدرج العلوي لطاولة أدوات الزينة، ووضعت الظرفين فيه قبل أن أجلس على طرف السرير لأخلع حذائي. رفعت ساقيَّ أسفل تنورتي لأعلى حتى ضممتهما إلى صدري وأنا أرتجف خوفًا؛ فقد عاد الهدوء والصمت ليحكما قبضتهما على المنزل مرة أخرى، حتى بدا أشبه بكهف أجوف وفارغ.

أخذت كلمات هنريك تتردد في ذهني: «ها قد عدتِ إلى حيث تنتمين حقًّا».

لم أعهد قط ذاك الشعور بالانتماء، لا أثناء عيشي في نيمسمير، ولا في علاقتي مع ساريا كذلك. لكن هناك صوتًا خافتًا وجد طريقه إليَّ وأنا أعبر عتبة ذاك المنزل المختبئ في زقاق لوير فالي الكئيب، شق طريقه إلى رأسي مرددًا كلمة واحدة ومرعبة قالها مورو منذ قليل:

بيتك.

الثالث

لم أكن أنوي إرسال خطاب إلى ساريا، على الأقل في الوقت الحالي.

وفي الساعات التي تلت وصولي إلى لوير فالي، أخرجت أغراضي من الحقيبة، وبدأت في تنظيمها، فوضعت بعضها في عدة أدراج، والبعض الآخر في خزانة الملابس، كما وضعت مجوهراتي في الصندوق الزجاجي الصغير الموضوع على طاولة أدوات الزينة، ثم أخذت أذرع الغرفة ذات الأرضية الخشبية ذهابًا وإيابًا أمام المرآة كاملة الطول؛ إذ كنت أشعر بالقلق الشديد. وبعد أن أمضيت ساعة كاملة أحدق من النافذة إلى تلك المياه البعيدة وهي تصبح أكثر قتامة مع انحسار ضوء النهار، جلست أخيرًا إلى المكتب، وتناولت ورقة فارغة.

أمسكت بالريشة، وتمخضت محاولاتي للكتابة عن مزيج من الأفكار غير المكتملة، والاعترافات الصريحة، لكن ما إن وقَّعت على الورقة باسمي، حتى مزقتها وتركتها للهب الشمعة تلتهم كل تفاصيلها.

كنت أدرك تمام الإدراك أن ساريا ستفسر خطابي السريع إليها بأنه علامة على الضعف والخوف؛ فلن تجد أدنى صعوبة في استيعاب مشاعر الشك والقلق الكامنة وراء هذا الخطاب السريع، والأسوأ من ذلك كله أنها كانت ستعلم أنني بحاجة إليها.

لم تُبدِ ساريا مشاعر حب جياشة تجاهي خلال فترة عيشنا معًا، كنت أعتقد دائمًا أن السبب وراء ذلك هو معرفتها أننا مقدَّر لنا أن تفترق إحدانا عن الأخرى يومًا ما. أو ربما لأن ألم فقدان ابنها وأمي كان يطاردها كثيرًا حتى إنها لم تسمح لنفسها قط بالتعلق بي، بيد أن مشاعر ألم جياشة داهمتني وعصفت بصدري بينما وقفت على متن السفينة جاسبر وأنا أرى حجم ساريا يتضاءل شيئًا فشيئًا كلما ابتعدت السفينة عن رصيف الميناء، وكأن عُرى

علاقتنا قد انفصمت أخيرًا، وكتب الزمان السطر الأخير في رحلتنا معًا. فللمرة الأولى في حياتي أبتعد عنها، وأسلك طريقي الخاص بمفردي.

وقفت في أعلى الدرج أستمع إلى صوت قعقعة الكئوس الزجاجية، ووقع أقدام عديدة في الطابق السفلي، وقهقهات عالية. فقد أصبح المنزل ممتخمًا بالناس، وتبدد الصمت الذي كان يسوده في ظهيرة ذلك اليوم. أدركت لحظة أن كل ذلك أثار ذكرى مدفونة في مكان عميق في ذهني؛ إذ يبدو أن رائحة زيت المصباح ودخان السيجار والوهج الذهبي لنار المدفأة مع بريق الكريستال المتلألئ قد أثار بعض الذكريات لديَّ.

لامست تنورتي جدران الدرج الضيق، بينما كنت أهبط إلى الطابق السفلي، ثم وقفت عند الجانب الآخر من مدخل غرفة الطعام. ولاحظت تراقص الظلال على الجدران أثناء تدفق الضوء من الثريا المعلقة في السقف، كانت قطعة فنية رائعة لا تتناسب على الإطلاق مع حالة المنزل المتهالكة.

رسمت ابتسامة مهذبة ولطيفة قبل دخولي بحذر عبر مدخل الغرفة المفتوح، مشبكة أصابع يدي معًا أسفل ظهري، وما إن رآني أفراد العائلة، حتى ساد صمت تام. ولاحظت سبعة أزواج من العيون، تتلألأ جميعها في وهج النار، وكانت بين هؤلاء امرأة واحدة فقط، نحيلة، ذات شعر داكن، وتحمل طفلًا صغيرًا على فخذها، وعلى عكس الآخرين، لم تنظر إليَّ مباشرة؛ إذ كانت مشغولة بتصفيف شعر الصبي الصغير وجمعه خلف أذنيه.

خرج هنريك من وسط الحشد متقدمًا نحوي وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

ثم صفق بيديه وهو يسير نحوي، بينما جعلتني نظراتهم المحدِّقة والمتفحصة أقف مكاني بلا حراك. وقف بجانبي، ولف ذراعه حول كتفي، فحاولت أن أبدو هادئة. غمرتني رائحة ملمع الجلود الذي استخدمه، وتلك العطور الذكورية النفاذة المنبعثة منه، فنادرًا ما كنت أشم هذه الروائح في منزلي في نيمسمير.

قال هنريك وهو يشير بيده نحو الرجل الواقف بجوار مورو: «أود أن أعرِّفك مرة أخرى على أخوالك يا برين، هذا خالك كازيمير». وكان يقف منتصبًا مرفوع الكتفين تمامًا مثل ابنه، بيد أنه كان أقل طولًا منه. بينما تمثل الاختلاف الأبرز بينهما في تلك النظرة المتأملة التي بدت واضحة على وجهه، أما مورو، فكانت نظراته دائمًا تنم عن المرح والحيوية.

كان كازيمير عاقدًا يديه على صدره، فرفع إحداهما تحية لي.

أضاف هنريك: «وأنتِ تعرفين بالطبع ابن خالك مورو». أومأ مورو إيماءة بسيطة برأسه تحية لي، وبدا على وشك الضحك ما جعلني أشعر بالحرج، فربما قد انعكس شعوري الداخلي بالقلق والارتباك على مظهري الخارجي.

قال هنريك مشيرًا إلى رجل يبدو أقصر قامة يقف على الجانب الآخر من المدفأة: «وهذا نويل، يعيش مع عائلته في الشقة الموجودة في الطابق الثالث»، كان أصغر سنًّا وأكثر وسامة، له عينان واسعتان، وقد نمت تعبيرات شفتيه عن لطف وترحاب.

قال نويل بنبرة هادئة لطيفة: «مرحبًا».

وتابع هنريك حديثه قائلًا: «وهذه زوجته أنثيليا، وطفلاهما ترو وجيمسون».

رمقتني تلك المرأة أخيرًا بنظرات سريعة. ثم أطل من خلفها الصبي الصغير ترو الذي فتح لنا الباب في وقت سابق من هذا اليوم، ورفع قبعته لي في تحية رسمية كأنه رجل بالغ.

ثم أضاف هنريك: «أنا متأكد أنكم ستشاركونني جميعًا الترحيب بعودة ابنتنا برين إلى باستيان».

تسببت كلماته هذه، وخاصة كلمة ابنتنا، في سريان القشعريرة في جسدي كله مرة أخرى.

ربت هنريك ظهري على نحو مفاجئ، فتأرجحت إلى الأمام قليلًا، ما تطلب مني اتخاذ خطوة إلى الأمام تجنبًا للسقوط، فامتلأت الغرفة بالضحك ما جعلني أحمر خجلًا. وكان

سلوكهم محيرًا تمامًا كتعبيراتهم المبهمة التي لم أستطع أن أتبيَّن منها إن كانوا سعداء برؤيتي أم كانوا يضمرون لي بعض النيات الخبيثة.

تقدَّم هنريك إلى مقدمة الطاولة، ثم قال: «فلنبدأ إذن...»، وفي الوقت نفسه تقريبًا ترك الجميع أماكنهم، واصطفوا بعضهم إلى جانب بعض خلف المقاعد الشاغرة.

شعرت بيد تلمس ذراعي، فالتفت لأرى مورو يرشدني إلى الجلوس على المقعد المجاور له، فشعرت بالامتنان. يبدو أن هؤلاء الأشخاص يفتقرون إلى الكياسة واللطف. وكانوا يرتدون ملابس أنيقة، ويظهرون بشكل جيد، لكن كان هناك شيء ما في مظهرهم يشير إلى طبيعتهم الوحشية، لكن ما بدا واضحًا هو انصياعهم جميعًا لأوامر هنريك الذي اتخذوه قائدًا لهم.

وقف الجميع ينتظرون بصبر بينما حدَّقت أنا إلى المقعد المقابل لي؛ فقد كان المقعد الوحيد الشاغر.

أُعدت طاولة الطعام بشكل جيد، حيث وضعت الأطباق الفاخرة، وأدوات الطعام الفضية، والكئوس الكريستالية، وفوط المائدة الكتانية. كما وُضع في منتصف الطاولة لحم مشوي مُحاط بالبطاطس المتبلة بالأعشاب. كان هذا مشهدًا مألوفًا بالنسبة إليَّ، باستثناء تلك الزجاجات الداكنة الموضوعة عند أطراف الطاولة التي كانت تحتوي على نوع خاص من المشروبات، الذي لم أعهده قط في حياتي يُقدَّم في عشاء راقٍ؛ فهو مشروب رخيص للغاية يقدم في الأماكن الشعبية.

سحب هنريك مقعده ليجلس، فتبعه الآخرون في تزامن مثالي، ما صنع مشهدًا سلسًا ومنسقًا. أحدثت نار المدفأة من خلفه وهجًا دافئًا، وكشفت عن كتاب بغلاف جلدي موضوع على يمينه، وهو الكتاب نفسه الذي لفت انتباهي على مكتبه.

قال لي مبتسمًا: «لقد ظل هذا المقعد شاغرًا منذ فترة طويلة».

أدركت حينها أنه كان المقعد المخصص لأمي على الطاولة. لقد أزعجتني هذه الفكرة في البداية، لكن سرعان ما تبعها شعور بالأهمية وعِظم الهدف. فقد أصبح السبب وراء وجودي هنا واضحًا؛ إذ كان عليَّ أن أتولى دورها، وأرسخ وجودي في العائلة، وأساعد هنريك على سد الفجوة بين لوير فالي والنقابات التجارية لزيادة الاندماج معها، ومن ثم الفوز بمقعد في مجلس التجار.

التقط مورو سلة خبز ومررها إليَّ، فحدَّقت إليها غير متأكدة مما يريدني أن أفعله بها، فكتم ضحكة أخرى، ثم انتزع إحدى اللفائف من السلة، ووضعها في طبقي. وغمغم قائلًا: «يبدو أنك مضطربة للغاية حتى إنك أصبحت على وشك الاختباء تحت الطاولة من شدة الخجل»، ثم مد يده من فوقي ليعطي السلة إلى نويل الذي كان يجلس إلى جانبي الآخر.

قلت له مبتسمة في محاولة لتدارك الموقف: «عذرًا»، ثم فردت منديل المائدة الخاص بي، ووضعته على فخذي، لكنني لاحظت أن الآخرين تركوا مناديل المائدة الخاصة بهم مجعدة بجوار أطباقهم.

تملكني شعور بالحرج الشديد، وبدأت الحرارة تتصاعد من ياقة ثوبي، وشعرت بها تحرق جلدي. لم أكن أعرف كيف أتصرف وماذا أفعل، وبدا أن الجميع باستثناء مورو وهنريك يراقبون كل تصرفاتي، ويتطلعون إليَّ بنظرات جانبية مع كل بضع قضمات.

فُتح باب في مكان ما في المنزل ثم أغلق، وشعرت بنسمات باردة، يبدو أن أحدهم قد دخل من فوره من الشارع، لكن لا يبدو أن أحدًا قد لاحظ ذلك، كانوا منهمكين في تناول الطعام والشراب. وسمعت وقع أقدام تقترب من مدخل الغرفة حتى ظهر شخص ما، وانسل إلى غرفة الطعام دون أن ينبس ببنت شفة، تتبعته بعينيَّ وهو يتحرك حول الطاولة حتى جلس على المقعد الشاغر أمامي.

كان شابًّا يرتدي قميصًا أبيض وسروالًا ذا حمالات، أبرز حاجباه الداكنان عينيه الأكثر دكنة، وكانت بشرته ناعمة وملامحه واضحة. بدا مختلفًا عن الآخرين تمامًا.

قال له هنريك بنبرة مرتفعة تحمل بعض اللوم والرفض: «لقد تأخرت»، فلم يجرؤ ذاك الشاب على أن يرفع عينيه عن طبقه، فيما ساد التوتر الغرفة بشكل ملحوظ.

لكنه لم يقل سوى: «معذرة». ثم جلس على مقعده مستقيمًا وعيناه مثبتتان على طبقه.

التقط الشاب شوكته، وبدأ يتناول طعامه في صمت، بينما مد مورو يده عبر الطاولة ليملأ له كأسه. أحكمت قبضتي حول كأسي فزعة عندما لاحظت بعض الندوب التي تغطي يديه، وقد امتدت إلى مفاصله وأصابعه، واختفت بقيتها تحت أطراف قميصه.

نظر إليه هنريك، وقال له معاتبًا: «لا تكن وقحًا يا إزرا».

تشنجت عضلات فكه قبل أن يتنحنح ويرفع نظره عن المائدة أخيرًا. والتقت عيناه بعينيَّ، وكانت نظراته حادة للغاية حتى إنني شعرت بالحرارة تلهب جلدي، وابتلعت ريقي بصعوبة.

لم يكن اسم إزرا من بين أسماء الأشخاص الذين أعرفهم هنا.

ثم قال لي: «يسعدني مقابلتك!»، كانت كلماته مهذبة لكنها افتقدت إلى أي مظهر من مظاهر الصدق، وما إن تفوه بها حتى عاد بنظره إلى الطاولة.

فأجبته: «أنا أيضًا»، ثم غرست شوكتي في التفاحة الموضوعة في طبقي بينما كنت أتفحصه.

بدا هذا الشاب مختلفًا، ليس فقط من حيث المظهر. بل كنت متأكدة أنني لم أسمع اسمه من ساريا على الإطلاق، لكنه بدا في عُمر مورو وربما أكبر عامين مني. فإذا كان ظني صحيحًا، فهو ليس ممن تربطهم بالعائلة صلة دم، لكن بما أنه يحتفظ بمكان على هذه الطاولة، فإنه يُعتبر بطريقة ما فردًا من العائلة.

قال هنريك بعد أن استشعر فضولي: «إزرا هو صائغ الفضة لدينا». نظرت إلى يديه، كان هذا يفسر الندوب الموجودة على يديه إذن، فقد كانت بسبب عمله.

تناول هنريك قضمة أخرى كبيرة من اللحم المشوي، وعندما انتهى من مضغها وضع الشوكة على طبقه بصوت عالٍ، فانتبه إليه الجميع تاركين طعامهم. ثم أسندوا ظهورهم إلى مقاعدهم، وأخرجوا دفاتر صغيرة من ستراتهم وكأنهم ينتظرون شيئًا ما.

حذوت حذوهم، فوضعت سكيني على حافة طبقي بعناية، ثم وضعت يديَّ بين قدميَّ، وأنا أشعر بالتوتر الشديد.

فتح هنريك دفتره، وانتقل إلى صفحة مليئة بالملاحظات، بدا لي كأنه دفتر حسابات.

قال هنريك وهو يلتقط ريشته: «تفضل بالبدء يا كازيمير».

ساد صمت متوتر، ونظرت إلى أعلى، فرأيت أن أكثرهم ينظرون نحوي، بدا أنهم يريدون مناقشة بعض التفاصيل التي لا يريدونني سماعها. ما جعلهم غير مرتاحين لوجودي أثناء ذلك.

قال هنريك بنفاد صبر: «ألن تبدأ يا كاز؟».

وضع كازيمير مرفقيه على الطاولة، ورمقني بنظرة سريعة قبل أن يبدأ حديثه قائلًا: «هل سنناقش العمل الليلة؟».

رد هنريك مبديًا انزعاجه من السؤال: «أليس هذا ما نفعله في كل عشاء عائلي؟».

قالت أنثيليا بابتسامة باردة: «بالتأكيد لا ترغب برين أن نزعجها بأمور العمل الليلة».

لم أكن غبية، كان من الواضح أن معظمهم لم يكونوا سعداء بوجود وجه جديد على الطاولة حتى إن كنت ابنة إيدن. ولم ألُمْهُم على ذلك، فقد كنت دخيلة عليهم على أي حال.

أطبق صمت غريب على الغرفة، وغلفها بتوتر خانق، حتى إنني أخذت أعضعض خدي من الداخل بعصبية شديدة.

وضع هنريك ريشته، ثم التفت إلي محاولًا التحلي بالصبر، وسألني: «هل تشعرين بالملل يا برين؟».

انفرجت شفتاي قليلًا وأنا أتجوَّل بنظري حول الطاولة بينما اندفعت الحمرة إلى وجنتيَّ خجلًا، وأجبته أخيرًا: «كلا».

تحول هنريك بنظره سريعًا إلى كازيمير، وسأله: «هل اقتنعت هكذا؟». أطلق كازيمير تنهيدة عميقة تنم عن استسلامه لطلب هنريك، ثم لاحظته وهو يفتح دفتر الحسابات الخاص به، ويمرر طرف إصبعه على الأرقام قائلًا: «ثلاث وأربعون لذلك الشخص الذي يقوم دريك بتدريبه، ومائة واثنا عشر لربان سفينة إيمرالد».

خمنت أنها رشاوى، فقد كان نجاح الأعمال التجارية الخاصة بالعائلة يتطلب الحصول على بعض المعلومات السرية، الأمر الذي استدعى دفع رشاوى للحصول عليها، وكانت ساريا تفعل الشيء نفسه في نيمسمير، حيث كانت تدفع للتجار مقابل تقديم معلومات استخباراتية عن ربانبة السفن، أو إبلاغها بآخر المستجدات في المدن الساحلية الأخرى؛ لذا لم يكن ذلك شيئًا جديدًا عليَّ. لكنني ركزت نظري على نار المدفأة حرصًا مني على عدم إظهار أدنى قدر من الاهتمام لما يقولونه. وبدا جليًا أن العديد من الأفراد الجالسين إلى الطاولة لا يرغبون في سماعي مناقشاتهم؛ لذا حرصت على عدم القيام بأي شيء قد يلفت انتباههم إلى وجودي.

تساءل هنريك: «وماذا عن الشعير؟».

أجابه كازيمير: «سيصل أربعة عشر صندوقًا من منطقة ناروز على متن سفينة ألدر بعد يومين».

فسأله هنريك: «هل ستكون جاهزًا؟».

أومأ كازيمير برأسه بالإيجاب، ثم أغلق دفتره.

فتوجه هنريك بالحديث إلى نويل، وسأله: «ماذا لديك يا نويل؟».

أجاب نويل: «يبدو أن تولا قد حصلت على سفينة جديدة تسمى سيربنت، وستقوم بالبحث عن تاجر للتعاقد معه، وتوسيع تجارتها إلى منطقة ناروز، وأعتقد أن سايمون سيحاول اقتناص هذه الفرصة».

قطب هنريك حاجبيه عابسًا. فقد كان يدرك أنه عندما يوسِّع التجار تجارتهم، وتزداد أساطيلهم، ذإن ذلك يتيح لهم مزيدًا من الفرص الجديدة، لكنه كان يعرف أنه ليس مؤهلًا لاقتناص مثل هذه الفرصة التي تلوح في الأفق؛ إذ لم يكن الخاتم الموجود في إصبعه يسمح له إلا بممارسة التجارة في منطقة ناروز دون سواها.

أضاف نويل: «سأذهب إلى المقهى الليلة لأرى ما يمكنني اكتشافه، فبالتأكيد سيكون هناك عدد كبير من التجار الذين يسعون جاهدين للحصول على هذه الصفقة».

مال هنريك برأسه قليلًا إلى أحد الجانبين، ثم تساءل وهو يرفع نظره عن دفتره: «وماذا عن سجلات رئيس الميناء؟».

أجابه نويل: «إنها تُنسخ الآن وستكون جاهزة للتسليم غدًا».

كان لكل فرد من أفراد العائلة عمل خاص يقوم به من شأنه أن يدر الربح في النهاية على شركتهم الخاصة. ويبدو أن كازيمير كان مسئولًا عن تجارة الشعير، بينما كان نويل مسئولًا عن متابعة نشاط رئيس الميناء. ووفقًا لما قالته لي ساريا، كان لوالدتي ما يُطلق عليه «بيت شاي» صغير خاص بها، لكنه للأسف لم يُفتتح، وكانت أهم نصيحة قدمتها لي قبل أن أغادر نيمسمير هي أن أؤسس عملًا لي في أقرب وقت ممكن من شأنه إدرار الربح للعائلة، فكلما أسرعت في كسب المال، كسبت ثقتهم بشكل أسرع.

دوَّن هنريك مجموعة أخرى من الأرقام في دفتره، ثم تساءل: «وماذا عن السلع المدرجة في بيان شحن السفينة التالية يا إزرا؟»

على عكس الآخرين، لم يُخرج دفترًا من سترته، وأجاب من الذاكرة بدلًا من الملاحظات المكتوبة، قائلًا: «إنه يضم ستة صناديق من الطوب البرونزي، وأحد عشر صندوقًا من السيجار، وسيتوافر الحرير في الأسبوع المقبل، وبعض الأحجار الكريمة للاختيار منها، وبخلاف ذلك لا يوجد جديد».

صمت هنريك قليلًا ثم سأله: «في رأيك أي من هذه العناصر يجب أن نركز على حيازته؟».

فكر إزرا في الأمر لحظة قبل أن يجيب: «أرى أنه من الأفضل أن نجلب المزيد من الطوب البرونزي».

قال هنريك وهو يدوِّن ملاحظة أخرى: «حسنًا إذن، فلنحُز المزيد من الطوب البرونزي».

توقف عن توجيه الأسئلة للأفراد الملتفين حول الطاولة التي أصبحت الأطباق الموضوعة عليها باردة. وانتهى كل منهم من تقديم تقاريرهم الغامضة التي دوَّنها هنريك بعناية. وكان قد طرح عليهم العديد من الأسئلة ووزع على كل منهم المهام المحددة له. ودارت المناقشة في جزء كبير منها حول شحنات السفن والسلع التجارية التي لم يكن باستطاعتهم تداولها ما لم يكن لدى هنريك ذاك الخاتم الذي يسمح له بممارسة التجارة في باستيان.

توجه نويل بالحديث إلى هنريك، وسأله: «هل تلقيت دعوة من سايمون بعد؟».

ها هو اسم سايمون يتردد مرة أخرى.

ارتعش شارب هنريك بطريقة مضطربة وهو يغلق دفتر الحسابات بعنف، وقال: «كلا». يبدو أن ما كان يتحدث عنه نويل قد أثار غضبه.

ساد الصمت حول الطاولة فترة قصيرة، وتبادل كازيمير ونويل بعض النظرات قبل أن يعاودا تناول طعامهما. وهكذا، انتهى الحديث عن العمل، وبدا أن هناك ارتياحًا جماعيًّا. ولم

يقل أحد كلمة أخرى عن ذلك الأمر، وشُغِل الجميع بتناول الطعام، وأصبحوا أكثر استرخاءً وهم يتناولون شرابهم. لكن ذلك لم يكن هو حال إزرا.

في كل مرة اعتقدت فيها أنه يحدق إلى وجهي، كنت أنظر إليه لأجده يحدِّق إلى طبقه. ولم يكن يتحدث كثيرًا، ويجيب عن أسئلة هنريك سريعًا وباقتضاب في كل مرة، لكنه لم يبادر قط بالحديث.

ظللت بقية الوقت أعبث بطعامي ممتنة لكونهم لم يلتفتوا لي حتى نهاية وجبة العشاء، فصحيح أن هنريك هو من استدعاني إلى باستيان لتولي الدور المنوط بي في العائلة، لكن لم يخطر ببالي أنه سيكون هناك من لا يرحب بوجودي وسط هذه العائلة.

جفلت لدى سماعي صوت احتكاك حاد لأرجل مقعد بالأرض، ونظرت إلى أعلى لأرى هنريك وقد نهض عن مقعده. وبمجرد أن ألقى منديله على الطاولة، انزلق جيمسون من حضن والدته، وانطلق يركض سريعًا في الردهة. ثم حذا الآخرون حذو هنريك تاركين مقاعدهم بجوار الطاولة، وأخذ كل منهم مشروبه معه. لم أشرب سوى القليل من كوبي، لكن مورو أعاد ملأها على أي حال.

ثم قال لي ساخرًا: «تهانينا. لقد مر عشاؤك الأول مع العائلة بسلام دون أي مشاجرات أو مناقشات عنيفة».

ابتسمت ابتسامة بسيطة، والتقطت الكوب الصغير، وأخذت رشفة منه، فتقلصت شفتاي، وتبدلت تعبيرات وجهي؛ فلم يكن يروق لي على الإطلاق. يبدو أنني بحاجة إلى بعض الوقت للتأقلم على شراب الشعير هذا.

اندفع الآخرون نحو المطبخ، وتجمَّعوا حول منضدة طويلة بينما كانت المرأة القصيرة النحيلة التي رأيتها في وقت سابق تضع أطباقًا من المعجنات. ولم يستخدموا شوكات أو أطباقًا بل التقطوا الكعك بأيديهم، وتبادلوا الضحك والأحاديث بأفواه مليئة بالكعك، ولم

أستطع إلا أن أبتسم. فعلى الرغم من عدم إظهارهم سلوكيات المجتمع الراقي، خاصة في ذلك الموقف، قد تخلّوا عن تعاملاتهم الرسمية وعواطفهم المتصنعة.

شاهدتهم وأنا أقف عند مدخل المطبخ، كانوا متناغمين بعضهم مع بعض، واعتقدت أن ذلك كان نتيجة نشأتهم معًا في عائلة واحدة. لقد كان شعورًا لم أجربه من قبل، ووجدت راحة في ضوضائهم وتعاملهم فيما بينهم بتلقائية وعفوية، فقد كان هناك دفء حقيقي بينهم. وعلى الرغم من الإحراج الذي شعرت به أثناء وجبة العشاء، وجدت شيئًا أحببته في هؤلاء الأشخاص غريبي الأطوار.

بعد أن انخرطوا في أحاديثهم الخاصة، عدت أدراجي عبر الردهة بخطوات هادئة، ثم صعدت الدرج حتى وصلت إلى غرفتي. كان الطابق الثاني يغمره سكون مطبق، وعندما مددت يدي إلى مقبض الباب لاحظت شعاعًا رقيقًا من ضوء القمر عند قدمي. كان باب الغرفة المجاورة لغرفتي مفتوحًا بعض الشيء، ورأيت ومضات من اللون الأبيض وسط الظلام، بينما كنت أخطو نحوه بخطوات حذرة، ثم دفعت الباب بلطف.

كانت غرفة نوم أخرى تشبه غرفتي تمامًا، فالسرير كان مرتبًا، وخزانة الملابس مغلقة بإحكام، والنافذة مفتوحة ما سمح لنسيم الليل اللطيف بأن يسري داخل الغرفة، لكن ما لفت انتباهي حقًّا هو جزء من الجدار فوق المكتب الصغير، حيث كان مغطى بقطع من الورق يحركها الهواء، وقد حوت كل واحدة منها بعض الكلمات التي بدا أنها كُتبت على عجل. وغطت أكوام من الكتب والأوراق كل شبر من المكتب فيما يشبه الفوضى المنظمة.

بينما وضع على التسريحة بجوار مدخل الغرفة ثلاث قطع من النرد بدت كأنها مصنوعة من حجر القمر الشاحب. كان نوعًا من النرد المستخدم في لعبة «ثري ويدوز»؛ تلك اللعبة البغيضة التي تعتمد على الحظ، وكانت حاضرة دومًا في منزل ساريا في العديد من الأمسيات المتأخرة.

سمعت صريرًا هادئًا في الردهة، ما جعلني أستدير على الفور. وفوجئت عندما رأيت إزرا يقف خلفي مباشرة. كانت يداه مطويتين في جيبي سترته، وأزرار قميصه العلوية مفتوحة. أخذ يحدق إلى وجهي في الظلام. لقد أذهلتني رؤيته في تلك اللحظة؛ فلم أسمعه وهو يصعد الدرج مطلقًا.

ثم قال لي بنبرة حازمة: «اخرجي من غرفتي».

وقبل أن أتمكن من قول كلمة واحدة تجاوزني بمهارة كبيرة، وأغلق الباب في صمت من خلفي، واختفى وراءه. وبعد فترة وجيزة، أُضيء مصباح الزيت، ومر توهجه من تحت الباب، فلامس أطراف ثوبي.

لم أكن حمقاء على الإطلاق؛ فقد كنت أعرف، عندما وطئت قدماي رصيف ميناء مدينة باستيان، أن الانضمام إلى عائلة روث لن يكون بسيطًا بهذه الدرجة. كنت أعي أن العائلة بالنسبة إليَّ هي طوق النجاة الذي سينقذني إذا ارتكبت خطأً، أو إذا أصابني أي ضرر، لكن يبدو أن هناك خطًّا فاصلًا وواضحًا بين أولئك المنصهرين بالفعل في بوتقة هذه العائلة، وأولئك الذين يحاولون الانصهار فيها بالفعل؛ إذ يبدو أن انخراطي معهم حتى أُصبح جزءًا لا ينفصل عنهم سيتطلب ما هو أكثر من صلة الدم.

الرابع

امتلأت غرفتي بعبق رائحة البحر. وفتحت عينيَّ على أول صباح من الصباحات العديدة التي يبدو أنني سأقضيها في باستيان، استنشقت الهواء الرطب بعمق حتى ملأ رئتيَّ. وسمعت وقع أقدام صغيرة في الطابق العلوي، فعلى ما يبدو أن أطفال نويل قد استيقظوا وبدأوا يومهم. شعرت ببرودة قارسة، ما جعلني أنغمس بعمق بين طيات الغطاء الوثير، بينما كنت أراقب الطيور من خلال النافذة. وقد انتفخ ريشها لمقاومة برد الصباح الباكر، وامتزج لونها الفاتح بالضباب الكثيف ما جعلها تبدو غير مرئية تقريبًا.

لم أصدق أنني أتشارك جدار الغرفة نفسه مع إزرا، ومع أنني سمعته يعبث بأوراقه ويخطو بخطوات ثقيلة على الأرض في وقت متأخر من الليل، ساد الصمت التام غرفته الآن، ولم يعد ينبعث منها أي صوت. كان ضوء النهار يتصاعد فوق المدينة من بعيد، وما إن أشرقت الشمس وبدأت تلامس أشعتها أرضية غرفتي حتى أرغمت نفسي أخيرًا على النهوض من السرير.

كان خدم ساريا قد رتبوا أغراضهم بعناية في حقيبتي، بما في ذلك الفرشاة الفضية وأمشاط الشعر المرصعة بالجواهر التي أهدتني إياها. لم أكن مولعة قط بالترف والبهرجة مثلها، لكن في محاولتي العرضية لكسب استحسانها، كنت أتزيَّن بطريقة أعرف أنها تفضلها. بيد أن مثل هذا التظاهر بالرقي والفخامة بدا سخيفًا بين عائلة روث. ومع ذلك، لم يكن سرًّا أن هنريك وساريا كانت لديهما توقعات محددة مني، فقد كنت بمنزلة جوهرة ثمينة وسط العائلة، وكان هنريك ينوي استغلالها جيدًا.

اخترت ثوبًا بسيطًا ذا لون أرجواني داكن، له تنورة واسعة وكمَّان طويلان مزودان بأزرار عند المعصمين، وكان قماشه كثيفًا يبعث في جسدي الدفء على عكس أقمشة الثياب

الأخرى التي جعلتني ساريا أرتديها عادة، كما كان أقل جذبًا للانتباه في شوارع لوير فالي، فبعد أن عانيت أربعة عشر عامًا من إجباري على الظهور بأبهى حلة من أجل التفاخر بين علية القوم في نيمسمير أحببت فكرة الاندماج وسط الجموع دون أن يكون التركيز منصبًّا عليَّ بالتحديد.

ربما كانت الأحذية التي أحضرتها معي هي الشيء العملي الوحيد الذي حزمته في حقيبة أغراضي؛ فقد ساعدتني على المشي على الطرقات المرصوفة بالحصى غير المستوي، كما كانت تحافظ على جفاف قدميَّ. وانتعلت أحدها وعقدت رباط فردتيه بعناية مع الحرص المُؤكَّد على تماثلهما، ثم عقدت أطراف هذين الرباطين حول كاحلي. وعندما وقفت استدرت لأنظر في المرآة، ولدى رؤيتي انعكاس صورتي عليها، أدركت أنني أشبه بشكل صارخ هؤلاء الفتيات اللائي رأيتهن في الشارع أمس.

وبينما كنت أهبط الدرج، شممت رائحة الخبز الطازج التي كانت تعبئ الهواء. إذ مع أن غرفة الطعام كانت فارغة، كان المطبخ مشغولًا. وقد قادتني الأصوات التي ترامت إلى مسامعي إلى ممر ممتد قادني بدوره إلى باب مفتوح، حيث اكتشفت غرفة صغيرة مربعة الشكل تقع في زاوية المنزل. امتلأت تلك الغرفة بالهواء المنعش النقي بفضل النوافذ المفتوحة، التي كانت تزين جدرانها. وفي وسط الغرفة جلس هنريك وكازيمير ومورو وإزرا إلى طاولة مستديرة، وتعلقت أعينهم جميعًا بي في الوقت نفسه تقريبًا عندما ظهرت.

قال هنريك دون أي مقدمات: «نتناول وجبة الفطور في السابعة صباحًا».

اندفعت الحمرة إلى وجهي ومددت يدي إلى ياقة ثوبي، وأخذت أعبث بالدانتيل الذي كان يزينها، وقلت متلعثمة: «أنا آسفة، لم أكن أعرف».

ذابت النظرة الصارمة في عينيه فجأة، وحلت محلها ابتسامة لطيفة بالسرعة ذاتها تقريبًا، ثم قال: «حسنًا، بتِّ تعرفين ذلك الآن»، ثم أشار بيده التي أمسك بها قطعة من الخبز إلى المقعد الشاغر بجانبه، فأومأ مورو برأسه تجاهي مشجعًا إياي على التقدم.

في أي مجتمع راقٍ كان سيقف أحدهم ليسحب المقعد من أجلي، لكنهم لم يفعلوا ذلك، واستمروا في تناول الطعام. ومن ثم أدركت حينها أنني على الرغم من كوني عنصرًا مهمًّا بالنسبة إليهم، فإنهم لا يضعونني في مكانة عالية للغاية، بيد أنني أحببت هذه الفكرة بقدر ما أشعرتني بالتوتر. وخلصت إلى أنني لن أعامل برقة مبالغ فيها داخل هذا المنزل.

سألني هنريك وهو ما زال يمضغ الطعام: «هل لديك ساعة؟».

استغرقت بضع لحظات لأدرك أنه ما زال يتحدث إليَّ، فقلت له: «أنا... كلا».

توجَّه هنريك بالحديث إلى مورو قائلًا: «ستتولى أنت أمر حصولها على ساعة، اصطحبها إلى متجر الساعات لتختار لنفسها واحدة» فأومأ مورو برأسه إيجابًا.

ثم قال متوجهًا بنظره إليَّ: «نحن نقدِّر النظام والالتزام بالمواعيد يا برين. وهذا بالضبط ما يحافظ على استمرار نجاحات هذه العائلة».

قلت له: «حسنًا، لقد فهمت»، وبسطت منديل المائدة بعناية فوق فخذيَّ. وشعرت بأنني طفل يتعرض للتوبيخ، لكن الآخرين بدوا غير منزعجين من هذا الموقف.

على الجانب الآخر من الطاولة، لمحت كازيمير وقد ركز انتباهه على صفار بيضته مستخدمًا قطعة من الخبز لتناوله، بينما كان إزرا ينظر إليَّ خلسة من فوق فنجان الشاي الساخن الذي كان يمسكه بإحكام، في الحقيقة لم يكن يمسكه من المقبض، وإنما كان يلف أصابعه حول حافته، ويرفعه إلى فمه، ويرتشف رشفة واحدة.

نظرت إلى طبقي، ووضعت قطعة من الجبن فيه.

قال هنريك: «أريد أن تكتمل عملية تسلم الشحنات قبل الظهر يا كاز».

أجاب كازيمير: «سيحدث ذلك».

وأضاف هنريك: «أريد إحضار المزيد من الطوب البرونزي، الليلة».

فأومأ كازيمير برأسه بالإيجاب.

تساءلت في قرارة نفسي عما إذا كانوا يتحدثون عن ذاك الطوب البرونزي الذي ذكره إزرا أمس على العشاء. فقد بدا الأمر كأنهم يتناقشون بشأن حمولة السفن التي كانت في طريقها إلى الميناء. وكان إزرا قد ذكر العناصر التي تنقصهم، ويجب الحصول عليها من خلال هذه الحمولة.

كان هذا هو نوع العمل الذي قاموا به مرارًا وتكرارًا، ودرَّ عليهم الكثير من الأرباح، وهو أيضًا العمل نفسه الذي تسبب في مقتل والديَّ.

مسح كازيمير فمه بمنديل المائدة الخاص به قبل أن يضعه على الطاولة، ثم نهض من مقعده محاولًا أن يرتشف ما تبقى في فنجانه من شاي. بينما كانت المرأة التي رأيتها في المطبخ سابقًا تدلف إلى الغرفة وفي يديها وعاء ساخن من الشاي.

نظرت إلى كازيمير باستياء، وقالت له: «انتظر قليلًا، وتناول مزيدًا من الطعام، فأنت لم تأكل شيئًا!».

وضع فنجانه على الطبق الصغير مبتسمًا لها. وكانت تلك أول ابتسامة أراها على وجهه، حتى إنها جعلته يبدو أشبه بابنه مورو، ثم قال لها: «لقد أكلت بما يكفي ولديَّ عمل لأقوم به في الميناء».

وجهَّت إلى هنريك نظرة تنم عن اعتراضها على ما قاله كازيمير متوقعة منه أن يتفق معها لكنه تجاهلها، وانشغل بتقطيع البيضة الموجودة في طبقه.

فلمَّا يئست من إقناعه، قالت له بينما كان يهم بمغادرة الغرفة: «معدة مليئة بالشاي لن تعينك على العمل بجد يا كاز!».

وعندما لم يرد عليها، وضعت وعاء الشاي على الطاولة مع تنهيدة غاضبة.

قال هنريك دون أن ينظر إلى أي منا: «سيلفي، هذه برين، وهذه سيلفي يا برين».

وضعت المرأة كلتا يديها على فخذيها، وابتسمت قائلة: «مرحبًا بكِ في باستيان يا عزيزتي، لا تدعي هؤلاء الرجال الصارمين كي يخيفوكِ». ثم تحوَّلت بنظرها عمدًا نحو إزرا، الذي بدا منزعجًا بشكل واضح من التركيز المفاجئ عليه.

أجبتها وأنا أبتسم: «لا تقلقي».

وهنا سألها هنريك: «هل هناك أي رسائل؟».

هزت سيلفي رأسها بالنفي، وأجابت: «لا يوجد أي رسائل».

تشنجت عضلة فكه قبل أن يتناول قضمة أخرى من الطعام.

غادرت المرأة الغرفة، وأخذت أنقل نظراتي بين هنريك ومورو بينما كنت أتناول الطعام. ولم أرَ نويل وعائلته في أي مكان؛ لذلك خمنت أنهم يتناولون الفطور في وقت مختلف، فالعديد من الأسر الذين لديهم أطفال يفعلون ذلك.

امتنعت عن النظر إلى إزرا مع أنني شعرت بنظراته نحوي كل بضع دقائق. وكان ما قالته سيلفي بمزاح ساخر لا يخلو من الحقيقة. وأدركت أن هناك بعض الأمور التي ما زلت لم أفهمها داخل هذا المنزل؛ لذا آثرت عدم المخاطرة باتخاذ أي إجراء قد يسبب لي ضررًا.

قال هنريك وهو يمسح فمه بكفيه: «أريدك أن تذهب إلى المقهى الليلة يا إزرا».

قال إزرا متسائلًا وهو يضع فنجانه على الطبق: «هل تريدني أن أذهب حقًّا إلى المقهى؟».

أجابه هنريك: «نعم».

انحنى إزرا إلى الأمام واضعًا مرفقيه على الطاولة بينما وقطّب جبينه، ثم قال: «من المقرر أن أذهب لتوزيع بيانات الشحن، وتلقي الأموال مقابلها».

أسند هنريك ظهره إلى مقعده، وقال: «لا، لن تقوم بذلك. وإنما برين هي من ستتولى هذه المهمة».

تبادل مورو وإزرا النظرات عبر الطاولة، وتوقفت سكيني في الهواء قبل أن تصل إلى طبقي.

سأل إزرا هنريك بصوت حذر: «ماذا تقول؟».

لكن هنريك وجّه نظره نحوي قائلًا: «ليست هناك طريقة أفضل للتعلم من الممارسة العملية، ألا توافقين على ذلك؟».

اعترض إزرا وقال بنبرة حادة: «أنا المسئول عن القيام بذلك الأمر كل أسبوع»، لكن يبدو أن هنريك لم يلحظ نبرته الحادة هذه.

أخذت أحوِّل نظراتي بينهما، كان من الواضح أن إزرا لا يريدني هنا، وأظن أن هناك سببين وراء ذلك، فإما أنه لا يريدني أن أشارك في أعمال العائلة؛ لأنه لا يريد أي تدخل من جهتي في عمله الخاص، أو لأنه لا يثق بي، أو ربما هما معًا.

سألته: «ما عملية جمع الأموال مقابل بيانات الشحن هذه؟».

اقترب هنريك من الطاولة، ثم انحنى إلى الأمام قليلًا، وقال: «كانت تقوم بهذه المهمة من قبل صديقتنا هولاند، وتولينا نحن القيام بها بعد أن جرى استبعادها منها نتيجة بعض الظروف الطارئة. ففي كل أسبوع نوزع نسخًا من بيانات شحن السفن التي نحصل عليها من سجلات رئيس الميناء، ولا يوجد شخص واحد في باستيان لا يرغب في الحصول على نسخة».

هولاند. أعرف هذا الاسم جيدًا، لقد كانت أقوى تاجرة في منطقة البحر المجهول قبل أن تُجرد من خاتمها وتُطرد من مجتمع التجار بسبب تجارتها في الأحجار الكريمة المزيفة، وقد شقت أنباء الفضيحة طريقها إلى نيمسمير، وما زال الناس يتحدثون عن ذلك.

ثم أضاف هنريك: «كانت مسئولة عن توزيع بيان الشحن الذي يُدرج فيه البضائع الموجودة على متن السفينة، والآن أصبحنا نتولى نحن هذه المهمة».

كان هذا جانبًا واحدًا من العديد من الجوانب غير القانونية في أعمال العائلة، وفي كل مدينة ساحلية يؤدَّى عمل مماثل تمامًا. حيث يتواصل شخص منهم مع رئيس الميناء الذي يبيع لهم نسخًا من بيان الشحن الأسبوعي مقابل المال.

وبطريقة ما، كان هنريك محظوظًا بما يكفي لتولي القيام بهذه المهمة، خاصة بعد أن استبعدت هولاند، وربما كان هذا هو سبب معرفة إزرا بمخزون تلك السفينة التي سأله عنها هنريك أثناء تناول العشاء أمس.

قال هنريك: «كل ما ستفعلينه هو تسلم المال من الأشخاص، ثم تسلمين البيان لهم، هذا كل شيء». ثم أضاف وهو يلقي نظرة خاطفة على إزرا: «يمكنها التعامل مع الأمر».

شعرت بتبادل غير معلن للأفكار فيما بينهما، بينما ظل مورو الجالس بجواري صامتًا.

نظر هنريك إليَّ، وقال: «ما رأيك يا برين؟».

نظر إليَّ إزرا نظرة حادة ما أشعل الحرارة في جسدي، لقد تعاملت مع رجال على شاكلته من قبل؛ لذا أدركت أنه لن يتقبلني أبدًا إلا إذا التزمت بقواعدهم، ولم أكن لأستطيع فعل ما أنوي فعله ما دام يعترض طريقي. هنا أجبت هنريك: «يمكنني فعل ذلك».

ابتسم هنريك ابتسامة عريضة أظهرت ما حول عينيه من تجاعيد، ثم قال: «بالطبع يمكنك فعل ذلك».

أطلق إزرا تنهيدة عميقة، كان يبدو أنه يضبط نفسه، بينما توجَّه بنظره إلى أسفل. وكنت متأكدة من أنه على وشك أن يعترض. لكن عندما توقعت منه أن يتحدث، وقف ليهندم ملابسه.

خرج من الغرفة بعد لحظة ولم يقل هنريك ومورو شيئًا، وأنهيا وجبة الفطور في صمت. بمجرد أن فرغ كأس هنريك، وقف هو أيضًا ثم قال لي: «أرجو منك أن ترتدي شيئًا أكثر أناقة يا برين».

طرفت عيناي، وقلت في دهشة: «ماذا؟».

قال: «ستذهبين إلى صانع الساعات، والانطباعات الأولى مهمة كما تعرفين». هممت بالاعتراض على كلامه، لكنني أغلقت فمي سريعًا دون أن أنطق بكلمة واحدة.

قلت في قرارة نفسي: «عليك التحكم في أعصابك يا برين».

تردد توبيخ ساريا الدائم لي في رأسي بصوت مرتفع، لدرجة أنني شعرت بأنها كانت تقف معنا في الغرفة.

كززت على أسناني، ثم ألقيت نظرة خاطفة على ثوبي. ربما حالفني الحظ وهربت من مراقبة ساريا لي، لكن يبدو أن الخروج من تحت سيطرتها لن يمنحني رفاهية اختيار ملابسي بنفسي.

استرخى مورو في جلسته على مقعده بمجرد رحيل هنريك.

قلت وأنا ألقي نظرة غاضبة تجاه مقعد إزرا الشاغر: «يبدو أنه لا يطيق وجودي هنا».

ضحك مورو ضحكة قصيرة بينما عقد ذراعيه على صدره قائلًا: «لا تأخذي الأمر على محمل شخصي، إن إزرا لا يطيق أي شخص». وكان مورو مرنًا في التعامل معي، ما بعث

الطمأنينة في نفسي، لكنني تساءلت عما يكمن خلف هذه المرونة، فصحيح أنه كان ذكيًا سهل المعشر، لكنه كان أول من يتأثر بوجود خالي هنريك، ويتصرف بطريقة رسمية للغاية.

أضاف مورو: «من الأفضل لك أن تلتزمي بتنفيذ أوامر هنريك، فهو يحب أن تسير الأمور وفقًا لجدول زمني صارم، ولن يتقبل غير ذلك».

تمتمت: «لم أكن أعرف أن هناك موعدًا محددًا للفطور».

قال: «لو كنت مكانك، لكنت سأبدأ التدقيق في القواعد المحددة المطبقة هنا، التي ربما لم تكن مطبقة في حياتك من قبل»، ثم أضاف وهو يشير برأسه نحو حذائي: «لذا يجب عليك أولًا النظر إلى حذائك».

سألته في دهشة: «ما خطب حذائي؟».

أجاب: «إنه مغطى بالطين».

رفعت تنورتي قليلًا لإلقاء نظرة عليه، فرأيت شريطًا جافًا من الأوساخ على طول النعل نتيجة المشي في المدينة في اليوم السابق.

قال لي مورو: «اتركيه خارج غرفتك في الليل، وستجدينه نظيفًا ومصقولًا في الصباح».

أنزلت تنورتي مرة أخرى، وحاولت إخفاء قدميّ تحت الطاولة، وأنا أشعر ببعض الحرج، ثم سألت مورو: «هل هناك شيء آخر يجب أن أعرفه؟».

أجاب: «نعم، عليك أن تبدئي بالحديث».

قلت له متعجبة: «ماذا تعني بذلك؟».

أجاب: «تحدثي وقولي رأيك وإلا لن يحترموكِ، فكونك هادئة جدًّا سيجعلهم يتساءلون عما تفكرين فيه، وهذا ليس جيدًا». كان يتكلم بنبرة جادة للغاية في تلك اللحظة. بدا تحذيرًا حقيقيًّا وخطيرًا جعلني أشعر بالقلق كوني أصبحت تحت المراقبة أكثر مما ظننت بشكل كبير.

قلت له: «شكرًا لكِ»، وأعدت شوكتي إلى الطبق، وتركت الجبن؛ إذ لم أعد أرغب في تناول الطعام.

ألقى منديله على طبقه، ثم هب واقفًا وهو يطلق تنهيدة عميقة، وقال: «على الرحب والسعة، والآن علينا أن نذهب».

سألته: «إلى أين؟».

قال مبتسمًا وهو يغمز لي: «للحصول على ساعة جديدة».

قلت له: «حسنًا، انتظرني لأحضر المال».

ضحك مورو: «أنتِ من عائلة روث يا برين، نحن نملك أموالًا طائلة».

الخامس

ثمة مبادئ شائعة في عالم التجار تُطبَّق في كل مكان في العالم، وكانت هذه هي الخصائص المميزة لأسلوب حياتهم وممارساتهم.

وبينما كنت أتبع مورو أعلى التل باتجاه حي التجار، اختفت الشوارع القذرة في لوير فالي تدريجيًّا من خلفي. وكنت أستطيع أن أعرف بسهولة كيفية الوصول إلى وجهتنا دون دليل. وبمجرد وصولنا إلى المنطقة ذات المباني المطلية حديثًا، وألواح الأسطح الجديدة تمامًا، كان من الواضح أننا دخلنا المنطقة الأكثر فخامة في المدينة التي يسكنها الأشخاص الأكثر ثراء.

كان هذا عالمًا أعرفه جيدًا، وبينما كنا نسير بالقرب من نوافذ المتاجر المزخرفة، وما إن لمحت انعكاس صورتي فيها، شعرت بأنني أتلاءم مع المشهد تمامًا. وكان هدف ساريا هو تربيتي لأكون امرأة شابة راقية قادرة على أن تحوز إعجاب أعضاء النقابات، وتعمل وسيطًا بين عائلة روث والتجار، الذين كانت ثمة عداوة تاريخية دائمة بينهما. كما كانت تهدف أيضًا إلى تربيتي بطريقة تجلب الشرف لها ولعائلتها. لكنني الآن بعد أن قابلت أفراد العائلة، بدأت أشك في الأمر، وأتساءل عما إذا كانت جهودها في تربيتي كانت مجرد شكل من أشكال الخلاص لعائلتها وتجميل صورتها أمام الجميع؛ إذ خطر بذهني أنها ربما كانت تهدف إلى إعادة تشكيل صورتها والقضاء على تلك السمعة السيئة التي اشتهر بها أفرادها.

كان مورو يسير بخطى سريعة، ثم ينظر لأعلى كل بضع خطوات مدققًا النظر في النوافذ. كنت أعرف هذه العادة جيدًا، فقد كانت ساريا تفعل ذلك دائمًا، وكأنها تعتقد أن أحدًا سيخرج لها في أي لحظة لمهاجمتها. وقد اكتسبت هذه العادة أنا أيضًا دون وعي؛ فدائمًا ما أشعر بأن هناك من يراقبني.

لكن في تلك الحالة، لم يكن شعوري بالمراقبة نتاج مخيلتي فقط، فقد كان كل شخص نمر به في الشارع ينظر إلينا نظرات متفحصة، حتى إن بعضهم كان يعود ليلقي نظرة ثانية. وكنت قد غيرت ثوبي كما طلب هنريك، وأعدت تصفيف شعري بشكل مناسب، لكن ربما في هذا الجزء من المدينة لم يكن معتادًا رؤية وجوه غير مألوفة. كما لم يكن مورو غريبًا هنا، لكنني كنت متأكدة من وجود العديد من أعضاء النقابات في هذا المكان، وبالطبع لن يروق لهم وجود فرد من عائلة روث في حي التجار، فقد كان عملهم مع عائلتي أشبه بسر كبير، يجب أن يظل طي الكتمان.

مررنا بمتجر تلو آخر، وكانت نافذات العرض الزجاجية لكل منها تعرض سلعًا مختلفة بين الخبز الطازج، والأحذية المصنوعة يدويًّا، ومزيدًا من السلع الأخرى. كان حي التجار اسمًا على مسمى حقًّا، حيث كان يعيش ويعمل هناك أي شخص يرتدي خاتم التجار، ومن بين سكان هذا الحي كان الأفراد الأكثر شهرة هم قادة النقابات المختلفة الذين يشكلون أعضاء مجلس التجار. وكانوا يسيطرون على منطقة البحر المجهول كلها، حتى إن كبار التجار الذين تجرأوا على الإبحار في مياه البحر الغادرة كانوا يعتمدون عليهم للحصول على التصاريح اللازمة لتجارتهم. ولكن كانت هناك في باستيان طرق أخرى لاكتساب النفوذ دون امتلاك مقعد في مجلس التجار وكان نفوذ عائلة روث الكبير دليلًا على ذلك، وأدركت حينها أنني بحاجة إلى اكتشاف طريقي الخاص للحصول على تأثير ونفوذ مماثلين.

كان الاضطلاع بدور خاص بي في العائلة هو أفضل طريقة لتأمين مكانة خاصة لي بينهم. لقد تعلمت الكثير من ساريا من خلال مشاركتها في المخططات المعقَّدة التي نفذتها نيابة عن العائلة في نيمسمير؛ لذا إذا قمت بتحركات مدروسة جيدًا، يمكنني تطبيق نهج مماثل هنا في باستيان والمشاركة في تعزيز أعمال العائلة.

سألت مورو محاولة ألا أبدو فضولية: «ما دورك في أعمال العائلة؟».

واصل مورو المشي بخطى ثابتة، مركزًا نظره على الطريق أمامه. وأوضح: «أشرف على تعاملات هنريك مع طواقم السفن التي تسلك مساراتها البحرية المعتادة، أو مع الملاحين

الذين يتنافسون على منصب قائد الدفة، أو الحمالين المهتمين بزيادة دخلهم، والحصول على المزيد من المال. أي أدير له محادثاته مع أي من يرغب في التحدث إليه».

إذن، كانت مهنة مورو تدور حول تبادل المعلومات وتنظيم العلاقات، وكان سبب تفوقه في هذا الدور واضحًا؛ فقد كان مورو ودودًا وماهرًا في عمله بقدر ما كان وسيمًا.

لم يبدُ أي شيء من الأشياء التي سمعتهم يناقشونها على العشاء خارجًا عن المألوف. لقد كانوا جميعًا يؤدون أدوارًا مرسومة باعتبارها جزءًا من خطة مدروسة جيدًا ساعدتهم على الحفاظ على أعمالهم ثلاثة أجيال متتالية. لكنني أدركت أنني إذا أردت أن أترك انطباعًا قويًا لدى هنريك، فأنا بحاجة إلى التوصل إلى فكرة فريدة وممتازة خاصة بي.

سأل مورو مقطبًا حاجبيه: «هل بدأت التخطيط من الآن؟».

قلت وأنا أبتسم ابتسامة لطيفة: «ربما».

أجاب: «هذا جيد. لقد كانت إيدن هكذا أيضًا.. ذكية».

لقد فاجأني ذكره أمي، فلم أسمع أي شخص يتحدث عنها قبل الآن، فقلت له: «أخبرتني ساريا بأن «بيت الشاي» الصغير الذي كانت ستفتتحه إيدن يوجد هنا في حي التجار».

قال لي: «وما زال كائنًا هناك حتى الآن».

سألته في دهشة: «ماذا؟».

أجابني: «ما زال هناك مغلقًا منذ سنوات».

سألته: «لماذا؟».

هز مورو كتفيه قائلًا: «لا أعلم، لقد حاول والدي أكثر من مرة إقناع هنريك ببيعه، لكنه رفض، وتركه يتعفن هناك في نهاية زقاق فيج ألاي».

راقبت تعبيرات وجهه من كثب في محاولة لاكتشاف ما إذا كان يخفي شيئًا ما. لقد حكت لي ساريا عن بيت الشاي الصغير ذلك، لكنني افترضت أنه قد بيع ما دام لم يفتتح طيلة هذا الوقت؛ فلم يكن من عادة أفراد عائلة روث التمسك بأشياء لا تدِر عليهم الأموال.

قادني مورو إلى أعلى عبر درج عريض حتى وصلنا إلى باب خشبي ملون، ومزين ببعض الزخارف الجميلة، ولقد أذهلتني على الفور حالة واجهة المتجر الرائعة والمتفردة، حيث توجد لافتة معلقة بأناقة بسلسلة ذهبية، تخطف الضوء بلمعانها ونظافتها. وبالإضافة إلى نافذة خالية من أي لطخات تسمح برؤية واضحة للمعروضات. ورأيت من خلفها مجموعة من خزائن العرض الزجاجية، وأرضية رخامية بيضاء كأنها انعكاس لضوء القمر.

قال مورو بصوت خافت: «اختاري الأغلى ثمنًا».

تساءلت متعجبة: «ماذا؟».

لكنه لم يلتفت إليَّ، فكان قد فتح الباب بالفعل، وأفسح لي المجال للدخول. توقفت لحظة، بينما استقبلتني رائحة رائعة وسط موجة من الهواء الدافئ. أشار مورو بذقنه نحوي لكي أدخل، فكتمت ما كنت أود قوله، وأطعته. في كل مرة يتحدث فيها أحد، كان يقول ألغازًا وكلمات مبهمة. وقد سئمت من محاولة فهمهم، وكل ذلك في يوم واحد فقط.

في الداخل كانت الغرفة الصغيرة محاطة بجدران حجرية. ورُتبت خزائن العرض الزجاجية بها بشكل أنيق على طول ممر واحد ليتمكن العملاء من السير واستكشاف الساعات الرائعة. نظر إلينا من خلف أحد خزائن العرض هذه رجل قوي البنية، يبدو ذا مكانة رفيعة، لديه لحية رمادية كبيرة تمتد لتغطي فمه، وكان يرتدي نظارة ذات إطار ذهبي مثبتة على أنفه المستدير.

نهض عن مقعده، ووضع الأداة الصغيرة التي كانت في يده قبل أن يرتب سترته، وحيَّانا قائلًا: «مرحبًا بكما! كيف يمكنني مساعدتكما؟».

استنتجت من بدلته الأنيقة، وسلسلة الساعة المتلألئة التي تتدلى من جيبه، أنه ليس عاملًا، وإنما هو مالك هذا المتجر.

أخذ مورو يتفحص بنظرة سريعة علب العرض الزجاجية، كانت داخلها مجموعة من الساعات الذهبية والفضية كل واحدة منها موضوعة على وسادة مخملية صغيرة مع مجموعة مختلفة من السلاسل للاختيار من بينها. لاحظت العلامة التجارية المميزة لصانع الساعات على الساعة التي كان يعمل عليها. وكانت هذه الساعات متوافرة في نيمسمير، وكانت هي المفضلة بين مجتمع التجار في تلك المنطقة.

ضاقت عينا صانع الساعات وهو ينظر إلى مورو باهتمام، وسأله: «أشعر بأنني رأيتك من قبل، أليس كذلك؟».

قال مورو وهو يمد يده بقوة مبالغ فيها بعض الشيء: «أنا مورو روث»، وكان صوته أعلى من اللازم ولا يتناسب مع حجم المتجر الصغير الهادئ.

صافحه الرجل بحرارة، قائلًا: «آه، أنت ابن شقيق هنريك».

ثم أضاف: «أنا سايمون».

كان الاسم مألوفًا بالنسبة لي، لكنني لم أستطع تذكُّره إلى أن تذكرت هنريك وهو يردده في الليلة السابقة على العشاء، فقد كان هذا هو الرجل الذي أراد هنريك أن يحصل على خطاب منه، لكن أي خطاب كان يريد، لم تكن لديَّ أي فكرة، لكنني فهمت الآن سبب رغبته في أن أغيِّر ثوبي.

خلع سايمون قفازيه، ووضعهما على المنضدة، فكشف عن خاتم التجار في إصبعه الذي كان يتوسطه حجر عين النمر المصقول، ما دلَّ على عضويته في نقابة الأحجار الكريمة المرموقة في منطقة البحر المجهول. لقد كان خاتمًا يتمنى العديد من التجار ارتداءه.

عندما نظر إليَّ أخيرًا، ابتسم، وسألني: «ومن أنتِ إذن؟».

قدَّمت نفسي بإيماءة لطيفة: «أنا برين». بدا سايمون سعيدًا. لقد كنت أعرف كيفية ترك انطباع جيد لدى الآخرين تمامًا كما أكد هنريك، فإذا كان هذا اختبارًا من خالي، فأنا عازمة على اجتيازه بنجاح.

وجَّه سؤاله إلى مورو، بينما كانت عيناه مثبتتين عليَّ: «أهي صديقتك؟».

أجبت قبل أن يتمكن مورو من الرد في محاولة ناجحة لامتلاك زمام المحادثة: «لا بل إنه ابن خالي، أنا برين روث». ساد جو من الترقب والتساؤل فيما يتعلق بالاسم المذكور.

رفع سايمون حاجبيه متعجبًا، وكان ذلك بالضبط هو رد الفعل الذي كانت ستحبه ساريا. فإذا قضى أي شخص بضع دقائق مع عائلتي، سيدرك أنهم لا يمتلكون من الأخلاق الرفيعة والسلوك المتأنق ما يجعلهم يصنَّفون بأنهم من المجتمع الراقي، لكنهم مع ذلك أظهروا أيضًا أناقة معينة تميزهم عن باقي سكان لوير فالي. إنهم يمثلون مزيجًا فريدًا من الخصائص التي وضعتهم في مكانة وسطى مثيرة للاهتمام تتحدى التصنيف السهل. وبما أنني في باستيان الآن، سيكون من واجبي منح عائلة روث مقعدًا على الطاولة في مجلس التجار.

وقد بدأت مهمتي الآن مع صانع الساعات.

قال سايمون محاولًا استيضاح الأمر: «لم أكن أعرف أن هنريك لديه ابنة أخت».

قلت له: «أنا ابنة شقيقته إيدن، وقد عدت من فوري من نيمسمير».

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة تنم عن إدراكه الأمر: «آه، ساريا».

فسألته: «هل تعرف عمة والدتي؟».

ضحك قائلًا: «بالطبع. معظم الناس في هذه المدينة يعرفونها، حتى لو مر وقت طويل على هروبها».

نظرت إليه نظرات متشككة، فبعد وفاة ابنها في البحر، أقنعت ساريا شقيقها فيليكس بوضع خطة احتياطية لأعمال عائلة روث في نيمسمير لتكون بمنزلة تأمين لهم ضد الخسارة في الوقت الذي كان للعائلة فيه الكثير من الأعداء في باستيان. واتخذت بالفعل الترتيبات اللازمة لذلك فيما بعد، وتلقت دعمًا خاصًا من هنريك بعد وفاة والده؛ وفقًا لساريا، لم يكن هنريك يريدها أن تراقب تحركاته خلال عمله على إدارة شئون العائلة. ولم أصبح جزءًا من المعادلة حتى توفي والداي، عندما وجد هنريك نفسه مسئولًا عن تربية فتاة يتيمة تبلغ من العمر أربع سنوات.

قال سايمون: «سمعت أنها صنعت لنفسها مكانة جيدة هناك في نيمسمير».

قلت: «نعم، هذا صحيح»، لقد حظيت ساريا باحترام كبير ومكانة عظيمة بالفعل، ولم تكن لديها منافسة تذكر لأنها لم تكن تطمح قط للانضمام إلى النقابة، واكتفت بكونها خبيرة في إنشاء مشاريع تجارية ذات منفعة متبادلة.

قال سايمون وقد تغيرت لهجته ما لفت انتباهي: «كنت أعرف والدتك أيضًا»، لكن بمجرد أن التقت عيناي بعينيه، وضع سايمون يديه على العلبة المعروضة أمامه، وكان حريصًا على لمس الإطار البرونزي للساعة الموجودة داخلها، وإبقاء أصابعه بعيدة عن زجاجها.

ثم سألنا: «وما الذي تبحثان عنه اليوم بالضبط ؟».

أجبته: «يقول خالي إنني بحاجة إلى ساعة، وأنه لا توجد قطع أرقى في هذه المدينة من تلك المصنوعة في ورشتك».

ارتسمت ابتسامة على شفاه مورو الواقف بجانبي.

قال سايمون مؤكدًا: «نعم، إنه محق. لقد جئت إلى المكان الصحيح». وشرع في التحرك حول خزائن العرض، وتوقف أمام تلك التي تحتوي على ساعات فضية. تراجع مورو ليترك لي حرية الاختيار، لكنني شعرت بشدة تركيزه عليَّ، وقد أمرني باختيار الأغلى ثمنًا.

كانت القطع التي يشير إليَّ بها رائعة حقًّا، لكن الذهب أكثر قيمة من الفضة. كان اقتراح سايمون باقتناء ساعة فضية يعكس سلوكه المهذب أو المتعجرف، إذا افترض أن عائلة روث لا تملك المال الكافي لشراء ساعة ذهبية أكثر رقيًّا.

لم أتبعه، وبقيت في مكاني لتفحُّص الساعات الذهبية بعناية، فقد كان تركيزي منصبًّا على العثور على القطعة ذات القفل والسلسلة الأكثر جمالًا وفخامة. والحقيقة هي أنني لم أكن أعرف أي شيء عن الساعات كونها مرتبطة أكثر بالرجال، كما لم تقدِّم لي ساريا واحدة من قبل. لكنني كنت على دراية كبيرة بالأحجار الكريمة، ولاحظت وجود علبة بها ساعة مزينة بأكثر ظلال حجر الإسبنيل ندرة، وهو اللون الأرجواني الرقيق.

قلت له بلطف، وأنا أشير عبر زجاج خزانة العرض إلى الساعة في المنتصف: «أود أن أرى هذه من فضلك».

نظر إليَّ سايمون باستحسان، بينما أخرج مفتاحًا من جيبه، وفتح الصندوق الزجاجي، ثم أخرج الساعة التي أشرت إليها، ووضعها أمامي، قائلًا: «هذه ساعة جميلة حقًّا، فوجهها مصنوع من عرق اللؤلؤ المصقول المستخرج من الشعاب المرجانية. لقد اخترت شخصيًّا هذه العينة من مجموعة التاجر».

التقطت الساعة بعناية، وفتحت غطاءها بنقرة واحدة، فكشف عن عقارب رقيقة تدق باستمرار فوق القرص. كانت ذات جمال أخاذ، حتى إنني شعرت بأنها لا يمكن أن تكون مصنوعة بأيدٍ بشرية.

ثم قلت: «إنها جميلة حقًا»، وقلبتها حتى انعكس الضوء فوق سطحها اللامع، فأصبح أشبه بمياه البحر المتموجة، كانت أنماطها فريدة من نوعها، وألوانها نابضة بالحياة. فساعة مثل هذه لا يرتديها إلا شخص ذو مكانة رفيعة للغاية، ثم قلت بنبرة واثقة: «سآخذها».

خلع سايمون نظارته، وتساءل: «وماذا عن السلسلة؟».

ابتسمت وقلت له: «أريد منك أن تختار، فلا أحد أبرع في ذلك من الصانع».

أومأ برأسه استحسانًا، وسألني: «وهل تريدني أن أنقش عليها اسمك؟».

قلت له بينما أعدت الساعة إليه: «نعم من فضلك».

ارتدى الرجل النظارة مرة أخرى، ورفعها قليلًا إلى أعلى أنفه، ثم أخرج ورقة من المكتب من خلفه.

ثم سألني: «قلت لي إن اسمك برين، أليس كذلك؟».

أجبته: «نعم، هذا صحيح».

شاهدته يكتب الأحرف الأولى من اسمي، «ب.ر». كانت هناك أوقات تمنيت فيها أن أتخلص من لقب روث. لكنني على مر السنين، بدأت أصدق، أو ربما أتمنى أن يكون هذا اللقب هو درع الحماية بالنسبة لي، وكان بالفعل هو الشيء الوحيد الذي أنقذني من المصير المشئوم للفتيات في نيمسمير، فبينما كن يتزوجن لضمان مستقبل أفضل لعائلاتهن، كنت أنا في طريقي لأصنع مستقبلي بنفسي.

وعندما انتهى سايمون من نقش اسمي، لف شريطًا من الساتان الأسود حول الساعة، ثم وضعها في صندوق خشبي، وقال: «ثمنها ثلاثمائة وأربعون قطعة من النحاس. ادفع خمسين الآن، ويمكنك سداد الباقي لاحقًا إذا أردت ذلك».

أومأ مورو بالإيجاب، ثم أخرج حافظة نقوده، وأحصى خمسين قطعة نحاسية سريعًا، وأغلق الحافظة، ثم مررها إلى سايمون، وقال: «سأرسل إليك بقية المبلغ بعد ظهر اليوم».

التقطها سايمون دون أن يتحقق منها.

فسأله مورو وهو يبتسم: «ألن تعدها؟».

أجابه: «أنا أعرف أين أجدك إذا كان المال ناقصًا». كانت نظراته حادة وقاسية ما ذكَّرني بنظرات هنريك. ثم أضاف: «يمكنك إرسال باقي المبلغ في غضون يومين».

قلت له بينما كان مورو يحييه بقبعته، ويفتح الباب: «شكرًا لك». اندفع ضوء الشمس مرة أخرى إلى الغرفة متلألئًا على الصناديق الزجاجية، ومنعكسًا على نظارات سايمون.

نزلت الدرج، وانتظرت مورو في الشارع.

قال بينما يبتسم، وقد بدأ السير سريعًا دون أن ينتظرني: «أنتِ بارعة حقًّا».

فسألته: «ماذا تقصد؟».

التفت مورو وألقى نظرة تجاهي قائلًا: «تعرفين كيف تديرين اللعبة، وتجعلين الأمور تسير في صالحك».

السادس

كانت تعليمات هنريك واضحة ومباشرة، فقد طلب مني الذهاب إلى الميناء، وبالتحديد رصيف رقم أربعة عشر. وأن أسأل عن شخص يدعى آرثر، وأن أخبره بأنني موجودة هنا من أجل عملية التسليم والتسلم.

كانت هذه فرصة لمغادرة المنزل بقدر ما كانت وسيلة لإخبار إزرا بأنني سأقاتل من أجل إثبات نفسي، وترسيخ مكانتي بين عائلة روث. ولم يكن هدفي هو أن أنتزع منه دوره، لكنني في الوقت نفسه لم أكن لأسمح بأن يُطاح بي. فقد كنت أعرف كيف أحصل على مرادي، وكان هذا بالضبط ما سأفعله.

سرت في الشارع الممتد بمحاذاة الميناء، وأنا أتطلع إلى الأرقام الموجودة على المباني المزدحمة. كانت الأرصفة تصطف على جانبي المياه خلف منزل التاجر، ثم تمتد لأعلى لتصل إلى قمة التل الذي يمكنك رؤيته في الخلفية البعيدة. لم يكن هناك في نيمسمير سوى صفين منظمين من الأرصفة البحرية، أما هنا فقد كان يوجد الكثير منها حتى إنها لم يصطف بعضها بجانب بعض، وإنما تلتف كل منها حول الآخر على طول الشوارع الفوضوية وغير المنظمة التي بدا أن بعضها ينتهي إلى حائط سد أو يختفي الرصيف تمامًا.

كانت الممرات تعج بالأشخاص الذين ينتقلون عبر المحلات التجارية العديدة التي كانت على وشك إغلاق أبوابها، وكانوا يحملون مجموعة متنوعة من السلع، بدءًا من سلال التفاح حتى الصناديق المليئة بقطع بواقي الحديد غير المستخدمة. كانت المدينة تستعد للنوم والراحة حتى صباح اليوم التالي. ومع فجر اليوم الجديد يبدأ التجار إعادة عرباتهم مجددًا إلى السوق أو الأرصفة لاستئناف نشاطهم.

عندما وصلت إلى أكبر رصيف على طول الواجهة البحرية، توقفت أمام الأبواب المزدوجة المهيبة، التي كانت لا تزال تحمل شعار تاجرة الأحجار الكريمة هولاند، التي جُردت من خاتمها، لكن النوافذ كانت مظلمة، وتوقف العمل داخله، وبدا كأنه حاوية فارغة.

اصطفت الأرصفة الأخرى على طول الواجهة البحرية. وأخذت أتفحص بعناية اللافتات المعلقة عليها، والمرسومة يدويًا، وقد بهتت حروفها بفعل رياح البحر. شعرت بأنني قد ابتعدت كثيرًا عن وسط المدينة. وكانت الأرقام غير الواضحة على هذه اللافتات تنتظم تقريبًا بتسلسل عشوائي؛ حيث تقفز من ثلاثة إلى سبعة إلى تسعة، ثم إلى خمسة عشر. ومن المثير للاهتمام أنني لم أتمكن من العثور على أي رصيف يحمل رقم أربعة عشر.

أخذت أتمتم بيني وبين نفسي بأنني إن فشلت في الوصول إلى الرصيف الذي أخبرني به هنريك، فكيف إذن سيثق بي للقيام بأي مهمة أخرى، ولا أريد أن أعطي إزرا المزيد من الأسباب لاعتراضه على تكليفي بالمهمة التالية، فالطريقة الوحيدة التي ستمكّنني من ترسيخ مكانتي في هذه العائلة هي تنفيذي ما طُلب مني وعلى أكمل وجه أيضًا.

وقفت في منتصف الشارع، وبينما كنت أستدير، ظهرت امرأة من الزاوية تتأبط رغيف خبز طويلًا، وأخذت تحدق إلى ثوبي أثناء مرورها. لقد ارتديت مرة أخرى ذاك الثوب الأرجواني البسيط الذي كنت أرتديه في وقت سابق من ذلك الصباح، لكنه كان لا يزال أنيقًا بما لا يتناسب مع وجودي بعيدًا عن الميناء ما جعله لافتًا للانتباه.

تقدمت نحو تلك المرأة، وقلت لها: «معذرة». فجفلت وتراجعت سريعًا للخلف، وكادت تضربني بالخبز. فأضفت بسرعة: «آسفة، أنا أبحث عن الرصيف رقم أربعة عشر».

زمت فمها، ثم قالت وهي تشير نحو قمة التل التالي: «هناك في الأعلى»، فواصلت المشي.

نظرت إلى قطعة الورق الممزقة في يدي، وأنا أتنهد، فلا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، فإذا كان رصيفًا بالفعل فلا بد أن يكون بجوار الماء، لكن المبنى الموجود أعلى التل كان في

الاتجاه المعاكس، وكانت قمة مدخنته سوداء، كما سقطت بعض ألواح السقف، ولم تكن هناك أي نوافذ.

حاولت تجنب الاصطدام بمجموعة من الأشخاص كانوا يتجهون إلى أسفل التل نحو الشارع. وعندما مرت قافلة من العربات المحملة بالصوف المجزوز حديثًا، وكانت مسرعة، استدرت وحاولت تفاديها بالاستناد إلى أقرب مبنى. وقد سقطت عجلة إحدى العربات في حفرة ماء صغيرة على الطريق المرصوف بالحصى، فحاولت تجنب وصول رذاذ الطين إلى ثوبي، لكن بعضه طالني بالفعل، فأطلقت تنهيدة غاضبة، ثم نفضت ثوبي وأزلت الماء من حذائي.

واصلت السير، وأخذ الشارع يضيق شيئًا فشيئًا، حتى صار زقاقًا صغيرًا، وسرعان ما وجدت نفسي وحيدة، حتى الشمس كانت تستعد للغروب وتركي بمفردي. ولم تكن مصابيح الشوارع قد أُضيئت بعد. وعندما نزلت التل، لاحظت أن نوافذ العرض التابعة للمتاجر كانت متوهجة بضوء الشموع، ما يدل على أن أصحاب المحال كانوا على وشك إغلاقها.

تردد صدى يشبه نبضات القلب في المساحة الضيقة بين الجدران المبنية من الطوب، ما جعلني أتوقف. ومن ثم التفتُّ في اتجاه الماء، وشعرت بالشعور المألوف الذي كان ينتابني دائمًا، وهو أن أحدًا يراقبني، لكن الشارع كان خاليًا باستثناء امرأتين تشقان طريقهما إلى أسفل التل. انتظرت لحظة أخرى قبل أن أواصل السير مجددًا، وأبقيت خطواتي هادئة حتى أتمكن من التنصت بعناية أكبر. لم أتمكن من تحديد ما إذا كان السبب في شعوري هذا هو ضوء النهار الآخذ في التلاشي، أم النوافذ المظلمة فوقي، فانتابتني قشعريرة سرت في جسدي كله. أدركت فجأة أن الشوارع من حولي أصبحت فارغة تمامًا. وشعرت بخوف شديد؛ فقد كنت وحدي في مدينة لا أعرفها، يرخي الليل أستاره عليها رويدًا رويدًا، وفي غضون ساعة تقريبًا، سيحل ظلام دامس.

ابتلعت ريقي بصعوبة، وأخذت أسرع من خطواتي. فلم يعرض مورو أن يصطحبني، ولم تكن لديَّ الشجاعة لأطلب منه ذلك، خصوصًا أمام إزرا. كان آخر شيء أريده هو أن يعتقد أي فرد من عائلة روث أنني بحاجة إلى مساعدة لأقوم بما هو مطلوب مني.

تدلت اللافتة التي كنت أبحث عنها من أعلى يمين المخزن، بينما حُفر الرقمان واحد وأربعة بشكل غليظ على المعدن باستخدام ما بدا كأنه طرف خنجر. لم أكن لـ أستطيع رؤيتها من حيث كنت أقف في الشارع، لكنني بدأت أدرك أنه ربما كانت جميع المباني الممتدة فوق التل يُشار إليها باسم الأرصفة البحرية، بغض النظر عن بعد مكانها عن الماء تحتها.

وضعت الورقة في جيب ثوبي، وسرت على طول الطريق غير المستوي المرصوف بالحصى، ما قادني إلى باب على جانب المبنى. كان الباب مليئًا بالمسامير الحديدية، ولم يكن به مقبض ظاهر. عندما طرقت عليه، لسع الحديد البارد مفاصلي، فأمسكت بيدي في محاولة لتهدئة ما شعرت به من ألم. ثم نظرت مرة أخرى إلى الزقاق الضيق خلفي، لكن لم يكن هناك أحد، كنت لم أزل لديَّ شعور بأن هناك شخصًا يتتبعني.

عندما لم أجد إجابة طرقت الباب بقوة أكبر، ودون سابق إنذار انفتح الباب، وكان على وشك أن يصطدم بي. حدق إلى وجهي رجل نحيل يرتدي قبعة بالية من الصوف. وتحولت نظراته الغاضبة إلى فضول عندما رآني، وسألني: «ماذا تريدين؟».

نظرت إلى المستودع المظلم من خلفه، حيث كانت هناك صفوف من الطاولات الممتدة المضاءة بفوانيس، وخمنت من الرائحة النفاذة الصادرة من المستودع أنه ورشة للمعادن الثمينة، ربما البلاديوم، فأجبته: «أنا أبحث عن شخص يدعى آرثر».

ضحك الرجل ضحكة ساخرة، بينما انزلقت يده من على حافة الباب، وقال: «هل تريدين آرثر؟».

قلت بفارغ الصبر: «نعم». وألقيت نظرة خاطفة إلى نهاية الزقاق حيث بدأت مصابيح الشوارع تومض واحدًا تلو آخر.

حدق إليَّ مرة أخيرة، قبل أن يترك الباب ينغلق ويتركني واقفة في الشارع، سمعته ينادي: «آرثر!».

تردد صدى خلف الجدران، فأدخلت يديَّ الباردتين في جيبي ثوبي، وأنا أنتظر خروجه بفارغ الصبر. ربما تزود ورش العمل هذه التجار، مثل صانع الساعات، بالمعادن المكررة قبل صهرها لصناعة المجوهرات وغيرها من الأشياء، لكنني لم أكن هنا من أجل الفضة، أو الذهب، أو البلاديوم.

سحبت الظرف الصغير المطوي الذي أعطاه لي هنريك من جيبي وتفحصته، لم يكن يحمل أي نقش أو ختم من الخارج، بينما كان يحتوي من الداخل على قوائم السفن التي جاءت وذهبت من الميناء في الأسبوع السابق، بالإضافة إلى تفاصيل عن البضائع التي حملتها. وكانت هناك ثلاث فئات فقط من الأشخاص الذين يهتمون بالحصول على مثل هذه المعلومات: التجار الذين يرغبون في البقاء على علم بالأنشطة في الموانئ المختلفة، والتجار الذين أرادوا مراقبة منافسيهم، وأفراد مثل عائلة روث كانوا يميلون إلى الاستيلاء على ما ليس لهم. وكان آرثر على الأرجح واحدًا من العشرات في باستيان الذين يدفعون المال لعائلة روث مقابل الحصول على نسخ من بيانات الشحن هذه.

عندما فُتح الباب مرة أخرى، ظهر رجل ضخم البنية ذو شعر أسود مجعد، تجهم عندما رآني، واتكأ على إطار الباب بكتف واحدة، وسألني: «حسنًا، ماذا تريدين؟».

فبادلته السؤال: «هل أنت آرثر؟».

أخذ يتفحص بعينيه الشارع من خلفي، وكأنه يتوقع وجود شخص آخر، ثم أجاب: «نعم أنا آرثر».

رفعت الظرف المطوي في الهواء، وقلت: «أنا هنا من أجل عملية التسليم والتسلم».

قلت الكلمات التي قالها لي هنريك بالضبط، ولكن قبل أن أنتهي من كلامي، تحولت تعبيرات آرثر من الارتياب إلى الانزعاج والاضطراب الشديدين.

زمجر غاضبًا: «ماذا تقولين؟».

تحولت نظراتي إلى الطاولات في الداخل، وقلت في تردد: «أنا. أنا هنا لأسلمك ما أمرني هنريك روث بتسليمه لك وتسلم منك المقابل».

حدق إلى وجهي كأنه يقرر شيئًا ما، وقبل أن أتمكن من فهم تصرفاته، اندفع إلى الشارع فجأة وكاد يصطدم بي. وأخذ يتفحص بنظراته الزقاق من كلا الاتجاهين قبل أن يجذبني من معصمي ويسحبني إلى الأمام. انزلق الظرف من أصابعي، وهبط في بركة ماء عند قدمي.

حاولت الإفلات منه وأنا أصيح: «ماذا تفعل؟»، لكن يده ضغطت بقوة أكبر على معصمي حتى وصل الألم إلى مرفقي. وشد كم ثوبي بقوة كأنه يبحث عن شيء، ما نزع زرًا صغيرًا من اللؤلؤ كان مثبتًا عليه.

ثم سألني بنبرة غاضبة: «هل هذا نوع من المزاح؟»، ثم أفلت قبضته عني فجأة، فتعثرت مرتدة إلى الخلف، وكدت أسقط في الشارع. وأكمل حديثه: «هل هذه حيلة من حيل شرطة الميناء؟». ثم استدار نحو الباب، ولم ينتظر إجابة، وقال أخيرًا: «غادري من هنا فورًا».

أمسكت ذراعي التي تؤلمني، بينما لاحظت تلاشي الضوء في الشارع عندما بدأ يغلق الباب. لكنني لم أكن لأعود إلى خالي خالية الوفاض. ودون أن أفكر في الأمر كثيرًا، أمسكت سريعًا بحافة الباب بيد واحدة، وقلت له: «انتظر».

استدار فجأة نحوي، وتحركت يده بسرعة كبيرة في الهواء لدرجة أنني لم أستطع اتخاذ رد فعل، وصفعني بها على وجهي. انحرف رأسي إلى الجانب الآخر، واصطدمت بجدار من الطوب، وأطلقت صرخة عالية.

دفعني الألم الشديد في فمي إلى إغلاق عينيَّ، وملأ مذاق الدم فمي. حاولت أن ألتقط أنفاسي، ثم سمعت وقع خطوتين خلفي، أعقبهما صوت إغلاق باب المستودع الثقيل.

انهارت الدموع من عينيَّ، بينما كنت أرتفع بنظري إلى أعلى، وجدت نفسي وحدي في هذا الزقاق المظلم. تدفقت بضع قطرات الدم الدافئ من ذقني وتجمدتا. وقمعت رغبتي الملحة في الصراخ والبكاء. ارتعشت يداي بينما كنت أحاول تنظيف فمي مما به من دماء. وعندما نظرت إلى كم ثوبي لاحظت أن الكتان الأرجواني أصبح لونه أسود تقريبًا نتيجة بقع الدم. واختفى الزر الذي كان في كم معصمي بعد أن مزقه الرجل، وحل محله خدش أحمر لامع حيث خمشني ظفره.

في هذا المكان المعتم بدا ساعدي شاحبًا وأملس. اجتاحني في تلك اللحظة شعور عميق بالتوتر والاضطراب؛ فقد أدركت أنه كان يبحث عن الرمز الخاص بعائلة روث الذي ينقشه أفرادها على ساعدهم بوصفها علامة مميزة لهم.

السابع

لم أتعرض للضرب مطلقًا في حياتي من أي شخص، وقفت أمام مكتب هنريك في غرفة مكتبه الخاصة التي كانت فارغة، وعيناي مثبتتان على الصورة الموضوعة على الحائط. وخيِّل لي أن الأشقاء الأربعة من عائلة روث يحدقون إليَّ من داخل الإطار الذهبي بأفواههم المزمومة وذقونهم العالية، كانوا يعطون الناظر انطباعًا بأنهم جزء لا يتجزأ من هذه العائلة، ويماثلون بشكل طبيعي أفراد الأسرة الآخرين. تساءلت كم من الوقت استغرقوا ليبدوا كذلك، وما الذي كان عليهم أن يمروا به لتحقيق ذلك الأمر.

دخل مورو من الباب، وأعطاني قطعة قماش مطوية رطبة تفوح منها رائحة الخل اللاذع، كنت قد سمعته يتجادل مع سيلفي في المطبخ؛ إذ كانت تريد أن تعرف من الذي ينزف.

شعرت بألم شديد عندما ضغطت القماشة على شفتي المتورمة. وما زال بإمكاني الشعور بمذاق الدم في فمي على الرغم من جرعة الشعير التي أعطاني إياها مورو عندما دخلت من الباب. وبدا الأمر كأنه ينتظر وصولي أثناء جلوسه على الطاولة في غرفة الطعام ممسكًا بزجاجة شراب الشعير وكوب واحد.

كان بإمكاننا سماع وقع خطواته حتى قبل أن يفتح باب غرفة مكتبه، ظهر هنريك ولا يزال مئزره مربوطًا حول خصره، ولم يبد أنه تفاجأ على الإطلاق عندما نظر إليَّ.

قال بنبرة هادئة: «ها قد عدتِ يا برين». وكأن وجهي المصاب أمر اعتاد رؤيته دومًا، ولا يستحق لفت نظره. فك بتأنٍّ وتؤدة خيوط مئزره وخلعه من فوق رأسه، ثم علقه على الحائط، وسألني: «إذن. كيف سارت الأمور؟».

انزلقت القماشة من فمي، فأمسكتها بيدي، وأخذت أحدق إلى البقعة الوردية التي أحدثتها الدماء بها. ثم أخذت أبدل نظراتي بين هنريك ومورو وأنا مشدوهة. وكنت أتوقع بعض التوجيه من مورو بشأن ما يجب أن أقوله، لكنه ظل مركزًا انتباهه على النيران المشتعلة في الموقد.

انحنى هنريك إلى الأمام متكئًا بكلتا يديه على المكتب، وسألني بينما كان ينظر بعينيه المتفحصتين إلى عينيّ: «ما الذي حدث يا برين؟».

فأجبته: «لقد فعلت ما طلبته مني». آلمني الجرح في شفتي بشدة عندما تحدثت. ثم أضفت: «طلبت منه أن يتسلم الظرف ويسلمني الأموال».

حثني هنريك على مواصلة الحديث قائلًا: «وما الذي حدث بعد ذلك؟».

تابعت: «عندما ألححت عليه ليمنحني ما أريد»، ابتلعت ريقي قبل أن أكمل: «ضربني عندما رأى أنني لا أملك ذلك النقش على ساعدي كتلك التي تميز عائلة روث».

استقام هنريك وعقد ذراعيه على صدره، وبرزت شفته السفلى بينما قال: «فهمت».

قلت وأنا أضع القماشة على المكتب، وأعد نفسي لرؤية علامات الإحباط على وجهه: «لم أحصل على المال». وكان هذا بالضبط ما لم أرغب في حدوثه، فلم تكن هناك طريقة بالنسبة لي لترسيخ مكانتي في العائلة دون أن يثق بي هنريك، وقد أفسدت المهمة الأولى التي منحني إياها.

تجعدت جبهته بطريقة أكثر وضوحًا، وكأنه ارتبك أو كان في حيرة من أمره، ثم قال وهو يلو ح بيده للتقليل من أهمية ما حدث: «أوه، لا عليكِ، لا داعي للقلق بشأن ذلك».

حاولت قراءة ما يدور في رأسه؛ إذ لم يبدُ غاضبًا ولا متفاجئًا كذلك، بل يمكنني القول إنني لمحت بريقًا في عينيه كأنه وميض خافت فرِح. كان رأسي وفكي يؤلمانني. لكن ما جعلني

أشعر بالاضطراب أكثر من واقعة ذلك الرجل في الزقاق، أو ما يعصف بي من ألم، هو ذاك التعبير المرتسم على وجه خالي، فقد بدا كأنه مسرور.

نظرت إلى مورو مجددًا لكنه في هذه المرة، ألقى نظرة سريعة في اتجاهي دون أن يقول شيئًا. امتدت نظراته إلى ما هو أبعد مني ما دفعني إلى أن أستدير برأسي لرؤية ما كان ينظر إليه، فإذا بي أرى إزرا يقف صامتًا في إحدى زوايا غرفة المكتب. كان شبه مختبئ في الظل، بالإضافة إلى أن بدلته السوداء ذات اللون الأسود الفاحم جعلته يبدو كأنه جزء من الظلام.

ابتلعت ريقي بصعوبة وشعرت بقشعريرة مفاجئة تجتاح جسدي وتعجبت من وجوده فلم ألحظ حتى دخوله.

كانت أزرار سترته مغلقة بشكل جيد، ويقف واضعًا قدمًا على الأخرى بينما كان يراقبنا. ثم رنا بعينيه السوداوين سريعًا إلى هنريك بعد أن كان ينظر لي، لكنه لم يقل شيئًا.

قال هنريك أخيرًا مبديًا ملاحظته على الجروح الموجودة في وجهي: «هل تريدينني أن أجعل سيلفي تضمد لكِ جرحك؟».

طرفت عيناي، ثم عدت بنظري إليه، ولاحظت أنه ركز انتباهه على شفتي لحظة عابرة، لكنه بدا غير مهتم تمامًا على الرغم من عرضه.

قلت بسرعة كبيرة وصارمة: «كلا». كان هناك مخطط ما لم أفهمه، وكان ذلك واضحًا في نظرات الرجال الثلاثة فيما بينهم، لكنني لم أستطع معرفة الدور الذي كنت ألعبه في ذلك المخطط.

قال هنريك : «شكرًا لك يا برين. لقد ساعدتنا كثيرًا»، وقد بدت مشاعره هذه صادقة حقًّا.

حدقت إليه، في محاولة لتحليل كلماته الجوفاء بشكل دقيق لفهم المغزى من ورائها. وصحيح أنه لم تكن لديَّ توقعات عن رد فعل هنريك عندما دخلت إلى المنزل وثوبي ملطخ بالدماء، لكنني مع ذلك لم أكن أتوقع رد الفعل هذا بكل تأكيد.

كررت ما قاله لي في ذهول: «ساعدتكم؟ لقد وجَّه لي ذاك الرجل بضع لكمات». وشعرت حينها بمورو وهو يتململ على قدميه.

تردد صدى تحذير ساريا في رأسي مرة أخرى: «تحكَّمي في أعصابك يا برين».

أحكمت قبضتي يديَّ اللتين كانتا لا تزالان بجانبي بقوة كبيرة، وكبحت ما أوشكت التفوه به من سباب.

قال هنريك وقد بدا عليه التأثر: «إنه لأمر مؤسف حقًّا. كنت أتمنى لو لم تكن هناك حاجة إلى ذلك».

أدهشتني طريقة رده، ما جعلني أفكر مليًّا فيما قاله؛ فهو لم يقل أتمنى لو لم يحدث ذلك، بل قال أتمنى لو لم تكن هناك حاجة إلى ذلك.

تسارعت الأسئلة إلى رأسي، لكن نظرات هنريك الجامدة وهو يراقبني لم تكشف لي عن أي إجابات.

قال وهو يشير بإصبعه إلى الباب خلف مورو: «مورو، لديك عمل لتقوم به على ما أعتقد».

أجاب مورو بإيماءة صامتة، واستدار منصرفًا. تتبعت وقع خطواته في الردهة حتى فتح باب المنزل وخرج، ثم أغلقه خلفه. لقد كان الوقت متأخرًا؛ لذلك لم أكن أعرف إلى أين يمكن أن يذهب، فالأماكن الوحيدة المفتوحة في تلك الساعة هي تلك التي يتردد عليها أطقم السفن التجارية التي ترسو ليلًا.

حاول هنريك أن يبدو لطيفًا، فقال لي في تلك اللحظة: «من الأفضل أن تذهبي إلى النوم. فأنتِ بحاجة إلى الراحة». ولم تكن محاولاته لتصنع اللطف صادقة على الإطلاق. فقد كان كلامه يفتقر إلى أي مظهر من مظاهر القلق أو الحب الحقيقيين، كان مجرد أمر بالانصراف ليس أكثر.

ربما خيبت أمله، أو ربما اعتقد أنه قد ارتكب خطأ عندما طلب مني الذهاب إلى ذلك المكان في المقام الأول، وفي كلتا الحالتين، فشلت في تحقيق توقعاته، ولم أكن أرغب في معرفة ما يجب أن أفعله لتصحيح خطئي.

حدقت إليه لحظة قبل أن ألتقط قطعة القماش الملطخة بالدم من المكتب، ثم فتحت باب غرفة المكتب وأنا أشعر بنظرات إزرا الحارقة تتبعني، لكن صوت خالي جعلني أتوقف.

بددت كلمات هنريك الصمت، حيث ناداني: «برين!»، فاستدرت وأنا أكز على أسناني بقوة لأمنع فمي من التحدث.

نظر عندئذ إلى قدميَّ قائلًا: «من فضلك افعلي شيئًا حيال هذا الحذاء». كان وقع كل كلمة من كلماته عليَّ مؤلمًا للغاية أشبه بضربات المطرقة على رأسي.

لم أعد بحاجة إلى أن أتحكم في نفسي لئلا أكيل اللعنات له من شدة غضبي؛ إذ عجز لساني تمامًا عن الكلام في تلك اللحظة.

دائمًا ما أجدت التعامل مع الرجال، وأتقنت مهارات جذبهم وإقناعهم بما أريد، فقد فعلت ذلك من أجل ساريا سنوات طويلة، لكن هذا الرجل كان مختلفًا تمامًا، فقد كان معقدًا للغاية للدرجة التي تجعل من الصعب عليَّ فهمه.

أومأ لي برأسه كأنه يسمح لي بالذهاب، فخرجت بالفعل إلى الردهة ذات الإضاءة الخافتة، وأنا أجر قدميَّ حتى وصلت إلى الدرج، لكنني أبطأت السير في منتصف الطريق عندما سمعت صوته مرة أخرى وهو يواصل التحدث. تجمدت في مكاني ممسكة بسور الدرج،

وأبطأت أنفاسي، وحاولت الاستماع لما يقوله. لكن صوته كان مكتومًا وغير واضح نتيجة اهتزاز النوافذ في الطابق العلوي بفعل حركة الرياح.

اتخذت خطوة حذرة إلى الوراء، تليها أخرى، وهكذا حتى وصلت إلى قاعدة الدرج. كانت سيلفي لا تزال مشغولة في المطبخ، بينما تسلل ضوء خافت من مكتب هنريك إلى الردهة. استطعت أن أرى ظله يتموج فوق ألواح الأرضية البالية وغير المستوية.

كان هنريك يتحدث إلى إزرا، ويقول له: «...بحلول الصباح يُفترض أن تكون هذه الحيلة قد حققت المطلوب منها».

اتخذت خطوة أخرى إلى الخلف، وأنا أحدق إلى تلك الغرفة ذات الإضاءة الخافتة، وأحاول التنصت. وسمعت في تلك الأثناء صوت درج مكتب يُفتح ويُغلق، ثم صوت سدادة غليونه تُفتح قبل أن تُفرَّغ محتوياته.

ثم سأل إزرا بنبرة صارمة :»كيف تصرفت؟».

أجابه إزرا: «لقد تصرفت بشكل جيد».

سأله هنريك مرة أخرى متعجبًا: «هل تقول بشكل جيد؟».

أجابه إزرا: «نعم. لقد أبلت بالفعل بلاءً حسنًا. وما قالته هو ما حدث بالضبط».

كان كلماته أشبه بالسياط التي تنزل على جسدي، كان هنريك يُبلغه بما رآه، وكأنه كان معي هناك.

سرت بجسدي قشعريرة من شدة الخوف، وشعرت بقلبي ينبض بصوت عالٍ في صدري لدرجة أنه طغى على أي صوت آخر. إن ما شعرت به في الزقاق كان حقيقيًّا، لقد كان هناك شخص ما يراقبني. إنه إزرا.

واصل إزرا حديثه: «فحص آرثر ذراعها بحثًا عن النقش المميز لعائلة روث، وعندما لم يرها اعتقد أنها كانت تحاول الإيقاع به، وقال شيئًا ما عن شرطة الميناء، وعندما حاولت إقناعه بعكس ذلك، وجَّه إليها بعض اللكمات». شعرت عندئذ بالضيق الشديد، كأن جدران المكان توشك أن تطبق على أضلعي فتحطمها.

لقد كان هناك. كان إزرا هناك يشاهد ما يحدث. ولم يفعل شيئًا عندما رآني أتعرض للضرب. وما زاد من صدمتي هو أن هنريك كان يعلم ما سيحدث. وبدا الأمر كأنه مخطط.

أضاف هنريك: «أريدك أن تعمل على المجموعة ليلًا ونهارًا. فإنني أريد أن تنتهي من ذلك بحلول موعد المعرض».

همست في قرارة نفسي: المعرض.

بدأت ألملم أفكاري بشكل تدريجي. لقد كان المعرض هو الخطوة الأخيرة في عملية الحصول على خاتم التاجر، حيث يعرض المرشح أمام أعضاء النقابة بعض البضائع أو العناصر التي يقوم بتصنيعها. ولم يكن هناك سوى عدد معين من الخواتم في كل نقابة، ولا تتوافر للآخرين إلا بموت التاجر الذي يحوزها أو إدانته. وكانت فرصة نادرة تحكمها مجموعة صارمة من القواعد، فكان على الشخص الذي سيتنافس للحصول على الخاتم المتاح أن يجد راعيًا أولًا، أي تاجرًا يوصي بترشيحه. وبعد ذلك، يُقدِّم المرشحون «مجموعة أعمالهم» إلى النقابة التي يصوِّت أعضاؤها فيما بعد لتحديد من سيحصل على خاتم التاجر.

كان لدى هنريك خاتم التاجر الخاص بالتجارة في منطقة المضايق، لكنه أراد أيضًا الحصول على واحد خاص بمنطقة البحر المجهول. ولكن ما علاقة ذلك بمستودع المعادن على الجانب الآخر من الميناء؟ وما علاقته بي؟

قال هنريك بنبرة متغطرسة: «لقد قلت لك إنها ستبلي بلاء حسنًا، أليس كذلك؟».

ساد صمت قصير، ثم قال إزرا: «نعم، لقد قلت».

شعرت بمزيد من البرودة تسري في أوصالي، واغرورقت عيناي بالدموع، وتشوشت رؤيتي نتيجة ذلك. كان هنريك يعرف بالضبط ما كان يفعله عندما أرسلني إلى ذاك المكان، لقد أرسلني إلى آرثر لهذا الغرض تحديدًا. ولكن لماذا؟

شعرت باضطراب شديد في أمعائي، بينما كنت أصعد الدرج الخشبي بحذر شديد، مع حرصي على عدم إصدار أي صوت، وقد اجتاح البرد كامل جسدي. وبعد أن أغلقت الباب وأشعلت الشمعة، زحفت إلى سريري وأنا أشعر بقلبي ينبض بقوة.

كان والداي ينفذان عملية سرقة ستة صناديق من الأحجار الكريمة من أحد المرافئ في الليلة التي لقيا حتفهما فيها. وكانت تلك العملية مخططة بعناية، لكنها سارت بشكل خطأ كليًّا عندما حل بدلًا من الرجل الذي كان يتولى نوبة الحراسة في ذلك اليوم شخص آخر. وكان هنريك قد قدَّم إليه رشوة نظير مساعدة والديَّ في تلك العملية.

أرسل خالي والديَّ إلى حتفهما من أجل الأحجار الكريمة، وها هو يعرِّضني الليلة للخطر أيضًا. كنت على حافة الموت؛ فقد كان آرثر على وشك الفتك بي ظنًا منه أنني من شرطة الميناء، وربما كان من الممكن أن يظل إزرا واقفًا يراقبه لو ألقى بي في ظلمات البحر العميقة لتلتهمني الأسماك.

ازداد شعوري بالغثيان، لكنني قاومته بينما كنت أفك أربطة حذائي بأصابعي المتخدرة. سقط الحذاء على الأرض، وتلألأ ضوء الشموع فوق جلده الملطخ بالوحل، وانزلقت دمعة على خدي المتألم بينما كنت أميل لألتقطه. ثم فتحت الباب، ووضعت الحذاء في الردهة ذات الإضاءة الخافتة، وأغلقته وأنا أحدق إلى السطح الخشبي.

كثيرًا ما حاولت ساريا إخباري بطبيعة أفراد هذه العائلة، لكنني بدأت أفهم كلماتها الآن فقط. لقد كانوا يفرقون بين كونهم عائلة وما يخدم صالح أعمالهم التجارية. فقد كانت

عائلة روث كيانًا متعدد الأوجه، يصبو إلى تحقيق مصلحته بغض النظر عن أي شيء.

الثامن

بدا الحذاء جديدًا كليًّا. وقفت عند باب غرفتي وأنا أرتدي ثياب النوم أحدق إليه بينما وُضع على الأرضية الخشبية. فقد وُضعت فردتا الحذاء جنبًا إلى جنب بالترتيب، وقد حل مكان رباطيهما القديميين آخران جديدان، وتوهج جلدهما البني في ضوء الشمس.

دائمًا ما اعتبرت ولع ساريا بالمظاهر شكلًا من أشكال الغرور والمبالغة. لكنني بدأت أفهم السبب وراء ذلك الآن؛ لقد نشأت في هذه العائلة التي تولي اهتمامًا كبيرًا للدقة والنظام. واتبعت القواعد نفسها التي تتبعها عائلة روث. وقد بدأ اهتمامي بمعرفة عواقب تحدي تلك القواعد يقل شيئًا فشيئًا.

بجانب حذائي، كان فستاني مطويًّا بعناية على كرسي صغير. انحنيت لألتقطه، وأخذت أتفحص نسيجه البنفسجي الذي تكشف أمامي. لقد أزيلت بقع الدم منه، وحل بدلًا من الزر المفقود زر آخر مطابق له تقريبًا، وكان كل شيء كما ينبغي أن يكون، وكأن الليلة السابقة لم تحدث قط.

انفتح الباب المجاور لغرفتي فجأة، وامتلأت الردهة بضوء ساطع، فانتفضت وأنا أحكم قبضتيَّ على ردائي فزعًا. خرج إزرا من غرفته، وأغلق الباب بشدة خلفه دون أن يعيرني انتباهًا، وسار في طريقه نحو الدرج. كان سلوكه باردًا للغاية، ويبدو أنه ينعكس على أجواء أي مكان يدخله، إذ شعرت في تلك اللحظة ببرودة تسري في جسدي كله.

لم أتمكن من استيعاب مدى قسوة القلب التي يمكن أن تسمح للشخص بالوقوف دون حراك وهو يرى شخصًا آخر تُكال له اللكمات أمامه. أما ما أغضبني أكثر، فهو معرفتي أنه ربما يكون قد شاهدني وأنا أبكي في ذلك الزقاق، وأمسح الدم عن ذقني.

تجاهلت الفكرة والتقطت حذائي من رباطيه. وعندما أغلقت باب الغرفة، أطلقت أنفاسي التي كنت أحبسها. يبدو أن إزرا اعتقد أن مشكلته قد حُلت، وأنه نجح في إثبات وجهة نظره. فقد أعرب صراحة عن عدم رغبته في استدعاء ابنة الأخت المقيمة في نيمسمير منذ فترة طويلة إلى هنا، وأن دوره في أعمال العائلة كان يخصه وحده، وهو قادر على القيام به. وربما اتفق مع هنريك على خطة ما ضدي، تلك التي كانا يناقشان تفاصيلها أمس في غرفة المكتب. لكن إزرا وكذلك هنريك لا يعرفانني جيدًا؛ فصحيح أنني قضيت سنوات عديدة في ارتداء الأثواب الراقية مع تصفيف شعري بشكل جيد، لكنني كنت لا أزال من عائلة روث؛ لذا إذا كنت أنوي منع تكرار حادثة مشابهة لتلك التي وقعت أمس، فعليَّ أن أتصرف بطريقة مشابهة لطرق عائلتي التي تتسم بالسرية والدهاء.

ألقيت الثوب على السرير وتوجهت نحو المرآة لأتفقد الكدمات في وجهي، خاصة تلك الموجودة عند زاوية فمي. بدا وجهي في حال أسوأ كثيرًا هذا الصباح. وعلى الرغم من أنني قد أخبرت هنريك بأنني لا أريد مساعدة سيلفي، فإنه أرسلها إلى غرفتي، وقد بذلت قصارى جهدها لتنظيف الكدمات على ضوء الشموع. لقد أمرتني أيضًا بوضع كمادات على الجرح ساعة بعد أخرى، وقد حرصت على جلب ما يلزم لذلك إلى غرفتي على مدار الليل. ومن الواضح أنها رأت ما يكفي من الجروح والكدمات في هذا المنزل. ولم يكن لديَّ شك في أن مثل هذه الحوادث كانت شائعة هنا، وكلها تحدث تحت مظلة الانتماء للعائلة. ولم أستطع إلا أن أتساءل، إذا اهتم هنريك إلى ذلك الحد بشكل حذائي في الليلة السابقة، فماذا سيفعل إذن عندما يرى مظهري الحالي؟ بيد أنني استمتعت جزئيًّا بفكرة تحدي التوقعات والمعايير الخاصة بهم.

ارتديت ملابسي سريعًا، ودققت في مظهري أمام المرآة أكثر من مرة للتأكد من عدم وجود أي شيء في غير محله. ونزلت هذه المرة إلى غرفة الفطور المزدحمة في الموعد المحدد بالضبط.

كان كازيمير ومورو وإزرا واقفين بالفعل خلف مقاعدهم بجوار طاولة الطعام. وعندما دخلت إلى الغرفة، حدق كازيمير إلى خدي، ودقق في الكدمة البارزة عند فمي.

وعندئذ قال مورو مازحًا: «سيكون هذا مؤلمًا بضعة أيام». بدا أن تلك هي طريقته في التخفيف من حدة المواقف المزعجة.

لكنني لم أضحك، وقلت له: «نعم، هذا صحيح». لقد نطقت الكلمات بصوت أعلى مما كان ضروريًّا وأنا أحدق إلى إزرا. وانتظرت حتى نظر إليّ.

زم، فمه ما كشف عن حقيقة مشاعره، كان يعلم أنني عرفت شيئًا ما. وربما لم أعرف بعد من هم حلفائي في ذلك المنزل، لكنني بالتأكيد قد كشفت عدوًّا، وأردته أن يعرف ذلك.

نقر مورو بأصابعه على الجزء الخلفي من مقعده بنفاد صبر، بينما كانت سيلفي تضع صينية فضية من الجبن وإبريقين من الشاي على الطاولة. وكانت الساعة قد دقت السابعة بالضبط عندما أخرج مورو ساعته من جيبه للتحقق من الوقت. وفي اللحظة نفسها سمعت وقع قدمي هنريك تقتربان من الغرفة، ثم ظهر وهو يحمل ساعته في يده، وأغلقها، وهو يجلس على مقعده وتبعناه جميعًا.

نظر هنريك إلى كازيمير، بينما مد يده لتناول الشاي: «هل هناك أية رسائل؟».

أومأ كازيمير بالنفي قائلًا: «لم تصل أية رسائل بعد».

قال هنريك بصوت خفيض للغاية كأنه يحدث نفسه: «ستصل».

كنت قد بدأت أعرف جيدًا تلك الأوقات التي يكون هناك فيها بعض الخطط أو الإستراتيجيات الخفية قيد التنفيذ، ويبدو أن هذه المرة إحداها. وكان هنريك قد طرح السؤال نفسه أثناء العشاء قبل ليلتين، ومرة أخرى أثناء تناول الفطور أمس.

سأل كازيمير هنريك وهو يقطع قطعة من الخبز: «ما رأيك في موضوع سفينة سيربينت؟ يبدو أن كلًّا من فيوليت بليك وسايمون يتنافسان على الفوز بعقدها. وقد ينطوي الأمر على كثير من التحديات والصعوبات قبل أن ينتهي إلى حل».

كرر هنريك الاسم كأنه يفكر في شيء ما: «فيوليت بليك».

كان ذلك اللغز أسهل في فك شفرته، فحسب اعتقادي أن سايمون هو صانع الساعات، وسيربينت هي السفينة التي تحدثوا عنها أثناء عشاء العائلة. وربما يشير العقد على الأرجح إلى اتفاقية تجارية، وإذا كان سايمون يسعى للحصول عليه، فبالتأكيد فيوليت بليك هي منافسته، وهي تاجرة أحجار كريمة أخرى في النقابة.

وأضاف كازيمير: «لا أحد يريد أن يتدخل بين هذين الاثنين. فيوليت بليك تخوض مخاطرة كبيرة. كما أنه لا يوجد من يتحدى سايمون وينتهي به الأمر نهاية سعيدة».

أخذت قضمة بينما كنت أستمع إلى الحديث. سايمون الذي وصفه كازيمير لا يبدو مثل سايمون الذي قابلته. لكنني كنت أعرف ما يكفي عن النقابات لأدرك أن هناك الكثير من الأعمال القذرة التي يقوم بها كل تاجر سرًّا.

قال هنريك وهو يفكر: «لديَّ شعور بأن سايمون قد استهان بقوة فيوليت، فهي أفعى تلبس ثيابًا من الحرير الجميل والدانتيل. وفي كلتا الحالتين، سيخدمنا ذلك الصراع بينهما، فلم أكن لأخطط لذلك الأمر بشكل أفضل مما يحدث».

وضع إزرا مرفقيه على الطاولة وهو يرتشف الشاي من كوبه، ولم يكن قد تناول إلا قدرًا ضئيلًا من الطعام الموضوع في طبقه. وكان هادئًا كالمعتاد، ويرد على استفسارات هنريك بإجابات مختصرة وإن بدا ساخطًا، لكن ما كان مختلفًا في ذلك الصباح هو انجراف نظراته إليَّ أكثر من المعتاد.

راجع هنريك جدول أعمال اليوم، وهو يسجل بعض الملاحظات في دفتره بينما كان ينتقل بأسئلته من كازيمير إلى مورو ثم إلى إزرا. لم يتفوه أحد بكلمة واحدة عن مهمتي في الليلة السابقة، وكنت سعيدة بذلك، فقد كان وقوفي في غرفة المكتب ووجهي مليء بالكدمات، بينما غطت بقع الدم ثوبي، أمرًا مهينًا بما يكفي، وقد أوضح هنريك أن ما حدث كان أقل مخاوفه.

عندما انتهوا من طعامهم، وذهب كل منهم واحدًا تلو آخر ليبدأوا تنفيذ مهام اليوم، التفت هنريك نحوي أخيرًا وقال: «سترافقينني اليوم يا برين في مهمة ما».

طويت منديل المائدة الخاص بي، ورافقته إلى خارج غرفة الفطور، سعيدة بإعفائي من وجبتي؛ فقد آلم الشاي الساخن شفتي، وأيقظ المضغ الألم الكامن في فكي. كما أنني فقدت شهيتي على أي حال.

تبعته عبر قاعة المطبخ الممتدة نحو الباب الأسود للغرفة الموجودة في نهاية الردهة، لم أرَ هذه الغرفة مفتوحة من قبل. ثم أخرج مفتاحًا من جيب سترته ووضعه في القفل، وأداره بنقرة واحدة، فهبت من الداخل رائحة عطنة، وأخذت أتفحص تلك الغرفة المستطيلة الفسيحة. كانت هناك ثلاث طاولات مربعة موضوعة في صفوف مرتبة، وقد أُسس في أحد أركان الغرفة مسبك خاص لصهر المعادن وتشكيلها، بينما وُضع فرن في الركن الآخر. تسلل ضوء أزرق خافت عبر السقف الزجاجي المتسخ، مع وجود بقع من الطحالب والسخام على ألواح السقف المائلة، وقد فُتح عدد قليل منها لتسمح بخروج حرارة أجهزة صهر وتشكيل المعادن.

وفي نهاية الطاولة على اليمين كان إزرا يهم بارتداء مئزر، ممررًا إياه من فوق رأسه ليربطه حول خصره. إذن كان هذا هو المكان الذي يختفي فيه خلال النهار.

أخذ هنريك مئزرًا آخر من مشجب مثبت في الحائط، وارتداه بينما كنت أتفحص تفاصيل الغرفة. ومن الواضح أنها ورشة عمل. ولم يكن هناك سوى باب واحد يبدو أنه يؤدي إلى

الخارج، وكان الجدار بجانب المسبك مغطى بمجموعة متنوعة من المطارق بأشكال وأحجام مختلفة، وكلها معلقة من رؤوسها بمسامير صدئة. وكانت هذه المطارق من بين الأشياء القليلة الموجودة في الغرفة التي تصدر لمعانًا رائعًا حيث كانت رؤوسها الحديدية مصقولة ولامعة. بينما وُجد تحت هذه المطارق رف طويل يحمل مجموعة من الأدوات الأخرى بما في ذلك مجموعة من المعاول والمبارد والمناشير اليدوية.

بدأ هنريك في توضيح الأمر وهو يشق طريقه عبر الطاولات إلى الزاوية المقابلة من الغرفة قائلًا: «كل منا لديه دور يا برين». تبعته بينما كنت أتابع إزرا بطرف عيني، فقد أعطى ظهره لنا وهو يشعل الفحم في المسبك، ولم يصدر أية إشارة تدل على أنه قد رآنا.

سحب هنريك كرسيًّا صغيرًا ووضعه أمام ميزان، ثم أشار إليَّ بالجلوس قائلًا: «سيكون لك دور محدد تقومين به مثل أي شخص آخر هنا».

كانت الطاولة زاخرة بالأحجار الكريمة المختلفة من العقيق والياقوت وعين النمر والزمرد التي تلألأت في صوانٍ خشبية صغيرة. بينما كانت توجد في أحد طرفي الميزان كومة أخرى مما بدا أنه ياقوت خام.

التقطت أحد أحجار عين النمر، وأخذت أتفحصه، كان قد صُقل حتى أصبح سطحه أملس وناعمًا ما كشف عن الخيوط السوداء الموجودة داخله والمميزة له.

أضاف هنريك وهو يضع دفترًا صغيرًا بجانبي: «كل يوم بعد الفطور، ستتحققين من الأوزان وتسجلين المعلومات هنا». وفتح الكتاب على آخر صفحة سُجلت فيها المعلومات المطلوبة ليعطيني مثالًا، ثم أشار إلى مكان كتابة التاريخ وأسماء الأحجار وأوزانها.

سألته: «هل جميعها مزيفة؟».

أجابني: «ليس جميعهما. فنحن نستخدم الحقيقية لتقليدها بالضبط أثناء صناعة أحجار مزيفة مماثلة لها، ولاجتياز عمليات التفتيش أحيانًا. وأحيانًا ما يُدمج بعضها في

المجوهرات المصنوعة حسب الطلب، والبعض الآخر يُباع للتجار. وفي النهاية جميعها يجلب العملات النقدية».

سألته مجددًا: «وكيف تعرف الفرق بينها؟».

ابتسم هنريك ابتسامة متكلفة: «لا يمكن لأحد معرفة ذلك، وهذا هو بيت القصيد. فالأعين الوحيدة التي يمكنها اكتشاف الفرق هي أعين خبراء الأحجار الكريمة، ولحسن الحظ بالنسبة لنا أنه لم يتبقَّ سوى القليل منهم». التقط حجر عين النمر من بين أصابعي وأعاده إلى مكانه، ثم أضاف: «أعتقد أن ساريا قد علمتك كل ما تحتاجين إلى معرفته عن الأحجار الكريمة، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي بالإيجاب، فمنذ أن كنت صغيرة علمتني ساريا كل شيء عن أسماء الأحجار الكريمة وطرق تنظيفها وتقطيعها وتحديد الأنماط الفريدة لكل منها. وتساءلت في قرارة نفسي عما إذا كان ذلك أيضًا جزءًا من صفقتها مع هنريك.

قال لي: «هذا جيد».

جلس هنريك بجانبي، وشرح لي كل شيء خطوة خطوة وبقدر مذهل من الصبر؛ حيث طرحت عليه العديد من الأسئلة، وطلبت منه أن يعيد شرح بعض الأشياء مرة أخرى. وكان هناك لطف لم أعهده من قبل في سلوكه داخل جدران هذه الورشة. عمل بجد وبشكل دقيق ومدروس للغاية، وشرح لي كل جانب بعناية شديدة. وكان من الواضح أن هذا العمل مهم للغاية بالنسبة إليه، إذ لم يُظهر لي حتى نصف ذلك الاهتمام، وهو يرشدني إلى تلك المهمة التي طلب مني إنجازها في الليلة السابقة، وقد سمح هذا لي بفهم الكثير عن شخصيته بشكل أفضل مما تسنى لي معرفته عنه خلال تلك الأيام القليلة التي قضيتها في باستيان.

وقال هنريك عندئذ بينما كان يشير بإصبعه إلى الصفحة حيث سُجل وزن كل حجر كريم ثلاث مرات في أعمدة منفصلة: «لا بد أن نسجل وزنها ثلاث مرات. دائمًا ثلاثة. فإذا اختفى

حجر واحد، فسأعرف، وإذا كانت الأوزان غير دقيقة، فسأعرف ذلك أيضًا». وكان قد رفع حاجبيه في انتظار تأكيدي أنني قد استوعبت ما قاله.

وعندما أكدت له إدراكي مقصده قام بالنهوض، ثم ذهب إلى الجانب الآخر من الطاولة حيث كانت هناك صوانٍ مسطحة مليئة بقطع من الزجاج الذي جرى فرزه حسب اللون. واختلفت ألوان هذه القطع الزجاجية بين الأزرق الخافت والأخضر الباهت والعنبر الشاحب، وقد قُطعت إلى أجزاء مختلفة الأحجام والأشكال.

تحوَّل تركيزه إلى الزجاج وشاهدته وأنا أضع حجر عين النمر على الميزان. راقبته من كثب. وكان هنريك يجيد إحداث توازن بين مشاعر الدفء واللطف لديه ومشاعر البرود واللامبالاة، وكان يتحوَّل بينهما بسرعة كبيرة، حتى إنني لم أتمكن من التمييز بينهما إلا عندما يبدي استياءً شديدًا، فقد كان أشبه بسكين تبدو باردة بينما هي في الحقيقة حادة للغاية يمكنها قطع أي شيء، حتى العظام.

وضعت حجرًا آخر على صينية الميزان استعدادًا لبدء العمل، فلم أكن أريد أن أجد نفسي تحت نصل تلك السكين.

التاسع

عندما انتهيت من تسجيل الأوزان، كان هنريك قد أعد لي صينية أخرى تحتوي على العشرات من أحجار البيريل الأحمر المزيفة التي قُطعت إلى أحجام مختلفة، وبدت أكثر شبهًا بالأحجار الحقيقية فعلًا.

وبعد مراقبته بضع ساعات فقط، أدركت الخطوات الأساسية التي يقوم بها. حيث كان يختار بدقة قطع زجاج من بين مجموعته الواسعة، ويمزج الألوان معًا بمهارة لإعادة تشكيلها، حيث يضعها في المسبك ليعيد تسخينها، كانوا أشبه لدى خروجها للمرة الأولى بقطرات كبيرة سائلة ومتوهجة. ولكن بمجرد أن تبرد تدريجيًا، يبدأ تشكيلها بدقة متناهية باستخدام أدوات دقيقة ذات حواف حادة، فيصنع في النهاية قطعًا تشبه الأحجار الكريمة الحقيقية إلى حد كبير للغاية، وكأنها قد جاءت مباشرة من عند أكبر تجار الأحجار الكريمة.

كانت عملية رائعة حقًا، تضمنت مجموعة من الخطوات الدقيقة للغاية التي أسفرت عن نتائج محددة للغاية. إنها مهارة لا يمكن تعلمها بسرعة، وإنما تتطلب أعوامًا من الجهد والتفاني، وخمنت أن هنريك قد قضى طفولته في هذه الورشة خاصة بجانب جدي فيليكس ليتعلم هذه الحرفة بإتقان شديد هكذا.

أما ما أثار دهشتي بشدة، فهو كيفية تمكُّنه من ضبط الأوزان الصحيحة لكل حجر مقلد في كل مرة. وعلى الرغم من التشابه البصري للأحجار المقلدة، التي بدا أنها مصنوعة من مكونات الأحجار الحقيقية ذاتها، فإن أوزانها كانت مختلفة ومتنوعة. لقد لاحظت أن كل صينية سلمها لي كانت متوافقة تمامًا مع الوزن المتوقع للحجر المحدد الذي كان يقلده. لكن لسوء الحظ، ونظرًا إلى ضيق الوقت المتاح لي والتشتت الناتج عن تسجيل الأوزان، لم

أتمكن من فك التقنيات الدقيقة والأسرار الكامنة وراء قدرته الرائعة على تكرار الأوزان بهذه الدقة.

التقطت إحدى قطع البيريل الأحمر ورفعتها لأتفحصها أمام الضوء الآتي من المسبك. ولم يكن هناك فرق واضح بين الزجاج والحجر الحقيقي، وعلى الرغم من ذلك سيدفع بعض المساكين في سيروس كمية كبيرة من الأموال مقابل ذلك.

أعدته مرة أخرى إلى الصينية، بينما توجهت عيناي نحو هنريك الذي كان يأخذ جرة كبيرة من الرف، وحدقت إليها كي أعرف ما بها، كانت مليئة بمسحوق أسود. انتقلت نظراتي إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث كان إزرا يصقل رأس مطرقة مدببة بقطعة قماش نظيفة لكن نظراته كانت مثبتة عليّ.

ارتعدت أوصالي فجأة ما تسبب في تأرجح الميزان على الطاولة، فتحوَّل انتباهه بسرعة إلى هنريك الذي كان يأخذ المسحوق الأسود من الجرة. وفي تلك اللحظة القصيرة شعرت بأنه يومئ لي بإشارة بسيطة من رأسه.

نظرت إلى أسفل بشكل غريزي قبل أن ألقي نظرة إلى الوراء. كان هنريك يحمل مطرقة صغيرة ذات نصل حاد بأسنانه، وتغضن جبينه بقلق بينما كان يبحث عن شيء ما في صندوق الأدوات الذي كان على طاولة العمل أمامه. وعندما نظرت إلى إزرا كان قد أدار ظهره مرة أخرى.

لم أكن أعرف ما إذا كنت قد تخيلت ذلك، أما أن عينيّ قد خدعتاني في ظل تلك الإضاءة الخافتة للورشة. لكن بدا لي كأن إزرا يحذرني من شيء ما، لكن تحذيره هذا لم يكن يحمل بين طياته أي تهديد أو عداء.

سمعت طرقًا مفاجئًا ومزعجًا عند مدخل الورشة ما أفزعني، وجعلني أشعر ببعض القلق، فترك إزرا ما كان يفعله، وعلق مطرقته على الحائط، ثم شاهدته وهو يسير نحو الباب،

ويفتحه قليلًا بحذر حتى تعرَّف على الطارق.

نادى بصوت عالٍ، وقد فتح الباب على مصراعيه: «فلتأتِ يا هنريك».

وقف مورو أمام باب الغرفة ممسكًا بورقة مطوية في يديه، وكانت هناك ابتسامة ماكرة على شفتيه وهو يردد: «لقد وصل».

أدرت مقعدي قليلًا فرأيت الابتسامة العريضة الماكرة ذاتها مرتسمة على وجه هنريك، بينما وضع المطرقة على الطاولة، وأصدر صوتًا عاليًا، ثم قال: «حسنًا، اجمع الآخرين في غرفة المكتب».

قال مورو الذي بدا مبتهجًا للغاية: «لقد أرسلت بالفعل في طلب نويل».

ترك هنريك على الفور جرة المسحوق الأسود، وخلع مئزره سريعًا. وحذا إزرا حذوه، ثم غادر الورشة مسرعًا.

قال هنريك وهو يحدق إليَّ: «هيا بنا يا برين».

نهضت من مقعدي مندهشة مما يحدث، لكنني تبعته على أية حال. وفي هذه الأثناء سمعت أصواتًا آتية من غرفة المكتب، وقد أشعلت نار مدفئتها بالفعل. بدأ هنريك في تدخين غليونه على الفور لدى جلوسه إلى مكتبه أمام الظرف المطوي، وقد وُضِع بجواره طرد صغير ملفوف بورق بني يحمل اسم هنريك وعنوان المنزل على واجهته.

جلس كازيمير على أحد المقاعد، ووقف مورو خلفه بالضبط، بينما وقف إزرا عند الزاوية، وقد بدأت أعتقد أن هذا هو مكانه المفضل والمعتاد. لم أكن أعرف أين يجب أن أجلس، لكنني كنت متأكدة أن هنريك قد حدَّد لي مكانًا حتى إن لم يعلن عنه؛ إذ يبدو أن التوقعات غير المعلنة جزء أساسي من إستراتيجيات هذه العائلة.

عندما لم يوجهني أحد إلى مكان جلوسي المفترض، ذهبت للوقوف إلى جوار مورو، فقد كان هو المكان الوحيد في المنزل الذي بدا مريحًا بالنسبة إليَّ إلى حد ما. واستمر مورو في الابتسام كأن هناك سرًّا ممتعًا على وشك الانكشاف، لكن على الرغم من ذلك لم يتحدث أحد حتى الآن. ظل هنريك كذلك صامتًا، يدخن غليونه حتى عرفنا بوصول نويل إلى المنزل.

استغرق وصوله إلى غرفة المكتب لحظات معدودة فقط، وكان ترو في أعقابه، وتوقف عند باب الغرفة قبل أن يغلقه والده. ولم ينظر هنريك إلى الظرف حتى جلس نويل على المقعد الآخر. تنحنح قبل أن يلتقطه، وعادت إلى وجهه تلك الابتسامة الماكرة، بينما ينزع شمع الختم بفتاحة الأظرف الفضية.

وقف الجميع منتظرين في صمت، بينما كان يقرأ كلمات الخطاب، وعندما انتهى منه ناظرًا إلى أعلى، ومض بريق لامع في عينيه، وقال: «خمسة أ».

صفق كازيمير بيديه فرحًا ما جعلني أجفل. وعندما تفحصت وجوه جميع من كانوا في الغرفة، وجدت أنهم سعداء للغاية، بل أكثر من ذلك، ما عدا إزرا الذي ما زال واقفًا بوجه قاتم عند الزاوية. فكان الوحيد الذي لم يشاركهم الاحتفال.

سأل نويل بابتسامة غير مألوفة عنه: «لكن هل هذا الوقت كافٍ؟».

استهجن هنريك السؤال، ولوح بيديه قائلًا: «بالطبع هو كذلك».

همَّ نويل يعترض قائلًا: «لكن..»

هنا قاطعه هنريك: «لا تقلق! ستكون برين على أتم الاستعداد».

اندفعت متسائلة دون أدنى تفكير، بينما أحكمت قبضتي على الجزء الخلفي من مقعد كازيمير، وتجمد مورو إلى جانبي: «جاهزة لأي شيء؟».

ساد الصمت الغرفة بينما وضع هنريك الخطاب على مكتبه، ثم أعاد الغليون إلى فمه، ثم شبك يديه إحداهما بالأخرى أمامه، وقال «بالتأكيد لم تعتقدي أنك هنا للعمل على تسجيل الأوزان فقط، أليس كذلك؟» ثم ضحك ومستطردًا: «لا، لدينا خطط أكثر أهمية لك يا عزيزتي. لقد دُعينا رسميًّا إلى عشاء في منزل تاجر مهم للغاية، وفي غضون أيام سنحصل على رعايته للانضمام إلى النقابة».

بدأت أفهم خطتهم، لقد كنت على حق، فقد كان هنريك يسعى للحصول على خاتم التاجر الذي كان يخص هولاند.

التقط الطرد الصغير الملفوف وناوله لي وهو يقول: «لقد جاء هذا مع الدعوة».

تقدمت إلى الأمام، وتناولت الطرد، بينما أخذ الجميع يراقبونني باهتمام. ابتلعت ريقي، وأزلت غلاف الطرد بعناية، فتكشف عن صندوق صغير أمسكته بيد واحدة، وعندما فتحته تراقص الضوء على السطح الذهبي الأملس.

إنها الساعة، حفرت على وجهها الأحرف الأولى من اسمي «ب.ر».

قلت في قرارة نفسي: «صانع الساعات». كان هنريك إذن يسعى للحصول على رعاية سايمون لترشيحه للحصول على خاتم التاجر والانضمام إلى النقابة.

بدا استحسان هنريك في كلماته وهو يقول لي: «أحسنتِ! لقد قال مورو إنك نلتِ إعجابه بكلماتك الرقيقة المنمقة».

لم أكن أعرف إذا كان تعرُّقي سببه حرارة النار أم عيون الجميع المحدقة إليَّ، لكنني تجرأت وسألت هنريك: «ماذا تعني بأنني سأكون مستعدة؟».

انحنى هنريك إلى الأمام، وأضاف موضحًا: «لقد ورث معظم أعضاء النقابة خواتمهم من أفراد أسرهم، أو من خلال علاقاتهم القوية، لكن سايمون كان هو العضو الوحيد في النقابة

الذي ارتقى في الرتب من أسفل القاع حتى القمة».

ولهذا السبب اعتقد هنريك أنه يستطيع الفوز برعاية سايمون؛ إذ كان يرى أنهما متشابهان في ذلك الأمر إلى حد كبير.

أضاف هنريك: «لكنه لن يقبل أن يكون راعيًا وداعمًا لنا في النقابة، إذا ظن أننا سنخدعه، وسيكون هذا العشاء هو بداية كل شيء كنا نعمل من أجله. فإذا ما منحنا سايمون رعايته ودعمه، فسنحصل على ذلك الخاتم، وبمجرد حصولنا على ترخيص للتجارة في باستيان، سيتغير مستقبلنا إلى الأفضل بكل تأكيد» ولوهلة سريعة رأيته يركز عينيه على صورة عائلة روث المعلقة على الحائط، لكن نظرًا إلى قيامه بذلك سريعًا جدًّا لم أكن متأكدة مما إذا كنت محقة في ملاحظتي أم لا. فقد بدا مضطربًا ومنزعجًا للغاية.

ثم قال متوجهًا إليّ بالحديث: «نحن نعتمد عليك يا برين».

سألته في دهشة: «في أي شيء بالتحديد؟».

وضع الخطاب أمامه بحذر شديد، وقال: «لا يسعني إلا أن أعترف بأننا نفتقر إلى السلوكيات اللازمة للتعامل وسط هذه الدوائر الاجتماعية الراقية، أما أنتِ، فبصفتك شابة راقية ذات أخلاق رفيعة، فستكونين قادرة على إظهارنا بشكل أفضل يتناسب مع ذلك الحدث المنتظر الذي يحتاج إلى إظهار الرقي وحسن التصرف».

تلعثمت: «أنا...»، لم أكن أعرف ما يجب أن أقوله، لكنني قلت له أخيرًا: «أنا، لا أعتقد أنني أفهم مقصدك».

أوضح: «أريد منكِ أن تعدينا جيدًا لذلك العشاء، إذ ينبغي ألا نغفل أي تفاصيل، ولن ندخر أي نفقات في سبيل الظهور بأبهى صورة ممكنة. إن لدينا أمسية واحدة فقط لإقناع سايمون بمنحنا رعايته، ولا يمكننا أن نتحمل تبديدها. سوف نحتاج أنا وأنت، وكذلك إزرا، إلى شراء ملابس أنيقة مناسبة لهذا العشاء».

نظرت إلى صائغ الفضة الذي كان لا يزال يقف صامتًا في الزاوية، ولم يبدُ متفاجئًا من مخطط هنريك على الإطلاق، لكنني كنت كذلك بالتأكيد، وأخذت أتساءل عن سبب اصطحاب هنريك إزرا معه في حفل عشاء مع أحد أعضاء النقابة، ولم أتمكن من الوصول إلى أي إجابة.

أردف هنريك قائلًا: «أريد منك أيضًا أن يكون كل فرد في هذه العائلة على أتم الاستعداد لهذا المعرض، فهل يمكنك فعل ذلك؟».

التقت عيناي بعينيه في هذه الأثناء، وتفحصتهما من كثب، لقد كشفتا عن احتياجه الشديد لمساعدتي حقًّا، وكان ذلك موقفًا مفيدًا لي، فبعد ما حدث في المرفأ كنت بحاجة إلى أن أشعر بذلك». أجبته: «نعم بكل تأكيد».

أطلق تنهيدة عميقة قائلًا: «هذا جيد. إنه يستحق فعلًا إراقة بعض الدماء على ثوبك، أليس كذلك؟».

تجمد الدم في عروقي. وبدأت الحقيقة المروعة لما حدث تتكشف أمامي تدريجيًا، بيد أنها كانت لا تزال ناقصة بعض الشيء. لقد كان من الواضح أن اصطحابي إلى صانع الساعات برفقة مورو لا يتعلق فقط بالحصول على ساعة، وإنما استخدموني طُعمًا لاصطياد سايمون، لكن ما علاقة ذلك بالدم على ثوبي؟ مددت يدي لا إراديًا لألمس الجرح الموجود على شفتي. ولم يكن إرسالي إلى آرثر يتعلق بإتمامي مهمة توزيع بيان الشحن إذن، بل كانت له علاقة بالدعوة التي في يد هنريك.

وكأنه قرأ أفكاري؛ فقد هب هنريك واقفًا، وقال مبتهجًا: «لقد كنت أعمل على تأمين هذه الرعاية منذ شهور، لكن بدا أن سايمون يفكر في تقديم رعايته لآرثر، وكنت أعلم أنه بمجرد انتشار قصة ضربه امرأة شابة جميلة ومميزة وراقية مثلك، وقد حدث ذلك بالفعل في الليلة الماضية، سيضطر سايمون إلى قطع علاقته به. فعلى الرغم من خلفيته المتواضعة ونشأته في بيئة فقيرة، لا يرغب سايمون بكل تأكيد في أن يرتبط اسمه باسم شخص

تحيط به الشائعات»، وأردف موجهًا انتباهه إلى الآخرين: «لقد حان وقت متابعة العمل، أنتم جميعًا تعرفون ما يجب القيام به ولدينا خمسة أيام لتنفيذه».

أجاب كازيمير ونويل وإزرا ومورو بإيماءات وهمهمات. وشعرت في تلك الأثناء باضطراب شديد في معدتي. وشعور عام بالغثيان. لقد استغلني خالي.

كنت أعلم عندما أتيت إلى باستيان أن هنريك يحمل لي بعض المخططات كما أسماها، ويرغب في أن أشارك في تنفيذها، وقد أوضحت لي ساريا ذلك قبل أن أسافر. لكنني لم أعتقد أنه سيرسلني عن طيب خاطر إلى ذلك المرفأ وهو يعلم أنني سأتعرض للضرب، وقد فعل ذلك من أجل مكاسبه الخاصة.

توجه ناظراي في تلك اللحظة إلى الصورة المعلقة على الحائط، حيث بدت أمي في الصورة كأنها تراقبني. كان تقلُّب مشاعر خالي هنريك بين الغضب والمودة يشبه إلى حد كبير الرياح المتغيرة التي لا يمكن التنبؤ بها. وقد أدركت ذلك بشكل واضح ومباشر في غضون أيام قليلة فقط. وعرفت أن هناك أفعالًا أكثر سوءًا في هذه العائلة من تلك التي شهدتها، فكانت تلك هي مجرد البداية.

العاشر

كان الأمر بالتأكيد سيحتاج إلى ما هو أكثر من ارتداء الملابس الفاخرة لإثارة إعجاب صانع الساعات، لكن زيارة مصمم الأزياء كانت هي الخطوة الأولى، فمهما بلغت براعة أية خياطة ماهرة، فلن يكون ذلك كافيًا إلا لحياكة الفساتين والسترات العادية، لكن ساريا قد علَّمتني أنني إذا كنت أريد حياكة ملابس فاخرة تليق بأمثال أعضاء النقابة، فلن يقوم بهذه المهمة سوى مصمم أزياء بارع.

كانت جميع سيدات نيمسمير تقريبًا يُعجبن بشدة بجميع ملابس ساريا؛ إذ كانت مصممة بشكل أنيق ودقيق للغاية، كما كانت مزينة بأفضل الخرز وأغلاه. وبينما كانت السيدات الأخريات يتجهن إلى الخياطات، كانت ساريا تقصد مصممي الأزياء والحرفيين المهرة الذين صنعوا لها أرقى الثياب والأحذية.

لم يكن هناك سوى مصمم أزياء واحد من هؤلاء في حي التجار، وقد أرسلت إليه رسالة لحجز المتجر كله طوال فترة ما بعد الظهيرة؛ إذ سأحتاج إلى أن يتفرغ لي تمامًا لقيامي بإعداد ملابس لجميع أفراد الأسرة. كما كنت بحاجة إلى أن أكون أول من يختار من الأقمشة التي وصلت على متن السفن في ذلك الصباح. وأدركت أنني إن أبديت بعض اللطف تجاهه، فربما يمنحني أفضل ما لديه من كماليات للملابس، مثل الأزرار المصنوعة من قرون الحيوانات، أو العقيق المصقول، والخيوط الذهبية اللامعة.

سرت بوتيرة سريعة للغاية على طول الشارع المتعرج في حي التجار، وأحدث حذائي المصقول حديثًا نقرات سريعة أثناء ذلك. وقد ارتديت أحد أرقى فساتيني، وصففت شعري، وثبتُّه بمشابك شعر مرصعة بأحجار الزمرد، فقد كان عليَّ أن أهتم جيدًا بمظهري الخاص، إذا أردت أن أجعل مصمم الأزياء يأخذ مطلبي على محمل الجد.

بدا الأشخاص في هذا الجزء من المدينة، وأغلبهم من التجار، غاية في الرقي حيث يرتدون الملابس الأنيقة، وتبدو عليهم علامات الترف، فلم تكن لهم تلك الوجوه الخشنة التي أحرقتها أشعة الشمس، بل كانت وجوههم ناعمة تبدو عليها علامات الراحة؛ فغالبًا ما كان يقضي هؤلاء التجار معظم الوقت في مقاهي الواجهة البحرية، ونادرًا ما يبتعدون عنها.

اشتعل الحماس والإثارة في نفوس أفراد العائلة منذ أن وصلهم خطاب سايمون، حيث بدأ إزرا على الفور في العمل على صناعة الأحجار الكريمة التي سيقدمونها إلى النقابة في المعرض، فلن تكون هناك أي أحجار مزيفة على الإطلاق. بل سيُقَدِّم أفضل إبداعات صانع المجوهرات البارع التي ستنجح في إقناع النقابة بجدارة هنريك بالحصول على خاتم التاجر. لقد كان خالي قد وضع قدرًا هائلًا من الثقة في إزرا، وكان ذلك محيرًا بالنسبة إليَّ؛ فكيف يكون مصير العائلة بيد شخص لا تربطه بها صلة دم.

إذا حصل هنريك على خاتم التاجر، فسيتغير كل شيء، ومع ما يكفي من الوقت والمال والمكانة المرتفعة سوف تتلاشى سمعة عائلة روث المرتبطة بالأعمال المشبوهة، كما ستتاح لهنريك فرصة العمل بصفته تاجرًا خارج حدود منطقة سيروس، وتكوين مخزونه الخاص. وقد كان ذلك حلمًا بعيد المنال بالنسبة إلى جدي الأكبر سوير، وجدي فيليكس. ومع تغير الأوضاع في منطقة البحر المجهول، إلى جانب سقوط هولاند، وتزايد أهمية منطقة ناروز، لاحت لهنريك فرصة جديدة لزيادة نفوذه. فإذا حصل هنريك على مراده، فسيترقى إلى أعلى الرتب في باستيان بحلول الشتاء المقبل.

كانت العملات النحاسية الموضوعة في جيب ثوبي تصدر صوتًا عاليًا بينما كنت أسير، والتفت أصابعي حول الإطار الخارجي لساعتي، وحين رأيت الأحرف الأولى من اسمي محفورة على السطح الذهبي شعرت بأنها حافز يحثني على القيام بما كنت على وشك القيام به الآن. ففي الأيام التالية، ستقع على عاتقي إعادة تشكيل مظهر عائلة روث وسلوكها لتبدو أكثر رقيًا وقدرة على الاندماج في الطبقات الاجتماعية العالية.

كان الأثرياء مهتمين بتكوين العلاقات بقدر اهتمامهم بتكوين الثروات، كون كلا الأمرين مرتبطين معًا بشكل جوهري. وفيما قبل كان أفراد عائلة روث يعتمدون على أسلوبهم العنيف بل الوحشي للحصول على ما يريدون، لكن التعامل بشكل همجي وتقديم الرشاوى لن يساعدهم على الانضمام إلى هذا المجتمع الراقي والاندماج فيه.

ظهر أمامي من بعيد مبنى شاهق، وقد برزت واجهته البيضاء وسط المباني المحيطة. كما وُضِع على جانبي بابيه مصباحان كبيران مضاءان على الرغم من سطوع ضوء النهار، وكانت ألسنة اللهب الصادرة منهما تتراقص على حفيف نسمات الهواء العليل.

توقفت ثم نظرت إلى ختم باستيان المنحوت في الجدار الحجري في الخارج. كان مبنى اللجنة بمنزلة مكان لإقامة اجتماعات النقابة حين انعقاد الجلسات. وفي غضون أسابيع قليلة، سيقام فيه المعرض، حيث سيدلي أعضاء النقابة بأصواتهم لمن يرون أنه أحق بالفوز بخاتم التاجر.

سأبذل قصارى جهدي لكي تلفت عائلة روث انتباه الحاضرين جميعًا لدى عبورهم تلك الأبواب، لقد عقدت العزم على ذلك، وستكون مكافأتي هي الحصول على ثقة هنريك. فكلما حصلت على مزيد من ثقته، اقتربت أكثر من اكتساب مكانتي الخاصة داخل العائلة ما يضمن لي النفوذ والأمان.

سحبت الورقة المطوية من جيبي، وألقيت نظرة خاطفة على الخريطة البدائية لحي التجار التي رسمها لي مورو. وسأحتاج إلى حفظ هذه الشوارع والمتاجر بالإضافة إلى أسماء مالكيها في الأسابيع المقبلة. إن كل التفاصيل مهمة، ولا يمكنني التنبؤ بوقت احتياجي إليها. وكان كل ذلك جزءًا من المهمة التي كلفني بها هنريك. وعلى الرغم من أن هناك بعض الحقائق الأساسية المشتركة في منطقة البحر المجهول، كانت النقابات في باستيان تحتفظ بأسرارها الخاصة.

توقفت عندما وقع نظري على شارع جانبي ضيق مكتوب عليه فيج ألاي بخط يد مورو الفوضوي. لقد تذكرت كلماته عندما قال لي:

لقد تركه يتعفن هناك في نهاية زقاق فيج ألاي.

كان هذا ما قاله لي بينما كنا في طريقنا إلى متجر الساعات.

تفحصت المنطقة المزدحمة من حولي، وأنا أبحث بين اللافتات الزرقاء المعلقة على زوايا المباني، حتى وجدت تلك التي تحمل اسم زقاق فيج ألاي. تقدمت في اتجاه هذا الشارع الذي كان عبارة عن ممر ضيق يقع بين المحلات التجارية. وقد أُضيء هذا الممر بمصابيح منخفضة على كلا الجانبين، بينما تناثرت النوافذ بشكل متقطع على طول جدرانه المبنية من الطوب. ومع ذلك، لم تمتد واجهات المحلات التجارية إلى هذا الحد. بدا كأنه طريق مختصر يؤدي إلى الجانب الآخر من منطقة التجار أكثر مما بدا طريقًا رئيسيًا. لم ألحظ ذلك إلا عندما وصلت إلى منعطف في الزقاق، بعيدًا عن الشارع الرئيسي.

كان هناك مبنى خشبي منعزل، ذو مدخل مغلق بين جدارين من الطوب، بينما بدا زجاج النوافذ الطويلة ضبابيًا بفعل العوامل الجوية. ومع ذلك ظل من الممكن قراءة اللافتة المعلقة عليه، وقد كُتب عليها:

بيت شاي إيدن

توقفت عندما رأيت بيت الشاي الخاص بأمي، بينما غرق نعل حذائي في تلك الأرض المهملة الممتلئة بالرمال تحت قدميّ. كان متهالكًا ومنسيًا على غرار بعض واجهات المتاجر التي رأيتها في لوير فالي، لكنه ما زال مع ذلك قائمًا هنا في منطقة حي التجار.

اقتربت من النافذة بخطى متعمدة، بينما ضغطت يدي أعلى عينيّ، وأنا أدقق النظر من خلال زجاج النافذة، بدا المكان كما هو كأنه لم يُمس منذ وفاة والدتي، كان بإمكاني رؤية

الطاولات والكراسي والخزانات الخشبية المنحوتة على طول الحائط، وكذلك الثريات الملطخة بالتراب تتدلى من السقف.

كان يتعفن بالفعل، فقد أكل العث بعض القماش الذي يغطي الكراسي، وفقدت المرآة الكبيرة خلف المنضدة الطويلة بريقها. كان بيت الشاي أشبه بأعماق سفينة غارقة تُركت لتتحلل في الظلام.

جاء من خلفي في تلك اللحظة صوت يقول: «إنه شيء مؤسف جدًّا». انتفضت فزعًا، ونظرت إلى أعلى لأرى انعكاسًا على النافذة لامرأة تقف ورائي.

وضعت يدي على صدري بقوة من شدة الخوف، واستدرت لمواجهتها، قلت لها: «معذرة، ماذا تقولين؟».

وقفت المرأة على بعد سنتيمترات قليلة فقط مني، وقد ثبتت نظراتها عليَّ، وبادلتها أيضًا تلك النظرات. كانت تشبك يديها بلطف فوق ثوبها المصنوع كله من الحرير، بينما زُينت ياقة وكُمَّا ثوبها الأحمر بريش أسود لامع، وقد طلت شفتيها بلون ثوبها ذاته.

قالت وعيناها تنظران إلى اللافتة فوق النوافذ: «ما زلت أرى أن غلق مكان كهذا طيلة هذا الوقت دون الاستفادة منه خطأ فادح يدعو للشعور بالخزي. لقد حاولت شراءه أنا نفسي أكثر من مرة، لكن المالك لم يوافق على الإطلاق».

تجاوزتني متوجهة نحو نافذة بيت الشاي، وظهر طرف حذائها الأسود اللامع من أسفل ثوبها، حيث وقفت تحدق إلى الداخل، وتألق شعرها الأسود الذي كان مضفرًا أعلى رأسها ومعقودًا في شكل كعكة مزينة بنصف دائرة من الأحجار الكريمة التي بدت أنها من الياقوت، وأضاءت مثل ومضات المنارة السريعة لدى سقوط ضوء الشمس عليها.

أشرقت عيناها الخضراوان بينما كانت تتفحصني، قائلة:«لا أعتقد أنني رأيتك من قبل». أيًّا كانت هذه المرأة، فمن الواضح أنها ثرية. ولن أخبرها بأكثر من اللازم قبل أن أعرف مدى

أهميتها. أجبتها وأنا أمد يدي لأصافحها: «لقد وصلت في الحال من نيمسمير. أنا برين»، وحرصت على عدم ذكر اسم روث.

اقتربت المرأة مني بينما ارتسمت ابتسامة لطيفة على شفتيها يشوبها بعض الحزن: «إنه لمن الرائع أنا أقابلك يا برين». وأحكمت قبضتها على يدي، بينما ركزت عينيها على فمي، وأضافت: «يبدو أنك قد واجهت بعض المشكلات هناك».

رفعت يدي إلى وجهي أتحسس فمي عندما تذكرت الجرح الموجود بالقرب منه، وكذلك الكدمات التي كانت لا تزال تشوه بشرتي. لكنها لم تحدق إليّ كثيرًا، وركزت انتباهها مرة أخرى على النافذة الموجودة خلفنا تمامًا، وعندها سمعنا وقع أقدام في الزقاق. التفت لأرى رجلين يقتربان من المنعطف في الممر، لم يعيرانا أي اهتمام، حيث كانا منهمكين فيما بدا أنه بداية جدال بينهما.

قلت بينما كنت ألتفت ثانية إلى تلك المرأة: «أنا...». ذابت الكلمات على لساني عندما نظرت إليها ولم أجدها.

لقد اختفت المرأة التي كانت هنا منذ لحظة واحدة فقط، ولمحت طرف ثوبها الأحمر بلون الدم يختفي بالفعل عند زاوية الشارع أمامي.

تلاشى صوت خطواتها، وتركني في صمت الزقاق الفارغ وحدي، دون أن أتمكن من معرفة اسمها كذلك.

مرَّرت يدي على ثوبي الأزرق في محاولة لضبط هندامه، بينما كنت أنظر إلى اللافتة المعلقة فوق بيت الشاي الصغير هذا. كانت المرأة محقة، لقد كانت خسارة فادحة أن يُترك مغلقًا هكذا في حي التجار؛ فقد كان من الممكن أن يصبح مشروعًا جيدًا للغاية، لو كلف هنريك نفسه عناء إعادة تنظيمه وافتتاحه.

وبينما كنت أحدق، اشتعلت في ذهني فجأة فكرة. فقد استحضرت في مخيلتي صورة حية لذلك المكان الصغير، إذ تصورت الشموع المتوهجة تزين الثريات الكريستالية، بينما عُلقت الستائر المخملية بأناقة خلف النوافذ، وتخيلت كذلك ذاك الصوت اللطيف لاصطكاك فناجين الشاي ورنين الجرس المعلق عند الباب لدى دخول الزبائن.

قلت في قرارة نفسي ربما...

ربما لم أكن بحاجة إلى تأسيس عمل خاص بي ضمن أعمال العائلة، فربما يمكنني أن آخذ ما خلفته أمي وراءها.

كنت أدرك أنني سأظل دخيلة على عائلة روث إلى أن أثبت جدارتي وأرسخ لنفسي مكانة بين أفرادها. وقد علمتني ساريا منذ صغري أن أهمية الشخص وعدم القدرة على الاستغناء عنه في أي مكان يعتبران أفضل وسيلة حماية له. ولهذا السبب أرسلني هنريك إلى منزل آرثر، واستغلني لإقناع سايمون بقبول دعوة العشاء.

ربما صمم هنريك على إبقاء بيت الشاي الخاص بأمي مغلقًا لعدة أسباب تخصه؛ فربما أراد أن يكون نوعًا من النُّصب التذكاري لأخته. أو ربما كانت هذه الجوهرة المهملة في قلب باستيان تنتظرني لأنفض الغبار عنها.

الحادي عشر

وقفت أمام الطاولة الممتدة في متجر مصمم الأزياء، وهو يبسط لفافات القماش. كان يعمل بسرعة كبيرة تنم عن مهارة رائعة. وضع أنواع القماش بعضها إلى جانب بعض من التويد والصوف والتفتا الحريرية، كما كشف لي عن مجموعة مذهلة من ألوانها لفحصها من كثب.

وُضع إبريق فيه شاي ساخن على المنضدة خلفه، بينما انبعث من فوهته عمود من البخار، كما وُضع بجانبه طبق من الخزف به بعض الكعك الطازج، وقد رُتب على شكل نصف دائرة. كان من الواضح أن الأمر سيستغرق منه وقتًا طويلًا حتى إنه استعد له جيدًا، وتأكد من تجهيز كل شيء بما في ذلك متطلباته الشخصية.

كان ترو هو أول من وصل، وعندما اقترب من طاولة الأقمشة وهو يحمل كوب الشاي الخاص به، نظر إليه الرجل نظرات ثاقبة تنم عن غضب واستياء؛ فقد كان مصممو الأزياء شديدي الحرص على أقمشتهم وأدواتهم، ولم يكن أحد ليجرؤ أن يضيء حتى شمعة بالقرب منها. كان هذا المتجر منظمًا بشدة، فحتى قطع الجلد المستخدمة في صنع الأحذية كانت محفوظة في صناديق زجاجية مغلقة تُفتح بمفاتيح خاصة. ولم يكن هناك شك في أن كل تلك العناصر ستؤدي في النهاية إلى زيادة سعر هذه السلع.

عندئذ سألني مصمم الأزياء: «ماذا ستختارين يا آنستي إذن؟».

تقدمت إلى الطاولة أتفحص الأقمشة، وأمرر أصابعي على أنسجتها. ثم قلت بينما كنت أمسك بقطعة من قماش التويد ذي اللون الأزرق الداكن: «سأختار هذه». ستكون من أجل هنريك، فهو بحاجة إلى شيء ينير وجهه، ويبدد الكآبة التي في عينيه. وأضفت: «وسآخذ هذه أيضًا». كان قماشًا ذا لون أخضر زمردي، وهو لون مثالي من أجل مورو؛ حيث إنه

سيجعل شعره البني الفاتح يبدو أكثر دكنة ولمعانًا، ما سيبهر أنظار الفتيات في المعرض بالتأكيد.

أما بالنسبة إلى إزرا، فكنت ألمس الأقمشة بينما أستحضر صورته في ذهني، فقد كان ذا ملامح حادة، ووجه لافت، كما كانت بشرته ناعمة وشاحبة، أما شعره، فكان حالك السواد، وعيناه ضيقتين. هذه الألوان لن تكون مناسبة له، فستجعله يبدو كأنه يرتدي زيًّا تنكريًّا. والأكثر مناسبة له هو القماش ذو اللون الأسود الداكن.

أمسكت بقطعة القماش وتحسستها بيدي، وشعرت حينها بحرارة تشتعل في جسدي، ما جعلني أرتجف وأنا أتخيل الطريقة التي ستشتعل بها عيناه الرماديتان وهو يرتدي سترة بهذا اللون.

أغمضت عينيَّ بشدة، وصرفت صورته من ذهني، ثم أسقطت القماش وأنا أمسك يديَّ كأن القماش قد آلمها.

سألني مصمم الأزياء بينما كان يمسك بيده المقص: «ماذا بعد؟».

اخترت كل الأقمشة المناسبة لجميع أفراد العائلة، وكانت كل قطعة منها متفردة. وأيقنت أنهم عندما يرتدونها سيبدون رائعين كأنهم مجموعة منسجمة.

كان هنريك قد قرر حضوري أنا وإزرا حفل العشاء في منزل صانع الساعات، لكنه أصر على الرغم من ذلك على إحضار ملابس رسمية لكل فرد في العائلة؛ حيث قال إن ذلك هو العشاء الأول من بين ارتباطات عديدة تالية تخص جميع أفراد العائلة، ولا بد أن يظهروا في أبهى حلة. كان أفراد عائلة روث يجيدون الاهتمام بأنفسهم، وارتداء أفضل الملابس، والأحذية، والساعات حتى في ظل عدم وجود ضيوف. لكن تقديم أنفسهم لمجتمع النقابة وسط هؤلاء الأفراد الراقين جدًّا كان أمرًا مختلفًا تمامًا؛ إذ لا يهم مدى نصاعة قمصانهم البيضاء، بل الأهم هو طريقة تصرفهم. فقد كان أخوالي وأبناؤهم، وكذلك إزرا، يتصرفون

بطريقة همجية بعض الشيء، وكان أعضاء النقابة سيكشفون ذلك بمنتهى السهولة. فإذا أراد هنريك الفوز بخاتم التاجر من خلال النقابة، فعليه أن يتعلم كيفية التصرف بشكل متحضر للغاية. وكان ذلك سيستغرق بعض الوقت؛ لذلك بدأنا سريعًا من الخطوة الأولى، وهي اختيار ملابس لائقة.

بدأ مصمم الأزياء قص القماش وإعداد الثياب على الفور، وانساب مقصه ذو الحواف النظيفة في الأقمشة، فكان يأخذ القطعة التي سيستخدمها، ويضع تلك التي لن يستخدمها جانبًا.

سأل بينما كان يعد الخيط المناسب لاستخدامه في خياطة الملابس: «هل هذا كله من أجل ملابس حفل عشاء؟».

أجبته بينما كنت أتوجه نحو النافذة لأراقب الشارع: «نعم، هذا صحيح».

تأخر مورو وإزرا، فتمتمت بين نفسي: «ترى أين هم، لماذا تأخروا هكذا؟».

لاحظ ترو توتري، فقال وهو يضع مكعبًا ثالثًا من السكر في كوبه: «سيكونون هنا قريبًا».

أخرجت ساعتي لأتحقق من الوقت.

سألني مصمم الأزياء بينما كان لا يزال يقص القماش: «وهل تريدين إعداد أحذية أيضًا؟».

أجبته: «نعم، سنعد كل شيء على أفضل ما يكون. كما أريد أن تكون أربطة العنق مصنوعة من الحرير. وكذلك السترات مبطنة بالحرير».

أومأ برأسه مستحسنًا اختياراتي. فقد كنت أعرف جيدًا كيفية إعداد الملابس الرجالية الأنيقة والمناسبة، كما أخبرني هنريك بألا أبخل بأي نفقات، وسأنفذ ما قاله بكل تأكيد.

سألني بينما أخذ يتفحصني بعينيه من رأسي حتى أخمص القدمين: «وماذا عنكِ يا آنسة؟».

مددت يدي لألمس لفافة قماش بجانبي ذات لون بني فاتح. لقد اعتدت الذهاب إلى متجر مصمم الأزياء في نيمسمير مع ساريا، وكنت دائمًا ما أتخيل سرًّا مظهري عند ارتداء ملابس تشبه ملابس الرجال وأُضفر شعري، وأتركه يتمدد على ظهري. فدائمًا ما كرهت تلك الفساتين السخيفة التي اختارتها لي ساريا، أو المجوهرات باهظة الثمن التي أصرت على أن أرتديها. كنت أشعر بأنني أبدو مثل طائر له ريش غير ريشه الذي يناسبه. ولو أنها تركت لي حرية الاختيار، لكنت سأختار ارتداء سترة بدلًا من الفساتين، لكن ساريا كانت ستفضل أن تراني أسير عارية في الشارع بدلًا من أن أرتدي سروالًا مثل الرجال. كما أنني في ذلك المتجر المليء بأجود أقمشة التويد والصوف، كان عليَّ أن أختار شيئًا يليق بسيدة راقية.

أطلقت تنهيدة عميقة، فقد كان هنريك يرغب في أن أبدو في أبهى حلة ممكنة، وهذا يعني أنني يجب ألا أعد ثوبًا راقيًا فحسب، بل أعد ثوبًا رفيع المستوى يجذب بجماله انتباه الجميع، ويترك انطباعًا رائعًا لديهم. وقفت أمام لفافة القماش وأنا أفكر؛ سيكون الأورجانزا مزخرفًا للغاية، والساتان مثيرًا جدًّا. ويظل الحرير هو الخيار الشائع بين النساء، لكن كان عليَّ أن أبدو متميزة، على الرغم من ذلك حتى تُحفر صورتي في أذهان الجميع، فلا ينسونني. كان ذلك ما أراده مني هنريك وعائلته. وقد كنت بارعة في تنفيذ ما يريده الآخرون مني. فالأمر كله يتعلق بطريقة تقديم نفسي بالشكل المناسب.

قلت له بينما استقر نظري على لفافة من الشيفون: «سأختار هذا». كان لونها فضيًّا دافئًا، التقطت اللفافة، وأمسكتها بلطف بين يديَّ.

أومأ مصمم الأزياء مستحسنًا اختياري مرة أخرى، ثم رفع القماش ليضعه أمام بشرتي، وقال: «خيار جيد». تحوَّل بعينيه نحو الباب الذي كان خلفي، إذ أصدر صوتًا لدى فتحه.

صعد إزرا الدرج، بينما تغلغلت أشعة الشمس من خلفه، وكان قد أمال قبعته قليلًا على عينيه ممسكًا بساعته في يده، وقد فُتح غطاؤها.

قلت وأنا أحدق إليه: «ها قد وصلت أخيرًا».

تجاهل إشارتي إلى تأخره، وبدلًا من ذلك ذهب مباشرة إلى إبريق الشاي الموضوع بجانب ترو وسكب لنفسه كوبًا دون أن يكلف نفسه عناء خلع سترته.

أضفت على الرغم من تجاهله: «يجب أن يأخذ مصمم الأزياء مقاساتك». وسلمت لفافة الشيفون إلى مصمم الأزياء، فوضعها بجوار بقية القماش الذي اخترته.

أطلق إزرا تنهيدة، وقال بينما كان يفك أزرار سترته بحركة سريعة وغاضبة إلى حد ما: «يجب أن ننتهي من هذا سريعًا».

يبدو أنني قد أبعدته عن عمله بعض الوقت، وكنت قد استنتجت خلال فترة وجودي معه أن الورشة هي المكان الوحيد الذي يشعر فيه إزرا بالراحة والاسترخاء. فقد كان وقوفه أمام المسبك وحوله تلك الأدوات هو الشيء الوحيد الذي يبدد ذلك العبوس الذي يعلو وجهه دائمًا.

أجبته بشكل قاطع: «سيستغرق مصمم الأزياء الوقت اللازم لإتمام عمله كما هو معتاد».

أطلق نظرة باردة تجاهي قبل أن يضع سترته على الكرسي الذي كان يجلس عليه ترو، وكانت كبيرة للغاية حتى إنها غطت ترو الذي بدا كأنه مختبئ داخلها، ثم بدأ خلع صديريته، وبدا من تحتها قميص أبيض أنيق كأنه قد صُمم بيد خبير؛ فقد كان مقاسه مضبوطًا ويتناسب تمامًا مع شكل جسده.

وجَّهه مصمم الأزياء إلى الوقوف أمام المرآة الكبيرة ذات الإطار الخشبي، قائلًا: «فلتقف هنا يا سيدي». وأطاعه على مضض، بينما أدار ظهره للطاولة.

شعر مصمم الأزياء بالفزع عندما لاحظ وجود سكين مدسوس في الجزء الخلفي من حزام إزرا. تجاهله إزرا، وسحب حمالتيه من ذراعيه، وتركهما تتدليان من خصره، شاهدت الرجل وهو يتناول شريط القياس ويضعه على كتفي إزرا العريضتين، كان إزرا يفوقه عرضًا وطولًا إلى درجة أن الرجل اختفى خلف جسم إزرا.

وقف إزرا ساكنًا تمامًا، ويداه المليئتان بآثار الفضة موضوعتان على جانبيه، بينما امتدت الندوب الموجودة على يديه التي كانت أشبه بالأشرطة المتلألئة تحت أسورتي قميصه، ما جعلها تختفي جزئيًا عن الأنظار.

نظر لي مصمم الأزياء وهو يسألني: «ماذا عن طية صدر السترة؟».

أجبته: «اجعلها مثل طيات صدر السترات الرسمية».

سألني ثانية: «وماذا عن الأزرار، هل نختارها نحاسية؟».

نظرت إلى عينيه في المرآة وأنا أميل برأسي إلى أحد الجانبين قليلًا، وسألته: «هل يلبس التجار أزرارًا نحاسية؟».

أجاب: «لا».

سألته بنبرة واضحة: «هل نختار إذن تلك المصنوعة من قرون الحيوانات أم من صدف البحر؟».

أومأ برأسه بينما ارتسمت على وجهه علامات الخجل؛ فلم يكن مصمم الأزياء غبيًا، وبالتأكيد عرف من نحن. ولم أكن لأدعه يغشنا لأنه اعتقد أننا لا نعرف الفرق بين الأزرار العادية والأزرار الأنيقة التي تستخدمها الطبقات الراقية.

انتظر إزرا مصمم الأزياء لإنهاء مهمته بنفاد صبر حيث كان يدوِّن قياساته، ويطلب من إزرا أن يرفع ذراعيه، فيطيعه على مضض، لكن عندما هم مصمم الأزياء بإخراج قميص إزرا من

بنطاله توتر، وتمتم: «بإمكاني إخراج قميصي بنفسي»، ثم سحب قميصه من بنطاله.

ظهر جزء من جلد إزرا الناعم والشاحب عندما رفع قميصه، ثم أخذ مصمم الأزياء مقاسات محيط خصره. لقد كان مخلوقًا جميلًا بقدر ما كان مثيرًا للقلق. لكنه لم يكن مدركًا تقريبًا مدى تأثير حضوره الصامت في أي مكان يكون فيه. فلو أنه تلقى تربية أفضل لكان بمنزلة جائزة كبرى لأي عائلة في نيمسمير.

عندما نظرت إلى المرآة، كان إزرا يراقبني، فقد رآني وأنا أحدق إليه، أغمضت عينيَّ، ونظرت بعيدًا لأخفي احمرار وجنتي.

جلجل الجرس بينما دخل مورو إلى المتجر مسرعًا، ووجهه متورد كأنه قد قطع نصف المسافة ركضًا ليأتي إلي هنا.

سألته مازحة: «لماذا تأخرت هكذا، ألم تكن تحدثني عن أهمية النظام واحترام المواعيد؟».

أجاب وهو يغمز لي: «آسف. لقد كان لديَّ عمل في منطقة نورث إند».

بدا أكثر جدية وهو يمد يده في سترته ليخرج دفتر حسابات هنريك الجلدي، ثم تنحنح وقال: «إزرا».

لم يلتفت إزرا إلى مورو، وترك مصمم الأزياء ينتهي من أخذ قياسات صدره، وقال: «ماذا هناك؟».

نظر مورو إليَّ وبدا متوترًا للغاية، ثم وجَّه حديثه إلى إزرا: «لقد انتهيت من فوري من فحص الأرقام».

أرخى إزرا ذراعيه، واستدار أخيرًا: «ثم ماذا؟».

قال مورو بنبرة جادة: «هناك خطأ».

زادت حدة نظرة إزرا، وقال بغضب: «مِمَّن؟».

تحوَّل انتباه مورو إلى ترو الذي كان يشاهدهما بعينين مشدوهتين من مقعده: «ترو».

تشنج فك إزرا وبدا على ترو علامات الرعب الشديد نتيجة حدة نظرات إزرا الموجهة إليه، وأنزل كتفيه قليلًا، فقال إزرا موجهًا حديثه إلى مصمم الأزياء: «اخرج بضع لحظات».

أطاعه مصمم الأزياء على الفور، وخرج من الباب المؤدي إلى الغرفة الخلفية، وبمجرد رحيله نزل إزرا من فوق منصة القياس، وتوقف أمام ترو الذي قام من مقعده، ووقف على قدميه بالفعل.

عقد إزرا ذراعيه على صدره، وسأل: «لماذا أرقامك خطأ يا ترو؟».

تنحنح ترو واضعًا يديه في جيبيه.

ثم حدَّق إزرا إليه وسأله: «هل تحققت من الأرقام ثلاث مرات؟».

ابتلع ترو ريقه وقال: «لا».

التقت عينا مورو وإزرا عبر الطاولة، بينما استطعت أن أسمع صوت مصمم الأزياء في الغرفة الخلفية وهو يفتح الأدراج ويغلقها.

سأله إزرا بصوت أكثر حدة: «لِمَ لم تفعل ذلك؟».

أجابه ترو: «لقد نسيت».

فكرر كلامه: «لقد نسيت».

قلت مرتبكة وأنا أنقل ناظريَّ بينهما: «لقد ارتكب خطأ، لكن ألا يمكن أن تفعلا ذلك لاحقًا؟».

نظر إليَّ إزرا نظرات متعجبة كأنني أتحدث لغة لا يفهمها، وقال: «لا، لا يمكن». ثم أضاف وهو يشير إلى المكان الذي أمامه مباشرة: «تعالَ إلى هنا يا ترو».

تردد ترو، وتسلل الخوف إليَّ حتى شعرت بوخز في مؤخرة رقبتي، وأشعرني السكون المترقب في الغرفة بعدم الارتياح. لم يكن الهدوء البادي على وجه إزرا متوافقًا مع التوتر السائد في المكان، وشعرت بأن هناك أجواء مشتعلة بين كل منهما، وأننا جميعًا على وشك أن نصطلي بها.

توجَّه ترو نحو إزرا بخطوات متثاقلة وهو يأخذ نفسًا عميقًا، وبعد لحظة نظر إلى أعلى. وأخرج يديه من جيبيه ووقف مستقيمًا. وأدركت بعد فوات الأوان أنه كان يعد نفسه لشيء ما.

اتخذت خطوة صغيرة إلى الأمام، وقلت: « ماذا ستـ...»

ولم أكمل كلماتي حيث ارتفعت يد إزرا في الهواء، ثم هوت بسرعة كبيرة جدًّا على وجه ترو فاندفعت بشكل غريزي إلى الأمام، بينما تراجع ترو إلى الخلف حتى اصطدم بالمقعد.

صرخت في وجه إزرا: «ماذا تفعل؟» ثم ركضت نحو ترو.

أمسكت بوجهه الساخن بين يدي، ووجَّهته نحو الضوء المنساب من النافذة لأرى ما حدث له. كانت عيناه مغرورقتين بالدموع، وسال شريط من الدم من شفته السفلى، فمد يده ليمسحه، وكان ذاك الجانب من وجهه الذي تلقى الصفعة عليه قد بدأ الاحمرار، وكان من الواضح أنه سيتورم كله.

غلى الدم في عروقي، فتركت وجه ترو واتجهت نحو إزرا، ودفعته بقوة في صدره بكلتا يديَّ، حتى إنه تراجع إلى الخلف، وأوشك على الاصطدام بالمرآة التي خلفه، بدا مندهشًا للغاية. واتسعت عيناه وهو ينظر إليَّ. وللمرة الأولى منذ أن جئت إلى باستيان ألحظ عاطفة

تنضح بها عيناه، وتبدو واضحة هكذا من خلف ذاك القناع الصارم الذي كان يضعه على وجهه.

تردد صوت مورو من ورائي: «برين»، لكنني لم ألتفت إليه؛ فقد كانت نظراتي النارية منصبة على إزرا.

قلت له وأنا أكز على أسناني: «المسه مرة أخرى وسأكيل لك اللكمات».

بدا إزرا مذهولًا، واستغرق منه هذا الأمر بضع لحظات حتى يجمع شتات نفسه. أصلح شعره المبعثر بيد واحدة، بينما أخذ يحدق إلى عينيَّ مباشرة بنظرات تحدٍّ.

لكن قناعه الصارم عاد ليغطي وجهه مرة أخرى، فبدت عيناه أكثر قتامة.

وجَّه إزرا نظراته إلى مصمم الأزياء الذي كان يقف خلفنا في مدخل الغرفة مشدوهًا، وسأله بصوت أجوف: «هل انتهينا؟».

أجابه بصوت مضطرب: «نعم».

تقدَّم إزرا بخطوة نحوي حتى أصبح يقف على مقربة مني، لدرجة أنني شممت رائحة القرنفل وأوراق الشاي الأسود المنبعثة منه، ورأيت بقعًا صغيرة من دم ترو على قميصه الأبيض.

عندما اقتربت يده مني توقفت عن التنفس، وشعرت برئتيَّ تنقبضان بشدة داخل ضلوعي، وتسارعت نبضات قلبي. التقط سترته والصديرية الخاصة به من فوق ظهر المقعد، بينما لم يحوِّل عينيه عن عينيَّ وهو يرتديهما.

قال وهو يمد يده إلى مورو: «أعطني الدفتر»، فوضع مورو دفتر هنريك في يده، وابتعد عني إزرا أخيرًا قائلًا لترو: «هيا نذهب».

كان ترو يتحرك بالفعل نحو الباب خلف إزرا مباشرة أثناء نزولهما الدرج المؤدي إلى الشارع.

أطلقت الأنفاس التي كنت أكتمها، والدموع الغاضبة التي كادت تختنق في عينيَّ.

راقبهما مورو من النافذة حتى اختفيا عن الأنظار.

ثم قال لي: «لم أرَ هذا يحدث أمامي من قبل قط».

صحت قائلة: «ماذا؟».

نظر إليَّ نظرات متحيرة، وقال: «قد تكونين الشخص الوحيد في باستيان الذي نجا من بطش ذلك الوحش الشرير بعد أن تجرأ ومد يده عليه».

الثاني عشر

عزيزتي ساريا،

حدقت إلى الورقة الفارغة أمامي، لقد أصبح اسم شقيقة جدي التي قضيت معها أعوامًا عديدة من عمري غريبًا عليَّ الآن. لقد حاولت أن أكتب هذا الخطاب مرارًا وتكرارًا على مدار الأيام السابقة، لكن الكلمات التي يجب أن أضمِّنها إياه كانت تتبخر فلا أجدها.

لم أتلقَّ أي رسائل من نيمسمير، ويبدو أن ذلك سيستمر فترة كبيرة؛ إذ لم تكن مهارات التواصل من خصال ساريا، كما أنها قالت لي كل ما أرادت أن تقوله قبل وداعنا الأخير. وأيًّا كان ما أرادت أن تضيفه، فهو موجود هنا في الخطاب داخل هذا الدرج، لكنني لم أقم بفتحه بعد، ولا أعلم إن كنت سأفعل ذلك.

كانت الأيام التي قد قضيتها في باستيان منذ وصولي تطبيقًا عمليًا لما أخبرتني به ساريا، لكنني على الرغم من ذلك أسأت تقدير مدى قسوة وبرودة أخوالي، فلم يكُف ذلك المنزل عن مفاجأتي مطلقًا. ولم أشعر فيه بأي راحة أو استقرار.

لم أشعر قط بالانتماء إلى نيمسمير، ولكنني وجدت نفسي أتوق إلى هدوء ورتابة تلك المدينة الكبيرة الخاوية، وإلى كلمات ساريا العذبة على الرغم من قلتها. وعندما أقلب في دفاتر الماضي، أجد أنني قد قضيت وقتًا طويلًا هناك أنتظر الرحيل إلى باستيان؛ لذا لم أسمح لنفسي قط بالاستقرار هناك؛ فلم أكوِّن صداقات، وبغض النظر عن بعض مشاعر الحب اللطيفة التي سكنت قلبي، فإنني لم أمنحه أحدًا مطلقًا. كانت حياتي قبل مجيئي إلى باستيان وانضمامي إلى عائلة روث عبارة عن محطة انتظار طويلة، والآن بعد أن أصبحت هنا بدأت أعتقد أنني ربما لا أنتمي إلى أي مكان.

جفلت عندما سمعت دقات على باب غرفتي، فوضعت على الفور ريشتي، فتدحرجت على الطاولة التي مالت عندما وقفت فجأة لأحاول إخفاء الأوراق الفارغة. أدركت أنه لم يكن هناك شيء لأخفيه، لكن كل شيء في ذلك المنزل كان يوحي بأن هناك سرًّا ما يقبع هنا أو هناك، ويجب إخفاؤه عن الآخرين.

ذهبت لأفتح الباب، فوجدت هنريك أمامي، وفي يده صندوق صغير من الخشب، عبست عندما رأيت ظل إزرا يحوم خلفه بكآبته المعهودة.

سألني هنريك: «هل يمكننا الدخول؟».

حملت نبرة صوته الكثير من نفاد الصبر، لكن ليس بشكله المعتاد، فكان يبدو أكثر حماسًا، ولم يجعلني ذلك أشعر إلا بالقلق. تراجعت قليلًا إلى الخلف لأفسح لهما المجال للمرور إلى غرفتي، ووقعت عينا إزرا برهة سريعة على قدميَّ الحافيتين قبل أن يتجه إلى النافذة، وبدا أكثر انزعاجًا من المعتاد. وتساءلت في قرارة نفسي ما إذا كان هنريك قد علم بما حدث في متجر مصمم الأزياء. لم أكن قد رأيت إزرا منذ أن صحت فيه، ودفعته بكلتا يديَّ هناك، وأثارت الذكرى غضبي من جديد. واستنتجت من نظراته أنه يفكر في ذات الأمر.

وضع هنريك الصندوق الخشبي الصغير على مكتبي، ثم بادر بالحديث قائلًا: «أريد منك أن تفعلي شيئًا ما».

اتكأت إلى الحائط المقابل لإزرا في محاولة لترك مساحة كبيرة بيننا بقدر الإمكان، فلم أحب وجوده في غرفتي، وتفحُّصه أغراضي، ولم أطِق كذلك شعور اختراقه المساحة الخاصة الوحيدة لي في ذلك المنزل.

سألني هنريك بغتة: «هل فتحتِ قفلًا من قبل؟».

جفلت وأنا أنظر إليه: «ماذا؟ لا».

تنهد بانزعاج، ثم قال: «توقعت ذلك»، وبدا عليه الضيق بالفعل جرَّاء ما قلته.

سألته وأنا خائفة من سماع إجابته: «لماذا قد أحتاج إلى معرفة كيفية فتح الأقفال؟».

أجاب هنريك وهو ينقر على الصندوق الخشبي الصغير: «أريد منك أن تدخلي إلى غرفة مكتب صانع الساعات أثناء تناولنا العشاء هناك، حيث ستجدين بأحد الأدراج صندوقًا كهذا، أريد منك أن تفتحيه».

حدقت إليه في ذعر، وبدت ملامح التعجب والانزعاج على وجهي، وسألته: «أتريدني أن أسرق؟».

قال وهو يبتسم ابتسامة باهتة: «بالطبع لا، فلو اكتشف سايمون أن شيئًا ما قد اختفى بعد مغادرتنا، فسيعلم مَن المسئول عن ذلك بالضبط. ما أريده منك هو أن تكتشفي ما في داخله؛ إذ من المفترض أن هناك دفاتر حسابات وتسجيلات لعمليات تجارية من نوع ما».

تنهدت بعمق، وقلت له: «لا أستطيع أن أفعل ذلك، فماذا لو أمسكوا بي؟».

بدت الحيرة على هنريك، وقال ببساطة شديدة: «لكن هذا ما أريده منك يا برين». كأنه يعتقد أن مجرد رغبته في تنفيذ شيء ما مُلزمة للقيام به، وعلى الشخص الذي وجَّه إليه الطلب مجرد السمع والطاعة. فلم يجرؤ أحد هنا على معارضته من قبل.

قلت له: «لكن... لقد ظننت أنك تحاول الحصول على دعمه في النقابة».

قال: «هذا ما أريده بالتأكيد، لكنني أحب أن أكون مستعدًّا أيضًا، فإذا قرر أن يتصرف بما لا يخدم مصلحتي، فيجب أن أمتلك ما يمكنني من إرغامه على فعل ما أريد. ربما استطاع سايمون أن يخدع النقابة، لكنني أعرفه جيدًا، وأعرف أن تجارته لا تخلو من التلاعب والتعاملات المشبوهة. أنا بحاجة إلى ما يمكنني أن أستخدمه لصالحي إذا لم تسِر الأمور كما ينبغي».

تسارعت نبضات قلبي، بينما شبكت يديَّ بقوة خلف ظهري، وقلت له: «لكنني لا أعرف حتى ما الذي يجب أن أبحث عنه».

قال: «إنه اسم. ستبحثين عن اسم واحد فقط».

أطلقت تنهيدة عميقة، ونظرت إلى إزرا، لكنني كنت أعلم أنه آخر شخص قد يرغب في مساعدتي، فسألته: «ما الاسم؟».

ابتسم هنريك، ثم قال: «هولاند».

سألته متعجبة: «تاجرة الأحجار الكريمة؟».

قال بنبرة حادة: «تاجرة الأحجار الكريمة السابقة. أعلم أن سايمون ما زال يقوم ببعض الأعمال التجارية معها، وكل ما أريده هو أن أتمكن من إثبات ذلك. فإذا وجدتِ اسمها في دفاتره، فسيكون ذلك كافيًا».

إذا اكتشفت النقابة أن سايمون ما زال يعمل مع هولاند، فسيكلفه ذلك خسارة خاتمه. وأراد هنريك أن يحتفظ بتلك المعلومة حتى يستغلها ضده، ويذكره بما قد يخسره إذا قرر التخلي عن دعمه. لكنني كنت آخر شخص في تلك العائلة يملك القدرة على فتح قفل في الظلام أثناء حفل عشاء.

قلت له بنبرة لائمة: «لكنك قلت لي إنك تريدني أن أجهز العائلة للعشاء من حيث قواعد السلوك الراقي والثياب الأنيقة اللائقة، وأشياء من هذا القبيل».

أجابني: «لم أعلم أن ذلك هو كل ما يمكنك فعله». وتوقف قليلًا، ثم قال وهو يختبرني: «هل تريدين أن تقولي إنك لن تفعلي ذلك؟».

صعقتني كلماته بشدة؛ فقد سلطت الضوء على تلك الفجوة الكبيرة بين الفتاة المدللة الراقية التي ربتني ساريا لأكونها، وتلك الفتاة التي تجري دماء عائلة روث في عروقها،

التي لا بد أن تتسم بالدهاء والمكر وتنفذ لهم كل رغبات ذويها. لقد كنت أرغب في جعلهم يرونني أكثر من مجرد دمية جميلة يمكنهم تحريكها، وها هم يفعلون ذلك بي بكل بساطة. كان إزرا يتفحصني عبر الغرفة، وينظر إليّ كأنه يستطيع اختراق عقلي وسماع كل فكرة تدور داخله.

ابتلعت ريقي بصعوبة وأدركت أنه في عائلة روث لا يوجد فرق بين النساء والرجال، وذلك بالتحديد هو ما كنت أرغب فيه عندما حطت قدماي على أرض باستيان.

قلت وأنا أعني ما أقول جيدًا: «أستطيع أن أفعل ذلك».

كانت كل مهمة في هذه العائلة بمنزلة فرصة تقرِّبني من إنشاء مكانتي الخاصة بها. فإذا أرادني أن أفتح قفلًا، فسأفعل ذلك، حتى إن أرادني أن أقوم بقياس مساحات أسطح المنازل في حي التجار في يوم عاصف، فسأفعل ذلك أيضًا.

قال: «هذا جيد، سيعلمك إزرا كيفية القيام بهذا الأمر، وأنا أثق بقدرتك على النجاح».

نظرت إلى إزرا الذي وقف ساكنًا أمام النافذة، بينما رمقنا هنريك بنظرة قبل أن يلتف على عقبيه مغادرًا الغرفة ويغلق الباب خلفه.

وقفنا نحدّق أحدنا إلى الآخر. وشعرت حينئذ بحدود الغرفة تضيق وأصبح الجو أكثر اختناقًا، بينما ظل إزرا واقفًا مكانه محدقًا إليّ على الرغم من كل شيء.

سألته: «ألا يوجد أي شخص آخر ليفعل ذلك الأمر غيرك؟».

قال لي: «لا تترددي في الاستفسار عن هذا الأمر من هنريك إذا أردت ذلك»، ثم سحب مقعدًا صغيرًا، ووضعه بقوة بجوار الطاولة. وعندما جلس ترددت لحظة، وأخذت أجول بناظري في الغرفة، قبل أن أسحب المقعد الآخر وأضعه بجواره.

ثم بدأ العمل على الفور، وأحضر الصندوق الصغير ووضعه أمامنا قائلًا: «إن هذا النوع من الأقفال يُفتح بالطريقة ذاتها تقريبًا».

كززت على أسناني بينما رمقته بنظرة ثاقبة؛ فقد كان يتصرف كأن شيئًا لم يكن، وكأن تغيير ملابسه سيغير من حقيقة ضربه ترو. لقد كنت مستعدة لأن أفصل رأسه عن جسده قبل بضع ساعات، وما زلت أشعر بالغضب تجاهه، ولم أستطع إظهار عكس ذلك.

أضاف إزرا: «يوجد داخل القفل خمسة ألسنة حادة تشبه الدبابيس، وكل منها مضبوط بأطوال مختلفة. يجب أن تحركيها بطريقة معينة إلى أن تتمكَّني من جعلها جميعًا في موضع واحد حتى يفتح القفل».

نظر إليَّ في انتظار أي رد فعل وعندما لم أقل شيئًا تنهد، ثم قال: «هل يمكنك التركيز بضع لحظات حتى ننتهي من هذا الأمر؟».

أدركت أنه لا يرغب في البقاء هنا تمامًا، كما لم أُرغب في ذلك أنا أيضًا، وكان على حق، فكلما أسرعنا في الانتهاء مما أراده هنريك، أسرع في مغادرة غرفتي هو كذلك.

اعتدلت في جلستي، وركزت انتباهي على القفل، وسألته: «وكيف يمكنني أن أجعلها جميعًا في موضع واحد، إذا كنت لا أستطيع أن أراها؟».

تحرك إزرا بمقعده حتى أصبح مواجهًا لي، وجفلت عندما تحركت يده نحوي، وتراجعت إلى الخلف قليلًا. تجاهل رد فعلي، وعبرت أصابعه من أمام وجهي، وامتدت نحو شعري المجموع خلف أذني.

تجمدت عندما أمسك بدبوسين من دبابيس شعري وسحبهما بعناية، فانزلقت خصلة من شعري على كتفي، فنظر إليها إزرا قبل أن يبدأ إيضاح الأمر.

حاولت أن أهدئ من روعي قليلًا، وسألته: «ما الذي تفعله بدبوسي شعري؟».

أجابني وهو يضع أحدهما على الطاولة: «إنهما سيساعدانك على إتمام المهمة بنجاح».

كنت لا أزال أشعر بدفء لمساته على جلدي، لكنه أعاد انتباهه إلى الصندوق مرة أخرى.

وقال: «ستحتاجين إلى وضع المزيد من هذه الدبابيس في شعرك احتياطيًّا»، وأردف وهو يثني الدبوس المعدني على شكل طرف مدبب: «ستقومين بثني الدبوس الأول هكذا، ونظرًا إلى أنك عسراء، يجب أن تمسكي الدبوس بيدك اليسرى لتنفيذ الأمر ببراعة».

سألته متعجبة: «وكيف عرفت أنني عسراء؟».

أجابني: «لديَّ عينان أرى بهما»، ثم أدخل الدبوس المثني في فتحة القفل، وأدخل الدبوس المستقيم تحته مباشرة، وقال: «عليك أن تفعلي مثل هذا». وبعدما أراني ما يجب فعله، سحب الدبوسين ليجعلني أجرِّب الأمر.

تناولت الدبوسين من يديه، وحرصت على ألا ألمس أصابعه، وقربت الصندوق مني، ثم قلَّدت ما فعله، حيث وضعت الدبوس المثني أولًا، ثم المستقيم تحته مباشرة.

وعندئذ أضاف: «أدخلي دبوس الشعر العلوي بعناية في القفل وحركيه برفق على طول الجزء الداخلي من القفل حتى تنزلق الألسنة الداخلية إلى أعلى، وتصلي بسهولة إلى لسان القفل الأساسي».

دفعت طرف دبوس الشعر من الخلف إلى الأمام، واستشعرت ألسنة القفل على طول الجزء الداخلي منه، ثم سألته: «كيف يمكنني التعرُّف على لسان القفل الأساسي من خلال لمسه بدبوس شعري؟».

اندمج في الشرح تمامًا، فذابت صرامته وحدته، وأصبح أقل توترًا، وقال: «سيكون أكثر مقاومة وأكثر صلابة من الأخرى. وعندما تجدينه، استخدمي الدبوس لدفعه برفق إلى أن تسمعي صوت نقرته».

ركزت نظري على حافة الطاولة بينما كنت أحاول أن أجد طريقي بين ألسنة القفل الداخلية حتى وصلت إلى اللسان الأثقل والأقوى فيها، واستغرقني الأمر بضع محاولات، لكنني حرَّكته أخيرًا حتى سمعت نقرة خافتة.

قال لي عندئذ: «هذا جيد، كان هذا هو اللسان الأسهل، هناك واحد آخر أكثر صعوبة، والآن عليكِ فعل الشيء نفسه معه».

خفضت دبوس شعري قليلًا ودفعته للأمام داخل القفل، لكن الجزء الداخلي منه كان أملس للغاية، فقلت له: «لا أستطيع أن أجده».

اقترب إزرا مني بدرجة استطعت معها أن أستنشق رائحة القرنفل المنبعثة منه، من سترته وشعره، كانت تلك الرائحة عالقة به، وترافقه أينما ذهب. حتى إنني من شدتها شعرت بمذاقها على لساني.

تراجعت إلى الخلف على الفور للحفاظ على مزيد من المساحة بيننا. مد يديه ووضعهما على يديَّ، موجهًا حركات أصابعي، كان ملمس يديه دافئًا ما جعلني أشعر ببعض التوتر والاضطراب.

رفع الدبوس بزاوية إلى أعلى حتى وصل إلى طرف لسان القفل التالي، ثم قال: «ها هو ذا».

لكن عندما ترك يديَّ، وحاولت القيام بالأمر بنفسي، ارتد دبوس شعري إلى الخلف ومعه دبوس الشعر الآخر، فصحت: «يا لحظي العاثر».

نظر إليَّ إزرا قائلًا: «سيتطلب الأمر تدريبًا. حاولي مرة أخرى».

صوبت نحوه نظرة حادة، وقلت له: «أنا أحاول».

فألقى الدبوس الثاني على كومة الورق، ثم وضع مرفقيه على المكتب، وقال: «إذا كان لديك ما تريدين قوله، فقوليه الآن».

شعرت بجسدي يشتعل من فرط الحرارة، بينما كان يوجِّه نظراته إليَّ، لكنني تجرأت وقلت له: «حسنًا. لم يكن عليك ضربه، إنه طفل».

أجاب إزرا بسخرية: «إنه لم يعد طفلًا، هو في العاشرة من عمره».

قلت له: «وهذا يعني أنه طفل».

قال بشكل قاطع: «لا أعرف ما الذي كنتِ تفعلينه في ذلك العمر، لكنني توقفت في مثل عمره عن تناول الشاي المُحلى بالسكر، واللعب بألعاب الأطفال».

نظرت إليه نظرات استهجان، فقد كان يشير إلى أن تربيتي في نيمسمير قد جعلتني ضعيفة وهشة، وبأنني لا أستطيع فهم أسلوب حياتهم. كان كل شيء يؤدي إلى النقطة نفسها: إنني لم أكن واحدة منهم، ثم قلت له «بغض النظر عن عمره، فإنك يجب ألا تلجأ إلى العنف الجسدي لمجرد أن شخصًا ما لا يطيع أوامرك».

قال لي: «أنتِ لا تعرفين شيئًا».

قلت بصوت مرتفع: «ولا أنت أيضًا. أنا أعلم أنك تعتقد أنني تافهة، ولا أستحق أن أكون هنا، وكل ما تراه عندما تنظر إليَّ هو فتاة نشأت في نيمسمير ولا تفعل شيئًا سوى أن تحتسي الشاي المحلي الذي تعتبر أنه دليل على ضعف الشخص ورفاهيته، كما تعتقد أنني لا أستطيع فعل ما هو مطلوب مني».

لكن إزرا لم يبدُ غاضبًا، ما جعلني أشعر بأنني أكثر حماقة، وحدق إليَّ، فبادلته التحديق، ثم قال: «أنا لا أرى أنك كذلك».

قاطعته متسائلة: «ما الأمر إذن؟».

ظل صامتًا بعض الوقت، وهو يتفحص وجهي جيدًا، فانتابتني رغبة كبيرة في الهروب من مقعدي، ثم انحنى مقتربًا، وقال أخيرًا: «أرى فتاة تحاول الاختباء وراء أثوابها الحريرية، ما

يجعلني أتساءل عما تخشين أن يكتشفوه عنكِ».

ازدردت ريقي على الرغم من الألم الذي شعرت به في حلقي. إنني اعتقدت أنني أفهمه بحكم تعاملي مع مئات الرجال من أمثاله، لكن يبدو أنني كنت مخطئة، فكلما وجَّه نظراته نحوي، أثار ذلك إحساسًا مقلقًا داخلي. بدا الأمر كأنه يستطيع إدراك أكثر كثيرًا مما كنت على استعداد للكشف عنه.

ولم أكن غاضبة فقط لأنه قد ضرب ترو، بل كنت غاضبة أيضًا لأنه اكتفى بالمشاهدة عندما ضربني آرثر.

همست: «أعلم أنك كنت هناك في الزقاق تراقبني، عندما ذهبت إلى المرفأ لمقابلة آرثر».

زمَّ شفتيه لحظة واحدة قبل أن يتمتم: «لم يكن من المفترض أن أكون هناك».

سألته: «ماذا تقصد؟».

قال إزرا فجأة، بصوت خافت ما عكس حرصه على ألا يسمعه أحد: «اسمعيني، فسأقول هذا مرة واحدة فقط. إن مفهوم العائلة يحمل بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص مفهومًا مختلفًا يا برين».

عضضت على شفتي السفلى بشكل مؤلم؛ لم يكن إزرا قد نطق اسمي من قبل قط، أنا متأكدة من ذلك؛ إذ لم أشعر بذاك الشعور تجاهه من قبل. وكنت أراه يتسم بالبرود والجفاء والقسوة. لكن يبدو أنه ذو شخصية معقدة لا يستطيع أحد سبر أغوارها قط.

عاد انتباهه إلى القفل والتقط الدبوس قائلًا: «والآن، لنحاول مرة أخرى».

الثالث عشر

يبدو أن مصمم الأزياء قد عمل طوال الليل دون توقف، فقد أتى إلى المنزل بعد الفطور، ومعه مجموعة هائلة من السترات والسراويل غير المكتملة. وظهر شعره مبعثرًا من تحت قبعته، وأحاطت بعينيه هالات مظلمة من أثر قلة النوم، ولكن بمجرد أن سمحت له بالدخول إلى المكتبة بدأ العمل.

كانت الخياطة الأولية على طول حواف الملابس مجرد إجراء مؤقت حتى ينتهي مصمم الأزياء من جميع الخطوات الأساسية ثم يستبدل بها خياطة دائمة. فلم يعتمد مصمم الأزياء قط على القياسات فقط، إذ كان يجب أن يرى القماش ملفوفًا على الجسد، حتى يبدأ خياطة الثوب بشكل نهائي.

لاحظت الطريقة التي تجولت بها نظراته في الغرفة، وهو يرتب أغراضه. ربما قد اعتاد العمل في المنازل الأكثر رقيًا لدى أعضاء النقابة، وكان يرى أن هذا المنزل أقل من منازلهم كثيرًا، لكنه لم يكن ليرفض جني العملات، كان سيغدو أحمق إن ترك كبرياءه تقف عائقًا أمام جنيه مبلغًا كبيرًا من المال. وتساءلت الآن عما إذا بدأ بالفعل تداول بعض الشائعات المكتومة في منطقة حي التجار عن هنريك، وأدركت أنه إذا نجح سايمون في إبقاء دعوته سرية، فمن غير المرجح أن تظل سرًّا فترة أطول.

قال وهو يمسك بأصغر سترة في كومة الثياب: «سأبدأ بالصبي أولًا»، إذن سيبدأ بترو. خرجت من غرفة المكتب، وناديت ترو باسمه، فسمعت صوت خطى تهبط الدرج، وسرعان ما دخل ترو من الباب.

حاولت ألا أحدق إليه عندما وصل بعد الفطور لمساعدة هنريك في ورشة العمل، لكن كانت هناك كدمة حول إحدى عينيه، وكان خده متورمًا، وخمنت أن هناك جرحًا سيئًا داخل فمه أيضًا؛ حيث كان يمضغ البسكويت الذي أعطته إياه سيلفي على جانب واحد فقط من فمه الصغير، لكنه لم يشتكِ، ولم أرغب في إحراجه بلفت الانتباه إليه. بينما من ناحية أخرى، أخذ مصمم الأزياء يتفحص وجه ترو بعينين ثاقبتين، بينما كان الصبي يفك عرى سترته، لكن أيًّا كان ما فكر فيه في تلك اللحظة، فقد امتنع عن قوله.

وقف ترو أمام النافذة ورفع ذراعيه على كلا الجانبين حتى يستطيع مصمم الأزياء أن يُلبسه الصديرية الجديدة الخاصة به. وعلى الرغم من خياطته غير المكتملة، كان رائعًا حقًّا؛ حيث احتضن القماش جسد ترو الضئيل بأناقة وبراعة ما جعله يبدو أكبر من عمره. ثم حان دور السترة، بدا ترو مرتبكًا إذ كانت طويلة بعض الشيء، فأخذ يدفع ذيلها بعيدًا عن رجليه.

قال بينما كان يُعدل الياقة أسفل ذقنه: «هذه الملابس تبدو مضحكة».

داعبته قائلة: «أنتَ بالتأكيد لا تبدو مضحكًا، بل أنت وسيم».

أبعدت يديه وزررت قميصه بنفسي لكيلا يلطخ قماشه الأبيض. وبدت عيناه أقل تورمًا في الضوء مما كانت عليه في ورشة العمل، لكن يبدو أنها كانت لا تزال تسبب له بعض الألم. انتظرت حتى غادر مصمم الأزياء غرفة المكتب قبل أن أتحدث إليه أخيرًا بصوت خفيض: «يجب ألا تسمح لهم بمعاملتك بهذه الطريقة، فهمت؟».

نظر ترو إليّ متحيرًا وهو يهز إحدى ذراعيه ليرى مدى طول كُم القميص وسألني: «أي طريقة تقصدين؟».

أجبته: «أقصد الطريقة التي عاملك بها إزرا أمس»، وأشرت بذقني نحو الردهة حيث ترددت أصداء مطرقة إزرا في جميع أنحاء المنزل. فقد رأيته يغادر المنزل أمس بعد

انتهائنا من درس فتح الأقفال، ولم يعد قبل صباح اليوم تقريبًا.

قال ترو بينما كان لا يزال يبدو متحيرًا: «لكنني قد نسيت أن أتفحص الأرقام».

حدقت إليه بدهشة قبل أن أتنهد مستسلمة، ثم أدرته يمينًا ويسارًا لأتحقق من ملاءمة مقاسات كتفيه. يبدو أنهم جميعًا يتسمون بالحمق والبلاهة، فحتى ترو نفسه لم يكن غاضبًا مما فعله إزرا، وتذكرت حينها ما قاله لي إزرا في الليلة الماضية، عندما كنا في غرفتي، فانتفض جسدي، إن مفهوم العائلة يحمل بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص مفهومًا مختلفًا يا برين.

سألته بحذر شديد: «كيف كان رد فعل والدك عندما رأى وجهك؟».

هز كتفيه بلا مبالاة قائلًا: «أخبرني بأن أتفحص الأرقام بدقة في المرة التالية».

سألته بتهكم: «ووالدتك؟».

كان هذا هو السؤال الوحيد الذي لم يرغب في إجابته، وحدق على الفور خارج النافذة.

وعلى الرغم من أنها كانت المرأة الأخرى الوحيدة في المنزل، باستثناء سيلفي، لم توجِّه لي كلمة واحدة في المرات القليلة التي تقابلنا فيها. ولقد شعرت بوجود توتر بين أنثيليا وباقي أفراد العائلة، وإن كان ذلك في إطار مهذب. فقد كانت هناك مسافة ملحوظة بينهم بالفعل. ولم تكن ساريا قد التقت أنثيليا من قبل مطلقًا، وكذلك لم تقابل ترو أو جيمسون، ولذلك لم أكن متأكدة إذا كانت أنثيليا على معرفة بوالديَّ. لكنها تزوجت فردًا من عائلة روث، وكان هذا جنونًا من نوع آخر.

أدرت وجهه تجاهي مجددًا، وقلت له: «أتعلم أنني لم أقابل والديَّ قط؟» وأضفت وأنا أترقب رد فعله بحرص: «كنت في عمر جيمسون تقريبًا عندما توفيا».

رد بلطف: «أعلم ذلك».

قلت له: «أعتقد أنك قد سمعت العديد من القصص عنهم أكثر مني، ربما تستطيع أن تخبرني ببعضها؟».

همس ترو محاولًا التحدث من جانب فمه، كي لا يلحظه أحد، وبدا عليه الألم حينها: «هو لا يحب أن نتحدث عن العمة إيدن».

رفعت حاجبيَّ في دهشة كبيرة، وأنا أسأله: «تقصد مَن؟ هنريك؟».

أومأ بالإيجاب.

لم أسمع هنريك يذكر اسم والديَّ قط، ولا مرة واحدة. نظرت إلى وجهه مرة أخرى ليخبرني بالمزيد.

أضاف: «ولا يحب سماع اسم أوستر أيضًا».

سألته وأنا أراقب وجهه: «حفيد ساريا؟».

أومأ ترو برأسه، ثم قال هامسًا: «لقد كان يعيش في غرفتك، لكنه هرب عن طريق النافذة منذ وقت طويل ولم يعد قط».

هو إذن من كان يتحدث عنه مورو عندما أخبرني بأن من سكن غرفتي قد رحل إلى الأبد. وفي المرات القليلة التي تحدثت فيها ساريا عن أوستر، بدا لي كأنه قد مات، لكنني أدركت أنها لم تقل ذلك قط. وعدت بذاكرتي إلى البقعة الخاوية بين اللوحات المعلقة على جدار غرفة المكتب، فربما اللوحة المفقودة كانت له.

شعرت بأنني لو ضغطت أكثر على ترو، فسيخبرني بالمزيد من المعلومات، لكنني لم أرغب في أن أسبِّب له المزيد من المشكلات مع الآخرين. وربت كتفيه، وأنا ألقي نظرة أخيرة على بدلته.

انفرجت أساريره فجأة وهو يسألني: «هل انتهى دوري؟».

أجبته وأنا أبتسم: «نعم، انتهى دورك».

خلع ترو الصديرية والسترة وخرج مسرعًا من الغرفة، ثم سمعت صوت باب الورشة يُفتح ويُغلق مجددًا. ووقف مورو منتظرًا دوره أمام غرفة المكتب، بينما كان يقرأ مجموعة من الأوراق في صمت. كان شعره يبدو دائمًا أشعث قليلًا، وسرواله عادة أقصر مما ينبغي، ومع ذلك كان النظر إليه ممتعًا دائمًا. كان باستطاعتي أن أرى الكثير من الشبه بينه وبين أخوالي الثلاثة، وتساءلت إذا كان هناك بعض الشبه بينه وبين أمي، لكنني لم أعرفها بما يكفي لأتأكد من ذلك.

قلت وأنا أشير إليه بالدخول: «أنت التالي».

كان ما زال يقرأ عندما نظر إليَّ وهلة قائلًا: «لحظة واحدة، عليَّ أن...»

قاطعته وأنا أرفع أحد حاجبيَّ قائلة: «الآن».

وضع الأوراق على مكتب هنريك متأففًا، ثم تقدَّم نحونا بينما كان مصمم الأزياء يحمل السترة الخضراء بالفعل، حيث بدأ مورو ارتداءها على مضض، وبمجرد أن انتهى. أخذت أعدلها بيدي ثم أعطيت مصمم الأزياء إيماءة موافقة، لقد بدا رائعًا حقًّا في الصوف الأخضر.

تمتم قائلًا: «ما زلت لا أعرف لِمَ نحن بحاجة إلى ارتداء ثياب جديدة، ما الفرق الذي سيحدثه ذلك؟ ما دمنا نملك ما يكفي من الأموال، فنحن جيدون بما يكفي».

أجبته: «ستصنع الثياب فرقًا كبيرًا بكل تأكيد، فأولئك الناس ليسوا بحاجة إلى المزيد من الأموال، فما يهمهم حقًّا هو المظهر. فإن لم تبدُ مثلهم فلن تنتمي إليهم. ولن يقبل أعضاء

النقابة انضمام عائلة روث إليهم، ما لم يروا أن باستطاعتنا التصرف مثلهم والاندماج معهم».

بدا أن ردي لم يعجب مورو، فعبس، وأخذت أتفحص وجهه، ثم سألته مخمِّنة: «ألا تريد الانضمام إلى النقابة؟».

أجاب: «لا أعلم، أتريدين ذلك؟»

فاجأني سؤاله؛ فلم يسألني أحد في هذا المنزل عن رأيي من قبل، لكن مورو حدَّق إلى عينيَّ منتظرًا إجابتي كأنه أراد أن يعرفها حقًّا، اعترفت قائلة: «لا أعرف، أعتقد أنني ما زلت لا أفهم ما يحدث بشكل كافٍ حتى أستطيع أن أكوِّن رأيًا عن حصول هنريك على خاتم التاجر في منطقة أخرى».

أضاف: «لكنك تعرفين معلومات عن النقابة وعملها».

أجبته بلا مبالاة: «تعمل ساريا عن قرب مع النقابة في نيمسمير، لكنها ليست تاجرة. حتى هم لا يريدون أن يتعاونوا بشكل كامل مع أي فرد من عائلة روث، فهم لا يرون أنهم يمتلكون المقومات لذلك».

قال: «لقد فعلها سايمون بشكل ما».

سألته في دهشة: «تقصد صانع الساعات؟».

أجابني: «نعم، لقد كان يعمل في التجارة نفسها في منطقة نورث إند، ولم يكن من نسل التجار، ومع ذلك استطاع أن يشق طريقه إلى النقابة ويكون عضوًا فيها».

قلت: «لكن يبدو عليه الفخامة كأنه عضو متأصل ذو نسب رفيع».

قال: «ربما يبدو مثلهم الآن، لكنه ما زال ذاك اللقيط نفسه الذي نشأ في نورث إند. لا يستطيع أحد أن يعارضه أبدًا، فعدد جثث معارضيه التي ألقاها في الماء يفوق كثيرًا عدد أفراد عائلتنا كلها».

اتسعت عيناي من وقع كلماته، وتصلبت يداي على طيات سترته.

قال مورو ساخرًا: «لا تخبريني بأنني لا يحق لي أن أقول ذلك، فهي معلومات معروفة للجميع، وليست سرًّا على الإطلاق».

حدقت إليه بغضب، وسألته: «كيف إذن حصل هنريك على خاتم التجارة في سيروس؟».

أجاب مورو وهو يجذب كمي القميص لأسفل ليتحقق من طولهما، وبدا مندهشًا من ملاءمة القياسات له: «لقد حالفه الحظ».

عاودت سؤاله: «وكيف حدث ذلك؟».

صمت قليلًا، ثم نظر وراءه ليتأكد من أن مصمم الأزياء لا يسمعه: «لقد أراد شخص أن ينفذ له شيئًا ما، وكان ذلك في وقت مناسب للغاية، وحصل مقابل تنفيذه ذلك على خاتم التجارة في سيروس، لكنني لا أعلم إذا كانت ستواتيه فرصة كهذه مرة أخرى».

سألته: «ولماذا إذن تجاريهم في كل ذلك؟».

ضحك ساخرًا مرة أخرى، وقال: «إن هنريك لا يهتم برأي أحد هنا، وإذا فعل، فستكون مفاجأة كبيرة بالنسبة لي. فلا تجري الأمور هنا على هذا النحو، فهو لا يستمع لأحد سوى إزرا».

أردت أن أسأله عن قصده، لكنني كنت قد بدأت أخاف من تخطي الحدود في هذا المنزل؛ فقد أصيب ترو بعين متورمة نتيجة خطأ في تسجيل الأرقام، فماذا سيحدث لي إذا كانت

أسئلتي أكثر مما ينبغي؟ لكنني سألته على أية حال: «ألهذا وقفت متفرجًا أمس عندما ضرب إزرا ترو؟».

نظر مورو إليَّ بينما ضاقت عيناه خلف شعره المموج.

أخذت أهندم له سترته بشدة أكثر من اللازم، وقلت له: «كان يجب عليك أن تفعل شيئًا ما».

اختفى المرح من عينيه، وقال: «لقد أسداه إزرا معروفًا يا برين».

تراجعت خطوة إلى الوراء وأنا أنظر إليه بعدم تصديق، يبدو أنهم جميعًا يتسمون بالبلاهة حقًّا، ثم سألته في دهشة: «ماذا يعني ذلك بالضبط؟».

مال برأسه إلى أحد الجانبين قليلًا، وقال بصوت خفيض: «إذا لم يلكمه إزرا بعض لكمات، لكان هنريك سيفعل به أسوأ من ذلك كثيرًا، لا تتسرعي في الاستنتاجات بخصوص أمور لست على دراية بها».

ربط آخر زر في السترة، بينما كان مصمم الأزياء يدلف إلى الغرفة، وتراجعت إلى الخلف لأفسح له المجال حتى يقوم بتثبيت الدبابيس في مواضع القماش التي تحتاج إلى تعديلات.

لقد كان محقًّا عندما قال لي أنت لا تعرفين شيئًا.

هذا إذن ما كان يعنيه إزرا، لقد كان يحمي ترو بتعامله مع خطئه قبل أن يعاقبه هنريك بشكل أكثر قسوة، وقد عاد معه إلى المنزل ربما ليقوم بالتبليغ عن ذلك الخطأ بنفسه، وليوضح أنه قد تعامل معه.

لم يخطر لي أن أتساءل عن السبب الذي جعل مورو يذهب إلى إزرا بتلك المشكلة، بدلًا من الذهاب إلى هنريك مباشرة؛ لقد ذهب إلى إزرا لكي يحمي ترو مما كان سيفعله به هنريك.

وتأكد إزرا من ترك دليل على معاقبته إياه. ولذلك السبب لم يغضب ترو منه، وربما للسبب نفسه أيضًا لم يبدُ على والده الضيق مما حدث، بل ربما شعر بالامتنان لإزرا.

هناك خط رفيع يفصل بين القواعد والعواقب، وأحيانًا ما يكون العنف في هذا المنزل شكلًا من أشكال الرحمة.

الرابع عشر

في الأيام التي سبقت العشاء المنتظر لدى سايمون، كان أخوالي مطيعين تمامًا؛ فقد كانوا حريصين كل الحرص على تنفيذ أوامر هنريك، الذي بدا على الرغم من ذلك طبيعيًّا بعض الشيء، فقد لاحظت بعض التوتر البادي عليه كأن العشاء المنتظر قد ألقى بثقله على كتفيه فجعله متوترًا قلقًا.

وقفنا جميعًا حول الطاولة في صمت حتى سحب هنريك مقعده فتبعناه، وتبادلت أنثيليا النظرات مع نويل، بينما كانت تحاول جذب جيمسون المتململ إلى حضنها قبل أن يساعدها نويل ويأخذ الصبي منها، توقف الصبي عن الحركة في حضن والده، واكتفى بوضع إصبعه في فمه بهدوء مفاجئ، فعلى الرغم من أن أيدي هؤلاء الأفراد قد تكون ملطخة بدماء الآخرين معظم الوقت، ولديهم إستراتيجيات غريبة قد لا أفهمها، لكن كان هناك نوع من الحنان بينهم، ما جعل ما حدث مع ترو محيرًا للغاية بالنسبة إليَّ. فقد كنت أرى كل هذا نوعًا من أنواع الجنون، لكن بالنسبة إليهم كان هذا مجرد أسلوب حياة.

كنت أضع منديل المائدة الخاص بي على فخذي عندما اصطدمت يدي بالطاولة لدى سماعي هنريك يناديني باسمي.

بدأ كلامه وهو يأخذ نفسًا عميقًا بدد به الهدوء الذي ساد الغرفة منذ دقيقة، وقال: «والآن يا برين. ما الذي يجب أن نتعلمه من أجل هذا العشاء؟».

حدقت إليه في تعجب، فلم أكن أفهم ما يقصد.

قال بنفاد صبر: «العشاء، ما الذي يجب أن نعرفه كي لا نتصرف كالحمقى خلاله؟».

شهقت قائلة: «آه، فهمت» أخذت أبادله هو والآخرين النظرات، وأشعر بأنني أتقلص من أثر نظراتهم المثبتة عليَّ، فحتى إزرا كان ينظر إليَّ في انتظار إجابتي. ازدردت ريقي وأنا أحدق إلى الطاولة، ثم قلت: «أولًا، مناديل المائدة»، أومأ هنريك برأسه، وسأل: «حسنًا، ماذا عنها؟».

أجبته: «جميعكم تتركونها على المائدة بينما تأكلون، في حين أنه يجب أن تضعوها بعناية على أفخاذكم إلى أن تنتهوا من تناول الطعام».

نفذ ما قلته بالضبط، ووضع منديل المائدة على فخذه بعناية، ثم قال: «حسنًا، وماذا أيضًا؟».

قلت: «الخبز، أنتم تستخدمون أيديكم لتقطيعه بدلًا من السكين».

تمتم مورو معترضًا: «يبدو هذا تافهًا»، لكنه التزم الصمت فور أن رمقه هنريك بنظرة غاضبة.

وتابعت: «يجب ألا تضعوا مرفقيكم على المائدة»، ثم ألقيت نظرة خاطفة إلى إزرا الذي كان كالمعتاد يضع كلا مرفقيه بجوار طبقه. وعندما لم يتحرك أشار إليه هنريك بذقنه آمرًا إياه باتباع التعليمات، فأذعن له متأففًا، واستند بظهره إلى مقعده.

وأردفت: «وجميعكم كذلك تأكلون بسرعة كبيرة، وتتناولون قضمات كبيرة، بل يجب ألا تنهوا أطباقكم تمامًا، وإلا سيظن المضيف أنكم تركتم المائدة وأنتم جائعون».

كان هنريك يستمع لي بانتباه شديد، واستطعت أن ألحظ تفكيره في كل ما أقوله، ومراجعته الخطوات والتعليمات في رأسه. لكن ظل هناك العديد من العمل الذي يفوق تعلُّمهم آداب مائدة الطعام. فإذا أرادوا الانضمام إلى النقابة، فإن كل ما كانوا يفعلونه، ويقولونه يحتاج إلى التغيير.

واصلنا العمل طوال وجبة العشاء بينما كانت سيلفي تراقبنا في صمت من الممر المقابل لغرفة الطعام، وهي تحاول كتم ضحكاتها بطرف مئزرها. وقد توردت وجنتاها وهي تراقبني مستمتعة بي وأنا أصوِّب أخطاءهم. ولدهشتي، لم يجادلني أحد، حتى أنثيليا أطاعت توجيهاتي وساعدت ترو عندما كان يحاول جاهدًا حمل سكينه في اليد المناسبة.

بعد العشاء اختلط الدخان المنبعث من الغليونات التي يدخنها أخوالي بالهواء، مشكلًا هالة ضبابية حالمة حول كل الأشياء. وحينها بدأت أرى الجمال في هذا المنزل؛ إذ يقبع تحت جدرانه غير المستوية والمغطاة بورق الحائط، وألواح أرضيته التي تصدر صريرًا، تاريخ طويل من القصص والحكايات. وبينما كان النهار في منزل عائلة روث باردًا ومظلمًا، كان الليل يعيد الدفء والحياة إليه بفضل ضوء الشموع الذي يتلألأ في جميع أرجاء المنزل، فيبدد وحشته إلى حد كبير.

تردد صدى قِطع النرد على منضدة المطبخ الطويلة في الردهة، تلته صيحات أخوالي وأبنائهم، وعندما ذهبت لأقف في مدخل المطبخ رأيتهم ملتفين حول القطعة الخشبية الكبيرة المستطيلة المخصصة لتقطيع الطعام، وقد أخلوها ونظفوها من أجل اللعب.

وامتلأت المنضدة الممتدة على طول الجدار بأطباق من كعك مربى العنب وأرغفة صغيرة من خبز الهيل. في نيمسمير كانت هذه الحلوى تعتبر حلوى متواضعة، ولم يفضلها أحد أبدًا على المعجنات الفخمة المحشوة بالكاسترد، والشيكولاتة الفاخرة التي تزين نوافذ المتاجر الفخمة، لكنها تعد كنوزًا هنا.

أتاح صوت النرد لي شعورًا بالراحة والألفة، فقد كانت لعبة «ثري ودوز» هي المفضلة لدى ساريا وجميع التجار في نيمسمير. إذ كانوا يجتمعون في صالات وقاعات المنازل الكبرى مع مشروباتهم المفضلة ويلعبون حتى وقت متأخر من الليل. وكان ذلك هو وجه الشبه الوحيد بين أفراد عائلة روث وأعضاء مجتمع النقابات. فقد كانت تلك اللعبة التي تعد نوعًا من المقامرة يرفضها المجتمع ويجرِّمها، لكن أعضاء المجتمعات الراقية يجدون فيها متعة سرية. فكانوا يلعبون جميعًا ويربحون أحيانًا، ويخسرون أحيانًا أخرى، لكن كل ذلك كان

يجري ليلًا بين جدران المنازل المغلقة فقط، فمثل هذه الأشياء لا يمكن أن تحدث علنًا في وضح النهار.

التقط نويل قطع النرد الثلاث، وأطبق عليهما يده ثم غمز بعينه لأنثيليا التي كانت تقف أمام الموقد الحديدي الضخم، وعندما ابتسمت أشرق وجهها، وبدت أصغر سنوات من عمرها. رمى نويل قطع النرد، فاصطدموا بالحائط قبل أن يتناثروا على سطح المنضدة. وحبس الجميع أنفاسهم ثم انفجروا بالصراخ مرة أخرى، وتأوه نويل، وتناول قطعة من الكعك ليهدئ من وقع خسارته.

لم أكن أعرف لِمَ لا يتناول أفراد عائلة روث الحلوى في غرفة الطعام كأي عائلة طبيعية أخرى، لكنني افترضت أن سبب ذلك أنهم لم يكونوا طبيعيين. فبعد كل عشاء عائلي كنت أجدهم ينطلقون إلى المطبخ، كما تنطلق العائلات في نيمسمير إلى الصالون.

اتكأ هنريك إلى الحائط عاقدًا ذراعيه على صدره، بينما كان يستمع إلى ترو وهو يروي له شيئًا ما. لم أرَ من حيث كنت أقف تلك الكدمة بدت على خده في الآونة الأخيرة، فسعدت بذلك، وبدا مثل أي صبي آخر بعينيه الواسعتين المشرقتين. وكان يحرك يديه في الهواء وهو يصف حدثًا ما وقع عند أحد أرصفة الميناء.

عندما رآني هنريك أشاهدهم من المدخل، تحرك مفسحًا لي مكانًا بينهم عند الحائط، فأخذت كعكة من الصينية ووقفت بينهم. وعندما ضحك ترو تبعه هنريك أيضًا، وشعرت بالغرابة لرؤية خالي بهذه الطريقة. لقد اعتقد إزرا ومورو أنه من الأفضل ضرب ترو على وجهه، بدلًا من إرساله إلى هنريك الذي كان سيعاقبه عقابًا شديدًا، لكن خالي كان شخصًا مختلفًا في ذلك المطبخ. بدا الأمر كأنهم يتنفسون الصعداء بعد انتهاء العشاء في الغرفة، ويشعرون بمزيد من الراحة في المطبخ، ويتصرفون بطريقة تلقائية.

كان كازيمير يحمل جيمسون بين ذراعيه، ويتحدث من فوق شعره الداكن المشعث إلى مورو حتى أصبح شديد التململ، ولم يعد بإمكان كازيمير حمله، فسمح له بالانزلاق إلى

الأرض، وعندما مد يديه الصغيرتين إلى حافة المنضدة ليلتقط قطعة من الكعك أبعدته سيلفي برفق.

راقبها هنريك بطرف عينه حتى استدارت، فالتقط كعكة واحدة من الصينية، ومررها خلسة إلى جيمسون. اتسعت عينا الصبي فرحًا، ودفعه هنريك برفق إلى الردهة ليأكلها بعيدًا. لم أستطع إلا أن أبتسم عندما انطلقت موجة أخرى من الضجيج، وملأت أرجاء المطبخ، بينما كان مورو يجمع النرد وهو يصيح.

كان هناك تناغم فريد بين أفراد هذه العائلة، وإيقاع مميز يشبه نبضات القلب. فإذا نظرت إليهم من الخارج تجدهم قساة، وربما حسبتهم وحشيين أيضًا، لكنني بدأت أرى ما يكمن وراء أقنعتهم الوحشية هذه.

سألني هنريك وهو يستدير متكئًا بكتفه على الحائط المجاور لي: «هل أنت مستعدة للغد؟».

أجبته على الفور تقريبًا: «نعم»، وعلى الرغم من أنني لم أكن متأكدة من مدى صحة ذلك، فإنني لم أرغب في التفكير كثيرًا في الأمر.

ابتسم هنريك مستحسنًا إجابتي، وقال بنبرة لطيفة للغاية: «كانت إيدن هكذا أيضًا، فلم تكن تعرف الخوف قط».

أخذت أتفحصه من كثب؛ فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمعه فيها يتحدث عن والدتي، وقد جعلني ذكره اسمها على شفتيه للمرة الأولى أشعر بالارتباك بعض الشيء، وقلت له عندئذ: «لكنني أشعر ببعض الخوف أحيانًا».

لكنني لاحظته ينظر شاردًا نحو الردهة المظلمة، ولم يعطني أي إيحاء بأنه سمعني وبدا كأنه قد سرح مع أفكاره أو ربما ذكرياته.

لقد توفي والدي بعد وفاة جدي بفترة قصيرة، وكان هنريك هو المسئول عن المهمة التي أدت إلى وفاتهما، ربما لذلك لم يكن يحب أن يتحدث عنهما.

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أستجمع شجاعتي وأسأله: «لقد رأيت بيت الشاي الصغير الخاص بأمي في حي التجار عندما ذهبت إلى مقابلة مصمم الأزياء».

طرفت عينا هنريك بضع مرات قبل أن يركزهما عليّ قائلًا: «حقًّا؟». وفجأة بدا متوترًا إلى حد ما وخشيت أن أكون قد ارتكبت خطأ لدى ذكري هذا الأمر.

سألته: «منذ متى وهو مهمل بهذا الشكل؟».

وضع يديه في جيبه، وبدا أكثر توترًا، ثم قال: «منذ سنوات».

لقد فهمت الآن لما قال ترو إن هنريك لا يحب التحدث عن إيدن، فهيأته قد تغيرت تمامًا، وأعادني بالذاكرة إلى الرجل نفسه الذي قابلته أول مرة عندما وصلت إلى باستيان، حيث بدت الصرامة والقسوة على وجهه.

سألته بنبرة أكثر نعومة: «لماذا لم تفتتحه قط؟».

قال هنريك بعبوس: «لقد كان بيت الشاي هو مشروع إيدن عندما قررت أن تتولى عملًا خاصًّا بها في العائلة، وقد ساعدتها على الرغم من أنني رأيت أنها فكرة سخيفة، لكنني اشتريته لها هدية زفافها. وبعد ذلك بدأت هي وتوملين تجهيزه باستخدام نقودهما الخاصة».

«ولم اخترتم بيت الشاي بالتحديد؟ هل كان غطاءً لعمل آخر غير قانوني؟».

هز هنريك رأسه بالنفي: «كلا، كان مجرد بيت شاي يجتمع فيه الناس لتناول الشاي بشكل أساسي، فقد أرادت مثل ساريا أن تضم إلى العائلة مشاريع أكثر صدقًا واحترامًا».

راقبت عينيه في محاولة لأن أقرأ ما يدور داخله حقًّا، ورأيت أنه كان يشعر بالألم لدى حديثه عنها. وربما سعيه للحصول على خاتم التاجر لإضفاء صبغة شرعية على عمل العائلة كان محاولة منه لتحقيق أمنية إيدن بطريقة ما.

أضاف هنريك: «بعد أن رحلت إيدن، لم يكن لافتتاحه أي معنى».

سألته: «ولِمَ لَمْ تبعه إذن؟».

شعرت بتوتره يزداد حدة، فكتمت أنفاسي. كان الأمر مع هنريك شديد التعقيد، فلم أكن على دراية بالحدود التي يجب ألا أتخطاها كي أتجنب تقلُّب مزاجه، فهناك خط رفيع بين لطفه وغضبه.

غامرت قائلة: «لقد كنت أفكر في أنها ربما تكون فكرة جيدة، فقد يكون بيت الشاي ذلك هو المدخل المثالي لعائلة روث للانضمام إلى النقابة».

نفث غليونه، وترك الدخان يتسرب ببطء من بين شفتيه.

أضفت: «أكاد أجزم بأنه لن يوجد تاجر في باستيان لا يعقد بعض اجتماعاته في بيت الشاي هذا، فمكانه مميز بالفعل. وإذا كنت تريد الحصول على خاتم التاجر، فقد تكون هذه خطوة أولى جيدة».

سألني: «هذا ما تعتقدينه، أليس كذلك؟».

أجبته: «بلى».

أضاف: «أعتقد أنك تسوِّقين لفكرة امتلاك حصة خاصة بكِ في عمل العائلة».

قلت له: «ولِمَ لا؟ فكل فرد في العائلة لديه حصته الخاصة من عمله الخاص».

سكت هنريك قليلًا، ثم قال مصححًا: «كل فرد في العائلة قام بما أهَّله لأن تكون له حصة خاصة في عمل العائلة».

ما قاله ضمنيًّا هو أنني لا أستحق أن تكون لي حصة خاصة في عمل العائلة بعد، ولم يكن مخطئًا في ذلك، لكنني لو استطعت أن أنجح في حفل العشاء من خلال إقناع سايمون بمنحه رعايته، فربما يتغير كل ذلك.

انصرف عائدًا إلى المطبخ دون أن ينتظر أن أكمل كلامي، موضحًا أن المحادثة قد انتهت، لكنني أدركت أنه يفكر في الأمر، فحصوله على خاتم التاجر يعني حصوله على كل شيء. وإذا أراد أن ينضم إلى النقابة، فعليه أن يتوقف عن التفكير مثل مجرم يجمع المعلومات من المقاهي القذرة، ويبرم الصفقات المشبوهة، ويسرق بيانات التجار من دفاتر الحسابات. أو على أقل تقدير، كان بحاجة إلى تحسين قدرته على إخفاء قيامه بهذه الأنشطة.

سألني: «هل نحن حقًّا مستعدون للغد؟».

أومأت: «نحن على أتم استعداد».

سحب نفسًا أخيرًا من غليونه قبل أن يراقب الدخان الرمادي وهو يخرج من فتحتي أنفه. أدركت أنه إذا أراد هنريك لهذه العائلة أن تتغير حقًّا، فعليه أن يغير نفسه أولًا. بيد أنني لم أكن أعرف كيف أجعله يفهم ذلك. وكانت مفاتيح شخصية هنريك تختلف عن أي رجل آخر، وكان عليَّ أن أتحلَّى بالصبر حتى أتمكن من فك شفرته.

قالت سيلفي بنبرة هادئة وهي تضع آخر صينية على المنضدة: «ها هي». كانت تضم كومة من فطائر الفاكهة ذات قشرة ذهبية، وتأخذ شكل نصف دائرة. وبمجرد أن وضعتها على المنضدة الجانبية انضم هنريك إلى الآخرين والتقط النرد، وهزه في قبضة يده.

تجمعت العائلة حول منضدة المطبخ كما تتجمع الفراشات حول النار، وقام كازيمير بدورة أخرى من صب شراب الشعير. اختفت أصواتهم تدريجيًّا بينما انسحبت إلى الردهة ذات

الإضاءة الخافتة متتبعة الممر الضيق المؤدي إلى ورشة العمل، ثم طرقت الباب ثلاث مرات قبل أن يُفتح.

وقف إزرا عند مدخل الباب، وأخذ ينظر خلفي كأنه كان يتوقع أن يكون هناك شخص آخر برفقتي، ولما لم يجد أحدًا، سألني: «ماذا هناك؟».

مددت يدي في جيب ثوبي، وأخرجت دبوسي شعر، ثم رفعتهما أمامه في إجابة عن سؤاله، وبمجرد أن وقعت عيناه عليهما فتح لي الباب، ودلف إلى الداخل، فتبعته بعد أن رددت الباب خلفي حتى سمعته ينغلق.

عاد إزرا إلى السندان ليكمل عمله في تشكيل الأحجار، فالتقط المطرقة من فوق الطاولة، كان يصنع ما بدا أنه سوار معصم بزخارف رقيقة ودقيقة على طول حوافه.

ارتفع صياح في الأسفل، وبدا أن هنريك كان مسيطرًا على اللعبة محققًا الفوز. سألت إزرا حينها: «ألن تذهب إلى اللعب معهم؟»، اقتربت من الجانب الآخر من الطاولة، حيث كان الصندوق المغلق ينتظرني. لقد انتهزت كل فرصة للتدرب على فتح القفل، وأمضيت ليالي متأخرة وصباحات مبكرة في ورشة العمل لصقل مهارتي في فتحه.

نظر إزرا إلى الباب المغلق ثم أجاب: «كلا».

قلت له مازحة في محاولة لتخفيف التوتر بيننا: «لقد رأيت أحجار نرد على التسريحة في غرفتك». شعرت ببعض التغير في مشاعري تجاهه، فلم أعد أراه ذلك الرجل الهمجي المتوحش. فبغض النظر عن رفضي ما فعله مع ترو، فإنني قد أدركت أن ما فعله لم يكن بدافع الوحشية. ومع ذلك لم يغير إزرا معاملته معي، فقد كان لا يزال محافظًا على وضع مسافة كبيرة بيننا.

لكنه على الرغم من ذلك أضاف بصوت هادئ: «لقد خسرت الكثير على طاولة النرد».

سرت القشعريرة في جسدي من الطريقة التي قالها بها، فلم يكن مجرد تعليق عابر، ولا مزحة تخص خسارة نقود، بل كانت كلماته مثقلة بحمل ضخم، وحقيقة مؤلمة بين طياتها.

أملت رأسي قليلًا، وقلت له: «كان بإمكانك أن تخبرني؟».

سألني: «بماذا؟».

قلت: «بسبب ضربك ترو. لقد تركتني أظن أنك ضربته بدافع القسوة فقط».

بحث عن المطرقة الصغيرة في جيب مئزره حتى وجدها، ثم عاد ليجلس على مقعده، وقال: «وما أهمية الأمر؟ فقد ضربته في النهاية».

قلت بنبرة عالية: «لا، بل إنه مهم».

حدق إليَّ إزرا دون أن يتحدث، تاركًا الصمت يسود أرجاء الغرفة. كان يتأرجح دائمًا بين الصدق والخداع، وكان من الصعب تحديد الجانب الحقيقي منهما في شخصيته.

سألته مجددًا»: «ماذا كنت تقصد عندما قلت إنه لم يفترض بك أن تكون عند آرثر؟».

تنفس إزرا بعمق حتى ضاق قميصه على صدره من تحت المئزر، ثم قال: «لو خرجت الأمور عن نطاق السيطرة كنت سأتدخل بكل تأكيد».

أردت أن أقول له إن الأمور قد خرجت بالفعل عن نطاق السيطرة، وإن الكدمة التي على وجهي هي خير دليل، لكنني ذكّرت نفسي بأنه قد نشأ في عالم يختلف فيه مفهوم الخطر، ومعنى خروج الأمور عن نطاق السيطرة.

سألته مرة أخرى بصوت أكثر هدوءًا: «ماذا كنت تقصد عندما قلت إنه لم يفترض بك أن تكون عند آرثر؟».

استغرقه الأمر دقيقة قبل أن يقرر أن يرد، ثم قال أخيرًا: «لقد أراد هنريك أن يدفع بآرثر خارج منافسة الحصول على رعاية سايمون، لذلك أرسلك إلى هناك وكان يعلم بما سيحدث. لم يكن ليسعده تعقبي لك، لكن لحسن حظه قد نجحت خطته، وسمع سايمون بالأمر، و...»

همست متعجبة: «مورو!». لهذا السبب ذهب إلى المقهى؛ لكي يروي ما حدث إذن.

شعرت بضيق خانق يعتصر صدري، ووضعت يدي على الطاولة وأنا أقبضها، كان مورو أيضًا جزءًا من الخطة مثلهم جميعًا. وبحلول الصباح التالي كان سايمون قد عرف بالفعل بما حدث، وأرسل إليهم الدعوة بدلًا من آرثر.

أبقيت عينيَّ مثبتتين على ألسنة اللهب المشتعلة في الفرن. لقد فهمت ما كان هنريك يسعى إلى تحقيقه. لكن انخراط مورو في الخطة هو ما آلمني، فقد كان هو الشخص الوحيد في هذا المنزل الذي قد ظننت أنه في صفي.

أردف إزرا: «لو أنني تدخلت في الأمر لكنا واجهنا موقفًا سيئًا للغاية» نحن، لم أكن متأكدة مما كان يعنيه بذلك، فهل كان يقصد العائلة، أم هو وهنريك، أم أنا وهو؟

انتظرني أن أقول شيئًا، لكنني لم أفعل، فماذا كان هناك ليقال؟ لقد كان الأمر مثيرًا للغضب لكنه كان متوقعًا للغاية. ولم يكن هناك أي شيء أستطيع أن أفعله.

وأخيرًا عاود العمل، وبدأ النقر مجددًا، وشعرت بالامتنان لتلك الضوضاء، لقد كان الرنين المنبعث من عمل إزرا له صدى مستمر في ذلك المنزل، وقد أصبح ذلك الصوت باعثًا على الراحة، بينما كان الصمت هو ما يوتّرني بشدة.

بدأت العمل، فثنيت دبوس الشعر الأول كما علّمني، ولم نتبادل الحديث، بينما كنت أعيد فتح القفل مرارًا وتكرارًا، ثم أعيد ضبطه إلى الوضع الطبيعي، وأبدأ من جديد. لقد أصبحت

أملك ذاكرة العضلات، لكنني عرفت أن القفل الذي يملكه سايمون سيكون مختلفًا، فطبقًا لما قاله إزرا، لكل قفل خصائصه المميزة.

قال إزرا: «جربي الأمر وعيناك مغلقتان».

لم ألاحظ أنه قد توقف عن النقر، ووقف أمامي على الجانب الآخر من الطاولة متكئًا عليها بكلتا يديه وهو يشاهدني.

وعندما ترددت أشار بذقنه نحو الصندوق، وقال: «جربي الأمر».

نظرت إلى دبوسي الشعر في يديَّ وأنا أوجههما نحو الضوء، وأعيد تجربة الأمر في مخيلتي مرة أخرى. أغلقت عينيَّ ثم أمسكت القفل أمامي، وعقدت حاجبيَّ لدى بدئي العمل، حيث كنت أستجمع كل تركيزي. لكن هذه المرة لم يفتح القفل بسهولة، وتخبطت يداي بينما كنت أنفذ هذه المهمة إلى أن تمكنت من القيام بها، ثم أعدت المحاولة من جديد. لقد اعتمدت فقط على شعوري بدبابيس الشعر لتوجِّهني إلى الأماكن الصحيحة. وقد استغرق الأمر مني وقتًا أطول، واضطررت إلى القيام بالخطوات بشكل أبطأ، وكنت عندما أنجح في فتح القفل، أفتح عينيَّ فورًا.

رفعت عينيَّ إلى إزرا، فأومأ لي بلطف بينما علت شفتيه ابتسامة طفيفة. بدا أن هناك تصدعًا بسيطًا قد حدث في ذلك القناع القاسي والبارد الذي كان يرتديه على وجهه، وكان فضولي لمعرفة ما يكمن خلف ذلك القناع يزداد يومًا بعد آخر.

علت ابتسامة واسعة شفتيَّ. واعتقدت أن هذه هي وسيلة الثناء الوحيدة التي يمكن أن يبديها تجاهي.

أخذ يتفحص القطعة الفضية التي كان يعمل عليها، ثم قلبها إلى الناحية الأخرى، وبدأ النقر مجددًا بإيقاع ثابت. عاودت المحاولة مجددًا، وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله على المدينة،

وبزغ القمر في السماء ملقيًا ضوءًا أزرق شاحبًا على الورشة، وخفت صوت النرد في المطبخ إلى أن اختفى تمامًا.

سمعت صوت باب غرفة مكتب هنريك يُفتح ويُغلق، فجلست باستقامة، وبدأت التدرب على فتح القفل مجددًا. لاحظت في تلك الليلة نظرات مختلفة في عيني هنريك أثناء العشاء؛ نظرات تنم عن الاحترام لم أكن قد شعرت بها من قبل. فلم يكن كثير الاعتماد على الآخرين، وها هو ذا يعتمد عليّ.

الخامس عشر

لم أستطع أن أنكر أن الفستان كان رائعًا حقًّا، خاليًا من أي عيوب على الإطلاق. وقفت أمام المرآة الطويلة في غرفتي وأنا أمرر يديَّ على الفستان المصنوع من قماش الشيفون. انسدلت التنورة برشاقة من خصري، في حين كان الجزء العلوي منه ذا لون فضي لامع يظهر رشاقة جسدي، وكان له كُمان طويلان وشفافان. وقد ثبت الأزرار الموجودة في الجزء الخلفي منه بالقرب من منطقة الرقبة. زُين قماش الشيفون بتطريزات معقدة، تضم خيوطًا متلألئة تصور أوراق شجر مائلة. بدا هذا الثوب من عالم سحري خلاب كأنه صُمِّم لحفلة كبيرة تضم حوريات البحر. لقد سخَّر مصمم الأزياء بلا شك مهارته وبراعته في صُنع هذه التحفة الفنية، والآن جاء دوري لأتألق وأضفي الحيوية عليها.

كان الانعكاس الذي رأيته لنفسي في المرآة بمنزلة لمحة من الماضي، حيث أعادني إلى الوقت الذي أمضيته في نيمسمير. ورأيت نفسي تجسيدًا حقيقيًّا لما أعدتني ساريا لأكون عليه: دمية ذات ثياب جميلة على استعداد لأن تلعب أي دور من أجل إرضاء خالها. وعلى الرغم من ذلك افتقرت هذه الصورة إلى الجدران الزاهية النابضة بالحياة في منزل ساريا، والأثاث المطلي والأرضيات المغطاة بالسجاد الملون. أما غرفتي هنا، فيكسوها الظلام الذي لا تتخلله سوى إضاءة خافتة، وتنتشر الظلال على كل جدرانها، كما أن ضوء الشموع يتراقص على وجهي حتى إنه كان يطمس ملامحي.

لم أكن أنا تلك الفتاة الظاهرة في المرآة، بل كانت شخصية تمثيلية تؤدي دورًا على خشبة المسرح، وقد أُعدت له طيلة حياتها. لقد كنت في تلك الليلة، النسخة المُعدَّلة من برين المُعدة بشكل خاص لعائلة روث.

شعرت بحماس مثير يتملكني، فقد وجد جزء مني متعة في فكرة اتباع خطى والدتي. ولم أكن أشعر قط بالانتماء إلى عِلية القوم في نيمسمير، بل كنت أشعر بأنني شخص مختلف وُجد في مكان غير مكانه، أما هنا فلديَّ مكانة ودور محدد أقوم به. وكلما أمضيت وقتًا أطول بين عائلة روث، زاد أملي في أن أتمكن من العثور على مكاني حقًّا هنا، وأشعر بإحساس حقيقي بالانتماء.

ربطت حذائي، ثم صففت شعري بأناقة، وتركت بضع خصلات تنسدل على جانبي وجهي. ولم أبدُ مثل أمي في اللوحة المعلقة على الحائط في الأسفل، قد كنت أفتقر إلى سماتها الجسدية الجذابة، لكن ذاك الفستان أبرز معالم جسدي بطريقة مثيرة. بدا لون الثوب على بشرتي أشبه بلون الثلج الفاتح، تحركت حواف الثوب بلطف على عظام ترقوتي حيث تراصت ثلاث نقاط من النمش في نمط فريد وغير منتظم، يشبه مجموعة كواكب متفرقة في الفضاء. وبدوت أشبه بالمرأة التي قد رأيتها في فيج ألاي، تلك التي ظهرت واختفت كالأشباح، بدت من نوع الزبائن الذين كانوا سيجعلون ذاك المقهى الخاص بأمي مكانًا راقيًا ومحل حديث مرموقًا بين أعضاء النقابات، وإن حالفني الحظ وأتممت مهمتى في منزل سايمون على أكمل وجه، فهذا بالتحديد ما نويت أن أخبر به هنريك لكي أقنعه بمخططي.

وضعت عباءتي المخملية السوداء الثقيلة حول ذراعيَّ، ثم هبطت الدرج، كان باب غرفة المكتب مفتوحًا، وكانت نيران المدفأة مشتعلة كالمعتاد، لكن ذاك الرجل الذي كان يجلس خلف المكتب لم يكن من المألوف بالنسبة إليَّ رؤيته هكذا.

كان هنريك منكبًّا على دفتر حساباته مرتديًا سترته الزرقاء الرائعة، ومنغمسًا في الكتابة بريشته.

قلت له مازحة: «احترس، إذا وقعت نقطة واحدة من الحبر على هذا القميص، فلن نستطع تنظيفها أبدًا».

تلألأت عيناه وهو يتفحصني بتمعُّن، ولاحظت لحظة حزنًا دفينًا في عينيه، لكنه اختفى ما إن بدأ التحدث معي، قائلًا: «تبدين جميلة».

قلت له بينما افتر ثغري عن ابتسامة طفيفة: «شكرًا لك».

ترك الريشة فجأة، ثم ذهب إلى الرف الذي فوق المدفئة، وأحضر علبة صغيرة من بين الشموع، فتح العلبة، فانعكس الضوء متلألئًا على ما يقع داخلها بينما كان يقترب من المكتب متوجهًا نحوي.

شهقت شهقة عالية من فرط الدهشة عندما وقعت عيناي على قرطين داخل العلبة، كانا مصنوعين من فضة شديدة النعومة ومصقولة بامتياز، حتى إنه يمكنني رؤية انعكاس صورتي على سطحهما. وكانا على شكل طائرين بجناحين منطلقين مرصعين بالياقوت النجمي.

قلت بصوت هامس: «إنهما رائعان حقًّا!».

قال: «حسنًا، فلتأخذيهما».

التقطهما من العلبة، وأمسكت بهما في يدي.

قال لي هنريك وأنا أتفحصهما: «إنهما جزء من المجموعة التي سنعرضها على النقابة في المعرض».

اتسعت عيناي في تعجب، وسألته: «هل إزرا هو من صنعهما؟».

نظر هنريك خلفه، فالتفت لأجد إزرا واقفًا في منتصف مدخل الباب كأنه جزء من لوحة فنية، تجمدت، وأحكمت قبضتي على القرطين. كانت سترته ذات اللون الأسود الفاحم تلائم جسده تمامًا، وتبرز ملامحه بشكل رائع. لقد كان دائمًا مهندمًا ونظيفًا حتى بعد قضاء يوم عمل كامل أمام الفرن، لكن إزرا الذي أرى الآن هو تحفة فنية.

نظر إليَّ نظرة جانبية وهو يسحب ياقة قميصه، بدا عليه الشعور بالخجل، وأسعدني هذا المشهد كثيرًا؛ فقد أحببت رؤيته هكذا.

نظر إليه هنريك برضا، وقال له: «رائع. أعتقد أنه يمكننا أن ننجح في مسعانا».

تنقل بناظريه بيننا، لكنني كنت ما زلت أحدق إلى إزرا في انتظار أن ينظر إليَّ، لكنه لم يستسلم وأبقى عينيه على المكتب حتى أرخيت قبضتي، وبدأت ارتداء القرطين اللذين تدليا من سلسلة فضية رقيقة، واستقرا أسفل خط الفك مباشرة.

وأخيرًا، بدأ إزرا يحدق إليَّ بشكل تدريجي من أعلى كتفي إلى عنقي، فاستدرت وأعطيته ظهري قبل أن يرى الدم يصعد إلى وجنتيَّ.

بدأ هنريك مراجعة الخطة مرة أخرى قائلًا: «ستستأذنين بحلول انتهاء العشاء يا برين. ثم ستذهبين إلى غرفة المكتب الخاصة بسايمون، وهي في نهاية الردهة المؤدية إلى غرفة الاستقبال، سترينها عندما نصل إلى غرفة الطعام».

أومأت وأنا أستمع إليه بينما كنت لا أزال أشعر بشدة بوجود إزرا خلفي.

أضاف هنريك: «المكتب موجود في مواجهة النافذة، ووفقًا لما قاله لي إزرا، فلن تواجهي أي مشكلة في فتح القفل».

ظل إزرا صامتًا، لكنني لم أستطع إلا أن أتساءل عن كيفية وصوله إلى هذا الاستنتاج، ربما كان الأمر مرتبطًا بالغرض وراء إحضار هنريك له، ما أثار تساؤلات لديَّ عن مشاركة إزرا وخبرته في الأمور المتعلقة بالأقفال.

ثم أردف هنريك: «ستبحثين عن اسم وتاريخ، هذا هو كل شيء، لا تنظري إلى أي أرقام. ولا تأخذي أي شيء».

قلت له: «أفهم ذلك».

دار حول المكتب، وجلس على حافته ما جعله في مواجهتي أنا وإزرا. ثم أضاف: «هناك شيء آخر، أريد منك أن تولي كوين ابن سايمون اهتمامًا خاصًا».

تجمد إزرا بجواري بينما طرفت عيناي في حيرة وقلت: «ماذا؟».

أكمل هنريك حديثه: «إنه يملك قدرًا كبيرًا من التأثير على والده، وبالتأكيد سيرث خاتم التاجر الخاص به عندما يموت، كما أنني أراه شريكًا مثاليًا لكِ، والأفضل من ذلك سيمثل حليفًا داعمًا لهذه العائلة».

شحب وجهي، وشعرت بقشعريرة باردة تسري في جسدي: «أنتِ تريدني أن...، لا أظن أنني فهمت ما تقصده جيدًا...، أنت تريد أن تزوِّجنا معًا؟».

أجاب: «ولِمَ لا؟ فإن افتتن ابنه بكِ فسيوافق سايمون بالتأكيد على منحنا رعايته للانضمام إلى النقابة» ثم أشار بيده نحو ثوبي، وقال: «ولن تواجهك مشكلة في جذب انتباهه وأنتِ تبدين جميلة هكذا، وعلى الرغم من مزاجك المتقلب لكنني أعلم أنك متعاونة».

كنت ذاهلة لدرجة أنني لم تكن لديَّ أي فكرة عما يجب أن أقول، كانت الفكرة مذلة، ومهينة.

اتقدت حرارة شديدة في جسدي، حتى إنها أوشكت أن تحرقني. ولم يكن هذا ما ظننت أن هنريك يعنيه عندما أخبرني بأنه يريدني أن أكون جزءًا رئيسيًا من عمل العائلة، فقد كان هذا هو السبب الرئيسي الذي جعلني أتوق إلى مغادرة نيمسمير.

وقف إزرا إلى جانبي متصلبًا كالحجر، بينما ارتعشت عضلة فكه وهو يراقب هنريك بعينين حادتين.

صفق هنريك بيديه معًا على ما يبدو للإشارة إلى أن محادثتنا قد انتهت، لكنني لم أقوَ على التحرك، وظللت متسمرة في مكاني بينما انصرف متجهًا إلى الردهة. كما ظل إزرا أيضًا بلا

حراك. وبقينا واقفين بعضنا بجوار بعض نحدق إلى نار المدفأة دون أن نتبادل كلمة واحدة، إلى أن مد يده ليعبث بربطة عنقه متململًا وسحبها بقوة حتى أوشك أن يمزقها.

قلت له غاضبة وأنا أحاول إبعاد يده عن ربطة عنقه: «توقف عن ذلك».

جفل عندما اقتربت منه، وحاولت ضبط ربطة عنقه. وعندما حاول أن يتراجع إلى الخلف جذبته بقوة أكثر مما أردت نحوي. وجدت نفسي أتنفس بصوت عالٍ وثقيل. واضطررت إلى عض شفتيَّ لمنعهما من الارتعاش. لقد كنت غاضبة وأشعر بالعار والمهانة.

أخذ إزرا ينظر إلى وجهي، بينما كنت أعيد ربط ربطة عنقه بيدين متمرستين، وأخذت نفسًا عميقًا لأهدئ من تسارع دقات قلبي، لقد جعلتني ساريا أربط المئات من ربطات العنق التي تشبه هذه من قبل، فقد كانت تدربني على كيفية إلباس زوجي المستقبلي، وقد جاريتها معتقدة أنها رغبات امرأة عجوز، وبمجرد أن أذهب إلى باستيان سينتهي كل ذلك، ولكن هآنذا أُقاد بلجام لأعرض في المزاد مرة أخرى.

سألته بصوت هامس: «هل كنت تعلم بذلك الأمر؟».

انتظرت إجابته وأنا أشعر بالخوف والقلق الشديدين، وما أشعرني بمزيد من القلق هو سبب أهميته المفاجئة بالنسبة إليَّ.

وللمرة الأولى لم يبعد عينيه عن عيني، وقال بنبرة غاضبة: «كلا».

طرفت عيناي بشدة، وحاولت ألا تسقط الدموع التي تجمعت فيهما، بينما قمت ببراعة بضبط طرفي ربطة العنق؛ فقد عقدت العزم على ألا أدع دمعة واحدة تسقط مني.

وعندما انتهيت، مددت يدي نحو ياقة قميصه المزررة لأعقد ربطة عنقه بإحكام، لكن عندما اقتربت مفاصل أصابعي من رقبته، توقفت يدي، وسمحت للجزء الخلفي من أصابعي بالانزلاق على جلده ببطء أكثر من اللازم.

ازدرد ريقه بصعوبة، وكان صدره يعلو ويهبط تحت قميصه، ولم أجرؤ على أن أرفع عينيَّ، وأنظر إليه حينها، ثم أفلتُّ يديَّ عن قميصه، وانتقلت إلى سترته، وأخذت أربت كتفيها بثبات.

انفتح باب المنزل المؤدي إلى الشارع، فتحركت نيران المدفأة بعنف، وسُلط بعض الضوء على وجه إزرا فأضاءه. بعد مرور ما بدا أنه دهر، أخذ خطوة إلى الوراء، وهذه المرة لم أمنعه، التفت واضعًا يديه اللتين تعلوهما الندوب في جيبيه. بينما وقفت في ممر الغرفة الفارغة واضعة يديَّ على جانبي خصري حتى شعرت بأن عظام أصابعي توشك أن تنكسر.

بينما كنت أهبط الدرج، رأيت هنريك واقفًا في الشارع، تاركًا الباب مفتوحًا في انتظاري. لم يكن هناك أي جدوى من الجدال معه، فقد كانت لديه خطة مدروسة مقتنع بها، فهذه الليلة أنا برين روث، ابنة أخته الأنيقة المهذبة التي تصلح لأن تكون شريكة حياة لابن صانع الساعات. لكنني غدًا لا بد أن أفكر في مخرج من هذا السجن الذي أنا على وشك الدخول إليه.

السادس عشر

توسَّطت باب صانع الساعات مقرعة ذهبية على شكل دائرة مزينة بالنجوم.

طرق هنريك الباب أربع مرات. فيما أخذت نفسًا عميقًا في محاولة لتهدئة أعصابي. وعدَّلت وضعيتي قليلًا، وشعرت عندئذ ببعض الدفء المفاجئ الناتج عن اقتراب إزرا مني إلى حد كبير؛ فقد كان يقف خلفي مباشرة على الدرج. أرادني هنريك أن أقف أمام الباب مباشرة؛ لذا رسمت على وجهي ابتسامة رقيقة استعدادًا للحظة انفتاح الباب، على الرغم من شعوري بألم شديد يعتصر أحشائي.

لم ينبس إزرا ببنت شفة طوال طريقنا من لوير فالي إلى حي التجار، واكتفى باقتفاء أثرنا بخطوات واسعة، بينما كان هنريك يخبرني في عجالة ببعض المعلومات عن سايمون وابنه كي أتذكرها. تظاهرت بالاستماع، بينما كنت أراقب وميض الضوء المنبعث من الحجارة المستخدمة في رصف الطريق، وألف ذراعيَّ حول جسدي بقوة تحت عباءتي.

مد هنريك ذراعيه ليضبط أسورتي كميه، ثم عدَّل سترته. لم يعُد يبدو عليه التوتر، بل أضاء الحماس وجهه مضفيًا عليه مظهرًا جديدًا تمامًا.

دائمًا ما عاش هنريك في عالم مليء بالمخاطر، وقد أحكم قبضته على هذا العالم، فكان دائمًا ما يسبق الجميع بخطوات مستعدًّا لكل الاحتمالات، وقد جنَّبه ذلك التعرض لأي مفاجآت غير سارة. أما الآن، فها هو يقف هادئًا ومتماسكًا دون أي أثر لسياسة العنف والصرامة التي كان يحكم بها هذه العائلة وأعمالها. وكنا على وشك أن نكتشف ما إذا كان سايمون سينخدع بهذه المظاهر.

فتح الباب خادم يرتدي صديرية سوداء أنيقة، وتراجع خطوة إلى الخلف ليفسح لنا المجال للدخول.

وكان سايمون يقف خلفه عاقدًا يديه، استقبلني بابتسامة دافئة تحمل مشاعر صادقة. وعندما نظرت إليه لم أستطع إيجاد ما يدل على أن هذا الرجل اللطيف هو نفسه الرجل الهمجي المتوحش الآتي من نورث إند كما وصفه مورو.

حيًّا خالي بابتسامة مهذبة، وقال وهو يتقدم نحوه لمصافحته: «هنريك. أنا سعيد للغاية لأنكم قبلتم دعوتي. تفضلوا بالدخول». قادنا إلى الداخل، فرفعت تنورتي إلى أعلى قليلًا لكي أعبر عتبة الباب.

كانت الأرضيات الرخامية مصقولة بشدة، لدرجة أنها كانت تتلألأ وتعكس الضوء مثلما ينعكس على المياه الصافية الهادئة. كان هناك درج خشبي مكتمل بدرابزين منحوت بشكل معقد، يتصاعد إلى أعلى فوق رؤوسنا فيما يشبه الدوامة. كان المنزل جميلًا للغاية، ولائقًا حقًّا بأحد أعضاء النقابة، لكن إزرا لم يبدُ عليه الانبهار، لقد دلف إلى الداخل دون أن يبدي أي اهتمام بالمدخل المبهرج.

قال هنريك بهدوء، وهو يتراجع إلى الخلف قليلًا كأنه يقدمني إليه: «لقد قابلت من قبل ابنة أختي». كان هو من أرسلني إلى محل سايمون لأختار ساعة مناسبة، ولم يسعني إلا أن أتساءل الآن عما إذا كان هنريك يخطط لأمر تزويجي بابن سايمون منذ ذلك الوقت.

أومأ سايمون قائلًا: «نعم، لقد تقابلنا من قبل».

قال هنريك: «لقد جاءت من نيمسمير منذ فترة قريبة حيث كانت تعيش مع عمتي ساريا. أنت تتذكرها بالتأكيد».

سادت لحظة قصيرة من الصمت بعد ذكر اسم ساريا، ولاحظت تغيرًا طفيفًا على ملامح وجه سايمون قبل أن يخفي ضوء الشموع الوامض ذاك التعبير الغريب.

ثم قال وهو يمد يده نحوي، فصافحته وأنا أضع أطراف أصابعي في يده، وحنيت رأسي قليلًا تحية له: «بالطبع أتذكرها، من الرائع أن أراك مجددًا يا برين، أعتقد أن الساعة قد وصلتك، أتمنى أن تكون قد نالت رضاكِ».

ابتسمت ابتسامة لطيفة، وقلت له: «لقد سعدت بها حقًا، إنها قطعة فنية جميلة جدًا وكنت سأحملها معي الآن لو كان في هذا الثوب مكان لأعلقها فيه».

ضحك سايمون قائلًا: «حسنًا إذن، إنني أتطلع لأن أراكِ تحملينها قريبًا». ثم نظر إلى هنريك وقال: «لديها ذوق رفيع للغاية».

أكد هنريك كلامه: «نعم، هي كذلك بالفعل».

قال سايمون وهو ينظر نحو خدي: «لقد سمعت عن ذاك الفعل الشنيع الذي قام به آرثر معكِ»، احتقن الدم في وجهي وهو يتفحصني. حاولت إخفاء بقايا آثار الكدمة حتى يصعب اكتشافها، لكن على الرغم من ذلك كان يمكن رؤيتها إن دقق أي أحد النظر فيها.

قال هنريك بأسف: «نعم، لقد كانت حادثة مؤسفة للغاية، لكنني متأكد من أنك تعلم جيدًا أن آرثر لا يدير أعماله بطريقة محترمة كما يفعل الرجال النبلاء».

وافقه سايمون في ذلك.

وتابع هنريك قائلًا: «وأنت تعرف إزرا، أليس كذلك؟».

أجاب: «بالطبع أعرفه، كيف حالك يا بني؟».

نظرت إليه متفاجئة، فلم يقل إزرا أي شيء عن معرفته بسايمون.

أجابه إزرا بطريقة مهذبة: «أنا بخير». كان إزرا يجارينا في أقوالنا وأفعالنا، لكن كان يبدو عليه بعض الضيق كأنه كان على حافة الانفجار غضبًا.

قال سايمون ساخرًا: «يبدو أنه لا يحب الإسهاب، أليس كذلك؟».

ضحك هنريك: «نعم، هو كذلك».

لم يبدُ على إزرا الاستمتاع، وأخذ يتنقل بنظره بينهما، واعترى وجهه تعبير لا يمكن قراءته.

قال سايمون: «حسنًا إذن، ألن ندخل؟» ثم التف دون أن ينتظر إجابة، وقادنا عبر الردهة الطويلة ذات الجدران المكسوة بألواح خشبية.

تفحصت بعينيَّ الأبواب المغلقة بينما كنا نمر، وعندما عبرنا بزوج من الأبواب ذات المقابض البرونزية، أشار هنريك بحركة طفيفة من يده إليهما.

إنها غرفة المكتب التي يجب أن أجد طريقة لدخولها أثناء العشاء.

كانت الغرفة أمامنا مغمورة بوهج دافئ بفعل ضوء النار. وقد امتد توهجها إلى الممر المؤدي إليها، كانت في الداخل مدفأتان كبيرتان في نهاية كل ركن من غرفة الاستقبال المستطيلة. وكانت الجدران المزينة بورق الحائط تتلألأ باللون الذهبي ما زاد من فخامة المكان. كما زُين كل ركن من أركان الغرفة بالمفروشات الرائعة التي أضافت الزركشات الفضية إليها لمسة من الأناقة. وبينما كنت أسير عبر السجادة الفخمة المنسوجة يدويًّا، لم أستطع إلا أن أعترف بأن هنريك لم يكن يبالغ عندما تحدث عن مكانة سايمون الرفيعة في المجتمع، كان هذا المنزل ينافس المنازل الفخمة التي رأيتها في نيمسمير.

احتشدت مجموعة من الرجال حول المدفأة في نهاية الغرفة، وتوقفوا عن الحديث بمجرد دخولنا. وتوقعت أن سايمون قد دعاهم ليطلع على آرائهم فيما جئنا بشأنه، فلم يكن ليوافق على منح رعايته هنريك إلا بدعم من أعضاء النقابة الآخرين، وثقة بأنه سيكسب تصويتهم أثناء المعرض. ويبدو أننا سنقدم عرضًا جماهيريًّا إذن.

تنحنح سايمون قائلًا: «أود أن أقدم إليكم: هنريك روث، وابنة أخته برين روث، وصائغ الفضة الخاص به إزرا فينش».

تحوَّلت بنظري إلى إزرا فينش لم أكن قد سمعت اسمه كاملًا من قبل، ولم أفكر في أن أسأل عنه مطلقًا. وارتفعت يداي إلى القرطين عندما بدأت أستوعب الأمر، فالطائران هما من فصيلة الفينش.

قال رجل ذو شعر أشقر ممشط إلى الخلف، وهو يقترب نحوي ممعنًا النظر في القرطين: «إنهما قرطان جميلان حقًّا».

قال هنريك بفخر: «إنهما من أعمال إزرا».

التفتوا نحو إزرا، لكنه ظل صامتًا، واكتفى بالوقوف إلى جانب الحائط، وبدا أنه غير متأهب لتسليط الضوء عليه.

قال هنريك بابتسامة ماكرة، بينما ارتفع شاربه إلى أعلى: «على الرغم من أنه قد لا يكون من النوع الثرثار، فإنني أؤكد لكم أنه يعوض ذلك بموهبته الاستثنائية».

انفجر الرجال في الضحك، حتى ملأت أصواتهم الغرفة الدافئة، فتراجعت إلى الخلف قليلًا.

قلت موجهة حديثي إلى هنريك: «أعتقد أن بإمكاننا جميعًا الاعتراف بأن الحديث وحده لا يوفر دائمًا تقييمًا دقيقًا لشخصية المرء». واحتفظت بالابتسامة على وجهي، بينما تلاشت الضحكات.

تلاشت ابتسامة هنريك عندما تلاقت نظراتنا، ما أكد لي أنه فهم قصدي، فقد امتلكت قوة في هذه الغرفة لم أمتلكها من قبل في أي مكان آخر، ولم أتهيَّب استخدامها.

إذا أراد استخدامي ليحصل على رضا سايمون، فليكن كذلك، كما كنت أعلم أنه يستخدم إزرا أيضًا ويستعرض أعماله، لكنني لم أكن لأسمح له بأن يجعلهم يسخرون منه.

قال هنريك متنحنحًا: «هذا صحيح جدًّا».

ابتسم الرجل الأشقر لي، وقال: «إنه من اللطيف أن تكون هناك سيدة بيننا».

قال سايمون: «أوافقك، فهذا يبقينا متحضرين».

بدا أن الآخرين مستمتعون بآرائي إلى حد ما، بينما بدت عينا هنريك مليئتين بالشك، وأخذ يتفحصني، وينقل ناظريه بيني وبين إزرا.

مد رجل يده إلى إزرا وهو يقول: «أنا أعرف أعمالك جيدًا. أعتقد أنه لا يوجد تاجر في باستيان لا يعرفك».

مد إزرا يده مصافحًا إياه، وأومأ إلى الرجل بامتنان.

من الناحية النظرية لم يكن مسموحًا لهنريك بإنتاج أو بيع أي مجوهرات داخل باستيان، فقد كانت تجارته محدودة في منطقتي سيروس وناروز، لكن اتضح أن صانع الفضة الخاص به قد ذاع صيته متجاوزًا حدود هاتين المنطقتين.

صفق سايمون بيديه، فظهرت على الفور امرأة تحمل صينية فضية عليها أكواب زجاجية صغيرة مزخرفة، أخذ هنريك كأسًا، وناولني إياه، ونظر إليَّ ببرود عندما أعطانا سايمون ظهره. لقد كان يؤدي دوره ببراعة، فقد كان يتذكر جيدًا كل ما أخبرته به. ومع ذلك، كان هناك توتر كامن، واضح في تعبيره. يبدو أنه لم يعجبه أن يكشف أحد شخصيته الصحيحة. شعرت بأن غضبه قد يظهر في أي لحظة بطريقة وحشية، كأن أنيابه جاهزة لأن تُغرس داخلي في أي لحظة.

اصطحبه سايمون إلى المدفأة، وعادت الابتسامة لترتسم على شفتيه وهو يخطو إلى الأمام، ثم قال له: «هنريك، أود أن أعرِّفك بالسيد بيتر».

ها قد بدأت عملية التقييم إذن.

تراجعت إلى الخلف عندما اندمج هنريك في الحديث. وذهبت لأقف إلى جوار إزرا. كان يحمل كأسًا من الشراب، وفوجئت بأنه بدا يألف هذا المكان.

قال بصوت منخفض: «لا تفعلي ذلك».

سألته: «ماذا فعلت؟».

أخذ رشفة: «أنت تعرفين ما أقصد، أنا لست بحاجة إلى حمايتك».

رفعت الكأس إلى شفتيَّ وأنا أحدق إلى نار المدفأة، لقد كنت أعلم أنه ليس بحاجة إلى حماية، لكنني لم أحب النظرة التي كانت في عيني هنريك، وهو يتحدث عنه. ربما كنت غاضبة مما قاله هنريك قبل أن نغادر المنزل، لكن لم يكن ذلك هو السبب فقط، فقد شعرت برغبة قوية في حماية إزرا في تلك اللحظة.

تغيرت الأجواء في الغرفة، وساد الصمت عندما دلف شاب من مدخل الغرفة.

قال سايمون: «مرحى! كوين».

أفسح الرجال الطريق، فوقعت عيناي على ابن سايمون، كان وسيمًا ورشيقًا ذا عينين زرقاوين واسعتين، وشعر بني فاتح ممشط إلى الخلف بشكل أنيق.

ابتلعت شرابي في ثلاث جرعات متتالية، ما تسبَّب في شعور حارق في حلقي.

أدار سايمون رأسه تجاهي وهو يقود ابنه عبر الغرفة، وقاومت رغبتي في الهروب. وقدم أحدنا للآخر: «كوين، هذه هي برين».

توقف كوين أمامي يتفحصني من رأسي حتى أخمص قدميَّ، ما جعلني أشعر بأن هناك مائة عين تنظر إليَّ. ومد يده نحوي لمصافحتي بينما ارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه، وقال: «أنا سعيد بمقابلتك».

مددت يدي لمصافحته، وقلت وأنا أحرص على الحفاظ على نبرة صوت معتدلة: «أنا سعيدة بلقائك».

لم يكن كما توقعته تمامًا، فعندما قال هنريك إننا سنشكل زوجًا جيدًا، تخيلته رجلًا أكبر عمرًا، لديه ما يكفي من المال لاستثمارها في أعمال هنريك، لكنني أرى من مظهره أنه لا يمكن أن يكون أكبر مني إلا ببضع سنوات فقط.

ثم قال هنريك: «هل تتذكر إزرا؟».

كان يقف خلفي وكتفاه مشدودتان تمامًا تحت سترته، فبدا أنها على وشك أن تتمزق. وقال كوين: «بالطبع أتذكره»، ثم مد يده إلى إزرا لمصافحته.

تردد إزرا بضع ثوانٍ قبل أن يستسلم ويمد يده لمصافحته.

تجدد الألم في فكي بعد أن كززت على أسناني، وبدا إزرا أكثر تململًا من قبل، فلم يحاول أن يتصنع ابتسامة مهذبة كذلك، يبدو أنه لم يُرد أن يكون هنا لكنني كنت ممتنة لوجوده.

قاطع هنريك سيل أفكاري عندما قال: «ستصطحب برين يا كوين، أليس كذلك؟»، فأدركت أن الرجال قد بدأوا بالفعل التحرك إلى غرفة الطعام.

أجاب كوين: «هذا من دواعي سروري»، ثم رفع ذراعه لي لأتأبطها.

شاهدت إزرا يختفي عبر الممر أمامنا، وبمجرد أن اختفى عن نظري، اصطنعت على الرغم مني على فمي ابتسامة باهتة لكوين.

كان هنريك منغمسًا في الحديث مُظهرًا بمهارة لطفًا شديدًا. وهي سمة قوية ومطلوبة في مثل هذه المواقف، لكنني ظللت أشعر بأن جزءًا من انتباهه ظل مسلطًا عليَّ، بدا الأمر كأنه يلعب لعبة متعددة الجوانب وطويلة المدى.

ولم يكن خالي يرغب فقط في مجرد جذب انتباه كوين، وإنما كان لديه هدف أبعد عمقًا، فقد أراد إنشاء رابطة عائلية معه من أجل السيطرة عليه. فقد رتب للأمر جيدًا وبدقة متناهية. وخطط للسيطرة على الأحداث لصالحه في المستقبل.

السابع عشر

كانت الأجواء مألوفة ومريحة إلى حد كبير.

أعد سايمون مائدة عشاء فاخرة مليئة بأصناف الطعام المختلفة، تحيط بها مجموعة كبيرة من الخدم، بينما تدلت الثريَّات الكريستالية التي تحمل الشموع الوامضة من السقف، وتراقصت أضواؤها ما خلق عرضًا رائعًا من الألوان المختلفة على الجدران. ودوَّت أصواتنا المفعمة بالحيوية في أرجاء المكان، فبددت وحشته، وملأته ألفة وراحة.

سحب كوين مقعدًا، وانتظرني حتى جلست، وقاومت رغبتي في الضحك؛ إذ تذكرت أول ليلة لي في عائلة روث عندما لم يكلف أيٌّ من أفرادها نفسه عناء فعل ذلك. كانت العادات التي نشأت عليها هي نفسها العادات المتبعة في منزل السيد سايمون أيضًا، ما منحني شعورًا بالألفة والراحة. لكنها ذكرتني في الوقت ذاته بمنزل ساريا؛ ذاك السجن الذي سُلبت فيه حريتي. لكنني لم أدرك عدم شعوري بتلك المشاعر منذ وصولي إلى باستيان إلا في هذه اللحظة فقط.

اعتدل سايمون في جلسته، وأسند ظهره إلى ظهر مقعده بينما توجه بالحديث إلى هنريك قائلًا: «لقد سمعت العديد من الأخبار الجيدة عن تطور تجارتك في سيروس».

بدا هنريك سعيدًا لكونه محط اهتمام الجميع، لكنني شعرت في تلك اللحظة باضطراب وقلق بالغين. فكلما ازداد انتباههم إليه، شعرت بالخوف من أن يقول كلامًا في غير محله، أو يتخذ إجراء أحمق. وقال في النهاية: «أنا سعيد لسماع ذلك، وأظن أننا سنحقق النجاح نفسه في باستيان أيضًا».

شعرت بتوتر شديد؛ إذ كان كلام هنريك غير مناسب، وبخاصة أننا في تجمع غير رسمي، لكن بدا سايمون مستعدًّا للتغاضي عن الخطأ، وعلق قائلًا: «لقد كان التعامل مع هولاند مليئًا بالتحديات والصعوبات، وأعتقد أننا جميعًا نتفق على أهمية ملء الفراغ الذي تركته، لكن سيكون هناك أكثر من مرشح للحصول على خاتم التاجر الخاص بها»، ولقد لاحظت أنه قد نظر إلى أحد الرجال الحاضرين نظرة ذات مغزى، وأدركت أن أولئك الرجال سيكونون حذرين وانتقائيين في اختياراتهم، فإذا كان سايمون سيقدِّم الدعم والرعاية لأحد الأشخاص، فلا بد أن يوفر لهم ذلك الشخص بعض الفوائد والمزايا.

أومأ هنريك برأسه، بينما كان الخادم يملأ الكأس الموضوعة بجوار طبقه، وقال بثقة مفرطة: «هذه الحلي مجرد جزء بسيط من المجموعة التي نعمل عليها من أجل المعرض».

قال سايمون وهو يبتسم ابتسامة ماكرة: «هل تعمل على مجموعة بالفعل. يبدو أنك شديد الثقة بنفسك».

بحثت عن أية إشارة في كلمات سايمون قد تنم عن خبثه، لكنني لم أجد، بدا أنه كان معجبًا بثقة هنريك وإصراره حقًّا.

أضاف هنريك: «إن مهارات إزرا تزداد قوة كل سنة، وأثق بأنه ينتظره مستقبل باهر».

أجابه سايمون وهو يرفع كأسه: «أنت إذن محظوظ بذلك للغاية». وفي تلك المرة شعرت بنبرة ساخرة في كلامه، لكنني لم أستطع تحديد ماهيتها.

حدثني كوين وهو يحاول الاقتراب مني قليلًا لجذب انتباهي بعيدًا عن محادثتهما: «قال والدي إنك قد وصلتِ إلى باستيان منذ عدة أيام». استطعت سماعه بصعوبة بالغة بسبب صوت أبيه الجهوري.

أجبته بابتسامة: «هذا صحيح، لقد نشأت مع عمة والدتي في نيمسمير».

قال لي: «طبقًا لمعلوماتي، أنتِ أول فرد من عائلة روث لم ينشأ في باستيان».

كان محقًّا، فإذا كان قد نشأ في نورث إند، وكان هنريك على صلة بسايمون منذ ذلك الحين، فمن الطبيعي أن يعرف ذلك بكل تأكيد. لكن ما لاحظته هو ذكره اسم عائلتي بشكل غير رسمي دون أي إشارة إلى التقليل منها ما يدل على الود والمحبة الصادقة، وقد أحببت ذلك كثيرًا. وبدا أن كوين لديه الصفة نفسها التي يملكها والده، وهي الإخلاص الشديد.

كان ينظر إليَّ مباشرة وهو يحادثني، ما جعلني أشعر بالراحة والحذر في الوقت ذاته، ثم سألني في تلك اللحظة: «ما رأيك بهذا المكان؟».

أجبته: «إنه واسع للغاية، أوسع كثيرًا من الأماكن التي اعتدتها».

وعندما اقتربت الخادمة، صمت كوين ليسمح لها بأن تصب المشروب في الكأس قبل أن يتابع: «ولِمَ لَمْ تبقي في نيمسمير؟».

أجبته بينما تناولت كأسي، ورفعتها قليلًا: «عمل العائلة هنا وخالي كان بحاجة إليَّ».

أعجب كوين بإجابتي، فرفع أحد حاجبيه، وأومأ برأسه في إشارة إلى موافقتي الرأي.

ثم قال: «إن العائلة هي الإرث الوحيد الدائم، أليس كذلك؟» حملت كلماته قناعة شديدة ما جعلني أنتبه إليه بشدة.

ربما كان ذلك المنزل، وتلك السلوكيات اللائقة مألوفة لي، لكن سايمون وابنه لم يكونا كأبناء العائلات المرموقة الذين عرفتهم، فقد تحليا بصراحة وتلقائية غير معتادة بين أبناء هذه الطبقة، ولم أستطع إلا أن أُعجب بهما. ورأيت أن هنريك يمكن أن يتواءم معهما بشكل جيد.

أسهب كوين في الحديث عن والده، وهو يسرد كيف بنى تجارته من الصفر في بلدة نورث إند، كان من الواضح أنه يحترم سايمون ويحبه كثيرًا. وأثار ذلك شعورًا بالندم داخلي،

سواء بسبب غرض هنريك من الوجود هنا، أو لحقيقة مساعدتي له من خلال مشاركتي في هذه اللعبة. إن أهدافي وطموحاتي تتجاوز مجرد تأمين حصول خالي على خاتم التاجر، فإذا ما أردت أن أخلِّص نفسي من تلك الزيجة المدبرة، وأملك حصتي الخاصة في عمل العائلة، فلا بد أن أصم أذنيَّ عن صوت ضميري، ولا أفعل إلا ما يتوافق مع مصلحتي.

كان إزرا يجلس في نهاية الطاولة في مقابلة هنريك، يقِّطع طعامه بدقة إلى قطع صغيرة. وكان هو الوحيد الذي بدا منفصلًا عن ذاك المشهد الجاري، فكان يجيب عن أسئلة الرجال بكلمات مختصرة، ويتصلب في كل مرة يوشك فيها أن يضع مرفقيه على الطاولة. لقد بدا بائسًا للغاية، وشعرت بالشفقة عليه إلى حد ما. أما ما أثار قلقي بشكل كبير، فهو إنني لم أستطع التوقف عن النظر إليه، كانت عيناي تتجهان نحوه كل بضع دقائق. وعلى الرغم من تظاهره بأنه لم يلحظ ذلك، فأنا متأكدة من أنه كان يراقب نظراتي المتكررة. ففي كل مرة كانت عيناي تقعان عليه كان يهز كتفيه، ويمرر يده بتوتر في شعره، الذي تشعَّث بعض الشيء بسبب هذا، وانسدل على عينيه، وشوَّش عليه الرؤية قليلًا.

اندمج الحضور في حديثهم، وعلت أصواتهم، ثم توجهوا في تلك اللحظة إلى إزرا، وسألوه عن آخر أعماله، وتحديدًا مجموعة القوالب المعقدة التي صنعها من أجل البروشات الماسية التي سمعوا عنها. وأجابهم بطريقة مهذبة للغاية، لكنه كان غير مكترث على الإطلاق. وهذا هو الأمر الذي زاد من توتر هنريك واضطرابه. فلم يكن إزرا يؤدي الدور الذي طُلب منه كما ينبغي. وتملكني شعور كبير بالقلق عندما فكرت في رد فعل هنريك عندما ننتهي مما نفعله هنا.

قال كوين فجأة: «هو رجل مثير للاهتمام، أليس كذلك؟» أدركت عندئذ أنه لاحظني وأنا أحدق إلى إزرا.

خفضت نظري، وبدأت تحريك حبة بطاطس مشوية على طبقي، ثم قلت: «لم أكن أعرف أنكما يعرف أحدكما الآخر».

أجاب: «نعم، أعرفه منذ سنوات عديدة. كان يعمل منذ أن كان صغيرًا في ورشة العمل لدى والدي».

انزلقت شوكتي على الطبق من غير قصد، وسألته في دهشة: «هل كان يعمل لدى سايمون؟».

أومأ كوين بالإيجاب: «نعم. لقد تعلم كيفية عمل المشغولات الفضية في ورشتنا، فقد تدرَّب هنا إلى أن بلغ الثانية أو الثالثة عشرة من عمره».

أدركت عندئذ أن هناك علاقة ممتدة غير معلنة بين إزرا وسايمون، لكن يبدو أنها محاطة بالسرية. سألته دون أن أفكِّر جيدًا: «كيف انتهى به الأمر إلى العمل لدى هنريك؟» لقد عبَّرت عما يدور داخلي بصراحة شديدة، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي، فلم أكن أعرف شيئًا عن إزرا.

بدا أن سؤالي قد أثار فضول كوين، فنظر إليَّ وهو على الأرجح يتساءل كيف لي ألا أعلم ذلك بالفعل. لقد كانت خطوة خطأ مني، وقد لاحظ ذلك، لكنه أجاب على أي حال: «لقد تغلب خالك على والدي في ذلك الأمر».

وهنا أدركت فجأة أن سخرية سايمون منطقية للغاية، فقد امتدت جذور هذه القصة إلى ما هو أبعد من المُعلن عنه، وكان ذلك التوضيح هو كل ما استطعت أن أحصل عليه. قلت له: «آسفة، فوالدك يبدو رجلًا جيدًا حقًّا».

نظر كوين إلى الطاولة، ثم قال: «إنه كذلك. ربما كانت بدايتنا متواضعة، لكنه صنع مستقبله بنفسه على الرغم من أن الحظ لم يكن حليفه».

كانت نظراته تنم عن فخر كبير، وتساءلت عما إذا كانت إشارته إلى بداياتهما المتواضعة هي وسيلته للمصارحة بشيء ما. فمن المحتمل أنه أدرك أن هنريك يخطط لتزويجنا، وربما كان والده متورطًا في ذلك المخطط أيضًا.

قلت له: «لا أعتقد أنني بحاجة إلى إخبارك بتاريخ عائلتنا».

ابتسم ابتسامة تنم عن معرفته، ثم قال: «لا، لست بحاجة إلى ذلك، فكل مَن في المدينة يعرف اسم عائلة روث»، ثم مال نحوي أكثر، وأضاف: «لكنك لا تبدين مثل باقي أفراد عائلتك».

شعرت بالدماء تندفع إلى وجنتيّ، وهمست له: «هل لذلك وافقت أن تجلس بجانبي؟».

ضحك كوين: «لقد جلست بجانبك؛ لأنه قد طُلب مني ذلك، لكنني سعيد بأنني فعلت».

كان كوين صريحًا للغاية، ولم يحاول إخفاء نيته. لم يكن هنريك يرى أنه من الصعب لفت انتباه كوين، وكان محقًّا في ذلك. فربما لم تكن الفتيات في حي التجار راغبات في الارتباط بشخص له ماضٍ مثل ماضيه، أو ربما كان الحس الفني داخل كوين يدفعه إلى الإعجاب بالأشياء الجميلة.

قطع صوت هنريك الهمس الذي كان بيننا، قائلًا: «قريبًا على ما أعتقد. لقد ظل بيت الشاي مغلقًا فترة طويلة، وقد حان الوقت لتغيير ذلك».

تحوَّل نظري نحوه سريعًا، كان هنريك يجلس على مقعده مسترخيًا تاركًا بعض الطعام في طبقه، تمامًا كما أخبرته، بدا أنه قادر على اتباع التعليمات عند الحاجة.

أضاف عندئذ: «إنني أفكر في افتتاحه في الأسابيع المقبلة».

شعرت بدهشة كبيرة، فقد أثار حديثه داخلي مشاعر مضطربة.

قال سايمون: «ألن يفسد ذلك فرصك في الانضمام إلى النقابة؟».

أجابه هنريك «إن معظم تجار باستيان يفضلون تناول الشاي الخاص بهم في بيوت الشاي المختلفة».

حرصت على ألا أحدق إليه كثيرًا، فحوَّلت عينيَّ عنه، وتناولت كأسي، وأخذت رشفة طويلة. كان هنريك على وشك افتتاح بيت الشاي الخاص بأمي، لكنني لا أعرف لما فاجأني ذلك، أو لما جعلني أشعر بالغضب. ففي نهاية المطاف كنت أنا من اقترح ذلك. لكنه تجاهل اقتراحي حين عرضته عليه، وها هو يعرض الفكرة، وينسبها إلى نفسه ليحصل على كل الفضل.

لاحظ كوين تغير تعبيرات وجهي، فتجعد جبينه، قائلًا: «هل أنتِ بخير؟».

أجبته: «أنا بخير»، ونظرت إلى الجانب الآخر من الطاولة، فوجدت إزرا ينظر إليَّ للمرة الأولى منذ بدء العشاء، فقد لاحظ ذلك أيضًا.

أضاف هنريك: «لكنني سمعت أنك قد حصلت على عقد سفينة جديد، سفينة سيربينت تحديدًا».

أخذت قضمة أخرى وأنا أطرق السمع إليه، إن سيربينت هي السفينة التي كان يتحدث عنها مع باقي أخوالي أثناء العشاء.

أسند سايمون ظهره إلى ظهر مقعده، بينما ارتسمت على وجهه ملامح رضا، وقال: «نعم، كان من المفترض أن تحصل فيوليت بليك على عقد تلك السفية، لكننا لم نكن لنسمح بذلك».

وافقه هنريك: «نعم بالتأكيد».

ملت لأقترب من كوين، وسألته بصوت منخفض: «مَن هي فيوليت بليك؟».

ابتسم وهو يظن أنني أمزح، «هل لا تعرفينها حقًّا؟».

قلت: «نعم لا أعرفها».

قال لي: «إنها تاجرة أحجار كريمة ذاع صيتها، استولت تجارتها على احتياطي النقد كله في المدينة، ما أثار استياء التجار الآخرين. وإذا حصلت على هذا العقد، لكانت ستتمتع بنفوذ أكبر من أي عضو في النقابة. غير أن والدي قام بالمزايدة عليها، ومنعها من الوصول إلى هذه السلطة».

قلت: «فهمت». كانت هذه هي الطريقة التي تعمل بها النقابات، إنه توازن دقيق بين التحالف والمنافسة.

قال بنبرة مرحة بعض الشيء: «هذا جيد، فلا بد أن يتحاشى الناس استفزاز الجانب السيئ من والدي». أعاد كلامه إلى ذهني ما رواه مورو عن سايمون، حيث أخبرني بأن أي شخص تجرأ على مخالفته، انتهى به الأمر نهاية مميتة بالإلقاء في مياه الميناء.

وجَّه أحد الأشخاص سؤاله إلى كوين جاذبًا انتباهه إليه، فوضعت شوكتي على الطبق بعناية، فإذا كنت أنوي الذهاب إلى غرفة المكتب والعودة قبل أن ينتهي الرجال من تناول طعامهم، يجب عليَّ أن أتحرك الآن.

أحكمت قبضتي حول الكأس الخاصة بي، فتأرجح المشروب داخلها، وأملتها قليلًا بينما كنت أنظر إلى حافة الطاولة.

أملت الكأس نحوي أكثر، فانسكب ما به من سائل على فخذي، فشهقت قائلة: «يا إلهي!».

نهض كوين بسرعة من مقعده، وأعطاني منديله، فأخذته وضغطت به على الشيفون لأجففه. حاول أن يساعدني فمد يده نحو الفستان، وقال: «هنا»، لكنني نهضت على قدميَّ مبتعدة عنه.

صحت بينما كنت أحاول أن أمسح البقع: «آسفة».

صاح كوين مشيرًا إلى إحدى الخادمات: «كيت»، لكنني رفعت يدي لإيقافها، بينما كانت تسرع نحوي.

وقلت لها: «سأكون بخير».

جادلتني الخادمة قائلة: «لكن ثوبك مبتل، اسمحي لي بأن أساعدك يا آنسة».

قلت لها: «إنها بضع قطرات من المشروب فقط. هل يمكنك فقط أن تريني مكان الحمام؟ أنا بحاجة إلى تنظيفه قليلًا بالمياه فحسب».

كان هنريك يراقبني بوميض من الترقب في عينيه، بينما كنت أتبع الخادمة ممسكة بتنورتي. قادتني عبر الطريق نفسه الذي جئنا منه، وأطلقت تنهيدة ارتياح عندما رأيت باب غرفة المكتب.

وقفت أمام باب الحمام، وقالت لي: «تفضَّلي. هل أنتِ متأكدة أنك لست بحاجة إلى مساعدتي؟ سيسعدني أن...»

لوَّحت لها بيدي لأصرفها: «إنها مجرد بقع بسيطة، شكرًا لكِ».

انحنت لي انحناءة بسيطة على مضض قبل أن تندفع عائدة إلى غرفة الطعام. فتحت باب الحمام على مصراعيه بقوة، وتركته ينغلق محدثًا صريرًا عاليًا. وعندما لم أعد أسمع صوت خطوات في الخارج، توجهت ببطء وهدوء نحو الردهة، كان باب غرفة المكتب مغلقًا، لكنه انفتح بسهولة عندما أدرت المقبض، فانسللت إلى الداخل دون إحداث أي صوت.

عم الظلام الغرفة الصغيرة، وكانت المدفأة باردة، لكن القمر المكتمل في الخارج قد ملأ النافذة بضي ناعم. لم أُضِع أي وقت، فسحبت الدبوسين الإضافيين من شعري، ثم درت حول المكتب وجلست على المقعد الجلدي، وتحسست فتحة القفل بطرف إصبعي قبل أن أضع الدبابيس داخله.

تردد صدى أنفاسي عاليًا في أذنيَّ، وتسارعت نبضات قلبي. فلم يتحرك الدبوسان بخفة كما كانا يفعلان في القفل الخاص بصندوق هنريك؛ إذ لم ينزلقا إلى الداخل بنجاح خلال المحاولة الأولى.

حاولت مجددًا، ولم يستجب دبوسا الشعر في البداية بسهولة، لكنهما بدأ يؤديان عملهما جيدًا، تنفست الصعداء عندما بدأ الأمر يسير على ما يرام. ثم عضضت على شفتي السفلى عندما نجحت في فتح القفل أخيرًا.

انفتح المزلاج البرونزي، ومددت يديَّ داخل الدرج للبحث عن دفتر الحسابات. تعاملت مع الأمر بحذر شديد، وحرصت على ألا أحرك أي أوراق أو أختام شمعية في الداخل، كانت يداي الصغيرتان تتنقلان بدقة عبر الدرج، لكنني لم أجد الدفتر.

وضعت يديَّ على فخذيَّ يأسًا، وأخذت أتفحص الغرفة من حولي حتى وقعت عيناي على خزانة مثبتة في الحائط، وكانت هي أيضًا مغلقة بقفل. لكنه كان مختلفًا، فكان ذا شكل دائري وله ثقب أكبر، وبدا مزلاجه أكثر تعقيدًا.

أغلقت الدرج بهدوء، وأغلقت القفل، ثم أعدت المقعد إلى مكانه قبل أن أتوجه إلى الخزانة لأحاول فتح قفلها، وضعت دبوسًا واحدًا في الداخل وأنا أتحسس طريقي على طول القفل، كان مشابهًا للآخر لكن في داخله يوجد المزيد من الأخاديد، والمزيد من الأسنان التي يجب التغلب عليها. ابتلعت ريقي، محاولة التحكم في أنفاسي، وكانت يداي زلقتين ومرتعشتين.

بمجرد أن وضعت الدبوسين مكانهما داخل القفل بدأت العمل، حيث قمت نظمت شهيقي مع زفيري، بينما تشكلَّت طبقة رقيقة من العرق البارد على بشرتي. إذ ستأتي الخادمة في أي لحظة للاطمئنان عليَّ، وإذا فُتح الباب، فلن تكون هناك أي طريقة لإخفاء ما كنت أفعله.

أغلقت عينيّ وبدأت تحريك الدبوسين بدقة وتناغم بالضبط كما علمني إزرا. انفتح القفل أخيرًا. ولم أستطع في الحقيقة أن أتأكد مما إذا كان ارتعاش يديّ هو ما ساعدني على فتحه. لكنه عندما فُتح أخيرًا، فتحت عينيّ. وخرجت صرخة صغيرة من فمي لا إراديًا.

فتحت باب الخزانة، ومددت يدي إلى الداخل، وأخذت أقلب في الأوراق حتى وجدت الدفتر المطلوب، كان عبارة عن كتاب صغير ذي غلاف جلدي يشبه ذلك الذي يحمله هنريك دائمًا، أخرجته وأملته تجاه ضوء القمر، وقلبت صفحاته وأنا أقرأ بأسرع ما أمكنني، تصلبت عندما رأيت الاسم مكتوبًا في العمود الأيسر مرارًا وتكرارًا بخط اليد نفسه: هولاند.

شعرت بهدوء داخلي مفاجئ، وأغلقت الكتاب على الفور، ثم أعدته إلى مكانه. وفكرت في أن هنريك بذلك قد حصل على كل ما يريده: رعاية وشيكة من سايمون، وأداة للضغط عليه، وصانع فضة لإثارة إعجاب النقابة بأعماله الرائعة، وابنة أخت يستخدمها بوصفها ورقة رابحة في صفقة التفاوض التي كان على وشك أن يبرمها.

أغلقت الخزانة بهدوء، ثم أغلقت القفل، وأعدت الدبوسين إلى شعري. أظهر خالي براعة إستراتيجية، وخطَّط بمهارة لرحلته إلى النقابة، لكن على الرغم من ذلك أصبحت لديَّ الآن مصادر نفوذ خاصة بي.

الثامن عشر

ساد جو شديد البرودة أرجاء المدينة، فارتجفت، وأحكمت عباءتي أكثر حول جسدي، بينما كنا نسير في الشارع المظلم. لم نتبادل كلمة واحدة منذ أن غادرنا منزل سايمون، فكان ثلاثتنا أشبه بمجموعة من الظلال المتحركة على جدران المباني. وكان هنريك يسير بسرعة كبيرة لدرجة أنني لم أتمكن من اللحاق به، وانتظر حتى مررنا أسفل الممر في لوير فالي قبل أن يسألني أخيرًا.

قال بينما كان يسير بالوتيرة السريعة ذاتها دون أن يبطئ ولو قليلًا: «هل وجدت ما طلبت منك البحث عنه؟».

أحكمت قبضتي على تنورتي، بينما تردد صوت ضربات حذائي على الأرض. أدركت أنني أثرت حفيظة خالي خلال عدة مواقف الليلة. والموقف الأول كان توبيخي إياه عقب تعليقه على إزرا قبل العشاء. وتوقعت حينها أنه سيتخذ رد فعل على ذلك، بيد أنني لم أكن أعرف متى سيحدث ذلك. والطريقة الأخرى كانت من خلال دفتر الحسابات.

رتَّبت في ذهني طوال الفترة المتبقية من الليلة الكلمات التي سأقولها له بينما كنت أتظاهر بالاستماع إلى كوين. لم يكن صوته أكثر من مجرد طنين في رأسي بينما كنت أرتب الكلمات في ذهني. ولم أكن أحب أن يستغلني أحد، وكان ذلك هو كل ما فعله هنريك منذ أن دخلت منزله. لكن المعلومات التي عرفتها عن هولاند أعطتني بعض النفوذ للمرة الأولى منذ أن نزلت من متن سفينة جاسبر؛ لذا عزمت على استغلالها لصالحي.

قلت له: «لم يكن هناك».

توقف هنريك عن سيره، والتف نحوي قائلًا: «ماذا؟».

حافظت على رباطة جأشي بينما كنت ألف أصابعي في توتر شديد حول تنورتي من تحت عباءتي حتى لا يمكنه رؤيتها. شعرت بالامتنان للظلام الذي حماني غطاؤه من نظرات هنريك الثاقبة حين نظر إليّ مضيقًا عينيه، فلم يستطع رؤية تعبيرات وجهي، ثم قلت له: «لقد وجدت دفتر الحسابات لكن لم يكن هناك أي ذكر لهولاند».

حدَّق هنريك إلى وجهي بينما بدا بوضوح أن الأفكار تتصارع في رأسه، رفع إحدى يديه، وعبث بشاربه الكثيف قبل أن يلقي بنظراته إلى الأرض. أحببت رؤيته مفاجئًا ومضطربًا هكذا.

قال بصوت خفيض كأنه يحدِّث نفسه تقريبًا: «لا بد أنك قد أغفلتها».

قلت له: «لقد تفحصت الدفتر عدة مرات. وإذا كان يتعامل مع هولاند، فلا بد أنه لا يحتفظ بالإحصاءات الخاصة بتعاملاتهما في دفتر الحسابات».

بذل هنريك قصارى جهده للسيطرة على ردة فعله، ولم أتمكن من تحديد ما إذا كان ذلك لمصلحته أم لمصلحتي. وساد الصمت بيننا فترة طويلة، لكن قلبي كان ينبض بشدة أثناء ذلك. وبينما توقعت في تلك اللحظة أن تطالني نظرات الشك من جانبه، سمعته يطلق تنهيدة عالية.

تمتم: «يا إلهي!». ثم أطلق زفيرًا مجلجلًا، بينما كان يضع يديه على خصره. يبدو أنه كان يحيك مؤامرة جديدة، ويبحث عن خطة جديدة ضمن خريطة أفكاره المعقدة.

تنهدت، وحاولت أن أتصنَّع الحزن والأسف قائلة: «أنا آسفة حقًّا». كانت هذه هي المرة الأولى التي شعرت فيها بأنني أمتلك اليد العليا، وكان شعورًا جيدًا أن أشاهده وهو يتألم ولا يدري ماذا يفعل.

وضع يده على كتفي، وقال: «لا بأس، لقد أبليت بلاءً حسنًا الليلة». فاجأني بهذا الإظهار العرضي لمشاعر المودة. وحدقت إلى يده التي وضعها على كتفي، حتى أدركت أنه كان ينتظرني أن أنظر إليه، وعندما فعلت لمس الكدمة الباهتة على خدي برقة، كانت هذه البادرة تحمل إحساسًا أبويًّا بالحماية.

قلت له حينها: «أنا أكثر قوة مما أبدو عليه».

قال بجدية: «أنا أعرف ذلك».

نظر بعينيه إلى الظلام من خلفي قائلًا: «أعتقد أنه حان وقت حصولها على العلامة».

استدرت إلى الوراء فوجدت إزرا يقف خلفنا، كانت بذلته سوداء فاحمة بلون الظلام، فبدت قطعة منه، بينما توهجت ياقته وأسورتا كميه، ومع ذلك بقي وجهه مختفيًا في ظل الممر.

قال هنريك: «أريد أن يجري ذلك الليلة».

أومأ إزرا موافقًا.

عاد الألم إلى معدتي مرة أخرى وأنا أنقل ناظريَّ بينهما. لقد كان يتحدث عن ذلك النقش الذي يوضع على ذراع كل فرد من عائلة روث تمييزًا لهم من غيرهم.

وبعد ذلك دار هنريك على عقبيه، وسار بخطى واسعة أمامنا، وتبعه إزرا دون أن ينتظرني. وبدأت الرياح تشتد، فسحبت قلنسوة عباءتي ووضعتها على رأسي، بينما لاحظت تضاؤل حجميهما كلما ازدادا بعدًا عني، وتباطأت نبضات قلبي أخيرًا. لقد صدَّقني دون أدنى شك. والآن كان مستعدًّا ليمنحني ختم رضاه الأعلى شأنًا: علامة عائلة روث.

شعرت بأنه كان قرارًا حتميًّا لا رجعة فيه.

عندما عدنا إلى المنزل كان مورو في المقهى، وكازيمير في الميناء. كما تبينت أيضًا خلو المطبخ من أي حركة عندما مررت به في طريقي إلى ورشة العمل حيث اختفى إزرا. كان هنريك دخل إلى غرفة مكتبه منفردًا بنفسه؛ وكان على الأغلب يعمل على إيجاد خطة جديدة لتأمين رعاية سايمون له.

كانت ورشة العمل أكثر برودة من الليلة السابقة؛ إذ لم ينبعث من الجمر الموجود في المسبك سوى وهج خافت. وعندما تفحصت طاولة عمل إزرا، لاحظت قطعًا من الفضة مصنوعة بدقة ومرتبة بعناية، فيما بدا أشبه بأوراق الشجر الرقيقة.

ألقى قماشة التلميع فوقها كأنه لم يحب أن أتفحص عمله، ثم ذهب إلى أحد الأرفف لإحضار صندوق خشبي صغير.

سألني: «هل أنتِ مستعدة لذلك؟».

فككت أربطة عباءتي وتركتها تنسدل عن كتفيَّ، وقلت: «وهل لديَّ خيار آخر؟».

أجابني إزرا: «على الأغلب، لا».

تسارعت نبضات قلبي، ونظرت إلى ذاك الجزء من ذراعي حيث ستكون العلامة. دائمًا ما تخيلتها في ذاك المكان مرات لا حصر لها، بينما كنت أتأمل بإعجاب العلامة التي لدى ساريا منذ أن كنت صغيرة. بدا الأمر دائمًا كأنه طقس رمزي للانضمام، وادعاء بالانتماء. وقد ملأني ذلك بالفخر عندما كنت طفلة صغيرة في مدينة لا أشعر بالانتماء إليها، ولا أرى فيها أي مستقبل لي. لكنني اعتقدت أنه ينتظرني هنا مع عائلة روث مجد عظيم أريد تحقيقه، وهو اعتقاد رغبت بشدة في التمسك به.

بطريقة ما، كنت أتوق إلى اليوم الذي سأحمل فيه علامة عائلة روث، فعلى الأقل حينها كنت سأشعر بالانتماء الحقيقي.

تساءلت بصوت عالٍ بينما كنت أتتبع بيدي ذاك المكان الذي ستوضع عليه الرسمة: «ما الذي قد يتغير حقًّا؟».

قال إزرا وهو يضع الصندوق: «فيما يتعلق بالحماية في هذه المدينة، فهذا ثاني أفضل شيء بعد محفظة مليئة بالعملات».

رفعت يدي بشرود، ولمست الجرح على شفتي إذ كان لا يزال في طور الشفاء. كانت العلامة هي ما بحث عنه آرثرعندما ذهبت لتحصيل الأموال من أجل هنريك، فلو كانت لديَّ ما تجرأ على لمسي. وعلى الرغم مما أخبرتني به ساريا دائمًا عن أهمية الفساتين الفخمة والمجوهرات الثمينة، كانت علامة عائلة روث هي الدرع الحقيقية الوحيدة التي أملكها.

قلت وأنا أفكك أزرار كم ثوبي: «إنني مستعدة».

وضع إزرا شمعة مشتعلة قبل أن يفتح الصندوق، كانت محتوياته مرتبة بدقة، حيث وُضعت عدة إبر ذات أحجام مختلفة. وكانت لكل منها نهاية مسطحة من أحد أطرافها، ورأس مدبب من الطرف الآخر، بالإضافة إلى زجاجة من الحبر وقطعة خشبية مربعة.

بسط قطعة قماش نظيفة في الموضع الفاصل بيننا، ثم رتب الأغراض في صف منظم بسلاسة كأنه اعتاد فعل ذلك ألف مرة؛ لكنني شعرت بالقلق وأنا أشاهد يده الخشنة والمشوهة بالندوب تلتقط فرشاة الرسم الصغيرة. فتح زجاجة الحبر، فعُبِّق الهواء برائحة نفاذة عندما غمس الفرشاة الصغيرة داخلها. قلب القطعة الخشبية بعد ذلك فكشف عن النقش المميز المنحوت في الجانب الآخر منها؛ ثعبانان متشابكان يبلع أحدهما ذيل الآخر. وقام بطلاء الحبر الأسود بعناية على ذلك النقش متجنبًا بمهارة زوايا القطعة الخشبية. وعندما انتهى تناولها بإحدى يديه، ثم مد يده الأخرى وهو يفتحها انتظارًا لأضع ذراعي بها.

قطع صوته العميق الصمت قائلًا: «أعطيني ذراعك».

ترددت قبل أن أضع ذراعي في يده المفتوحة، وشاهدت فكه ينقبض بينما كانت أصابعه تلتف حول المنطقة فوق معصمي مباشرة، ثم أحكم قبضته على ساعدي وهو يديره، ليجعل مفاصل أصابعي بمحاذاة الطاولة. ثم وضع الجانب المطلي بالحبر الأسود من القطعة الخشبية على جلدي وضغط عليها بقوة. وأخذ يحركها من جانب لآخر على ساعدي، وعندما رفعها، رأيت العلامة مطبوعة بلون أسود مثالي.

ثم قال: «لا تتحركي»، واستغرق وقتًا حتى نظف الكتلة الخشبية نفسها. وتلألأ الحبر وهو يجف على ذراعي، ثم مد يده وتناول إبرة بينما كان يمسك بمعصمي. اقترب أكثر وتفحص العلامة الموجودة. وعندها استطعت أن أشتم رائحته المميزة: رائحة القرنفل والشاي الأسود النفاذة.

نظر إليّ وقال: «استرخي».

قلت بشكل أكثر حدة مما كنت أنوي: «أنا مسترخية»، لكنه كان قريبًا جدًّا لدرجة أنني شعرت بأنفاسه على جلدي.

نظر إليّ نظرة تنم عن فهمه طبيعة مشاعري في تلك اللحظة: «أستطيع أن أشعر بقوة نبضاتك».

شعرت بالدماء تندفع إلى وجهي عندما نظرت إلى إبهامه وهو يضغط بقوة على معصمي ليثبت ذراعي. وعندما أدركت أنني لا أتنفس، تنفست سريعًا، فترك يدي فجأة.

سألته: «ماذا تفعل؟».

لم يرد، وتوجَّه إلى الجانب الآخر من طاولة العمل، وانحنى ليبحث في الصناديق الموجودة في الأسفل. وبعد البحث في بعض الأدوات، وقف ممسكًا بزجاجة داكنة ذات سدادة في يد، وكأس خضراء صغيرة في اليد الأخرى. وضع الكأس أمامي، ثم فتح الزجاجة وسكب منها في الكأس، فانتشرت رائحة المشروب في الهواء.

جلس دون أن ينطق بكلمة واحدة، وانتظر ويداه مطويتان فوق فخذيه. تنهدت قبل أن ألتقط الكأس وأتجرع ما فيه، فرفعته مرة واحدة، وابتلعته دون أن أختنق، لكن عينيَّ دمعتا بشدة، وشعرت بحلقي يحترق.

عندما أعدت الكأس إلى الطاولة، ملأها إزرا مرة أخرى، والتقطها وابتلع ما فيها من مشروب دفعة واحدة أيضًا.

حدقت إليه، لم أكن الوحيدة التي أحتاج إلى الاسترخاء؛ إذ يبدو أن إزرا ظل متوترًا بشدة طوال الليل منذ حديثنا مع هنريك في غرفة المكتب قبل الذهاب إلى العشاء.

وضع الكأس، والتقط الإبرة التي توهجت وهو يقلبها فوق لهيب الشمعة ببطء. ثم أمسك مرة أخرى معصمي بيده اليسرى، لكن بلطف أكبر هذه المرة. وشعرت على الفور تقريبًا بتأثير ذاك المشروب الذي تناولته من فوري؛ حيث غمرني الدفء على الرغم من برودة الورشة.

قال: «ستؤلمك الإبرة قليلًا في البداية إلى أن يخدر الألم عقلك نوعًا ما».

غمس الإبرة في وعاء الحبر الصغير، ثم أمسكها في تأهب فوق العلامة كأنه يقرر من أين يبدأ، تبينت اللحظة التي اتخذ فيها القرار، حيث أرجع كتفيه إلى الوراء، وشد قبضته على معصمي. أشعلت الوخزة الأولى ألمًا شديدًا في جسدي، وقاومت رغبتي في إبعاد ذراعي عن قبضته. انتظرني بصبر حتى أهدأ قبل أن يستمر، ثم أعاد وخز جلدي بطرف الإبرة في إيقاع مستمر.

كززت على أسناني بشدة عندما بدأ الألم يستعر في جسدي كالنار، وحاولت ألا أقبض يدي. لم يبدُ أن إزرا قد لاحظ ذلك، فقد كان شديد التركيز على عمله لدرجة أنه بعد بضع دقائق بدا كأنه قد نسي وجودي تمامًا.

تفحصت وجهه من كثب، وراقبت زوايا فمه، كانت لحيته حليقة ونظيفة، وشعره كان مهذّبًا بعناية مثالية حول أذنيه، كان مهندمًا وأنيقًا تمامًا فيما عدا الندوب التي غطت يديه وذراعيه.

سألته برقة وأنا أغلق عينيّ في محاولة لتجاهل الشعور بالألم الذي يحدثه وخز الإبرة: «هل تسببت أعمال صياغة الفضة في هذه الندوب لديك؟».

أجاب وهو يقترب مني: «نعم».

استنشقت رائحته مرة أخرى، لكن هذه المرة عن قصد. وكان قلبي لا يزال يخفق بسرعة، لكنني خشيت أن الإبرة لم تكن هي السبب في ذلك، بل كانت حقيقة أنني أحببت لمساته، أحببت أنه كان قريبًا مني.

لكن إزرا ظل لغزًا غامضًا بالنسبة لي بقدر ما كان جذابًا. فقد حظي باحترام العائلة، وتقدير هنريك، وولاء مورو. لكن ما لم أستطع فهمه هو وجهة نظر إزرا عن الآفاق الجديدة التي تتكشف أمام العائلة، وموقفي ضمن هذا المشهد كله.

جلست في مواجهته على الطاولة أثناء تناولنا العشاء، وكنت ألاحظ حينها كل مرة يتوتر فيها، وأشعر بالتحولات التي تطرأ عليه حين تتجه عيناه نحوي. ودائمًا ما برعت في معرفة الوقت الذي أستحوذ فيه بشكل كلي على اهتمام رجل ما، لكن موقف إزرا كان مختلفًا. فقد كان حريصًا على الحفاظ على وضع مسافة بيننا، وكلما اعتقدت أنني رأيت شرارة عاطفة في عينيه، تختفي سريعًا، وتحل محلها نظرة جامدة لا توحي بأي شيء.

قلت وأنا آمل ألا يجعله فضولي ينفر مني: «قال كوين إنك كنت تعمل لدى سايمون».

استغرق وقتًا أطول في الإجابة هذه المرة، ثم قال وهو يعيد غمس الإبرة في وعاء الحبر: «هذا صحيح».

شعرت بشيء دافئ ينزلق نحو مرفقي، فنظرت إلى الأسفل لأرى الدم يسيل على جلدي، التقط إزرا قطعة القماش ومسحه جيدًا قبل أن يواصل عمله مرة أخرى. حدقت إلى البقعة الحمراء الزاهية التي أحدثها الدم على القماش الأبيض.

كان على حق، فبعد بضع دقائق لم يفارقني الألم، لكنه لم يعد يضرب أحشائي بقوة في كل مرة يغرس الإبرة في جلدي. وهدأت قليلًا عندما أدركت أنه كان يبذل قصارى جهده لكيلا يؤلمني. كانت تحركاته دقيقة ومحددة، كما أنه كان سريعًا في ذلك.

سألته مجددًا: «كيف انتهى بك المطاف هنا إذن؟».

أجاب: «من خلال لعبة ثري ويدوز».

سألته مندهشة: «ماذا تقول؟».

أجاب إيزرا: «حصل عليَّ هنريك بعد أن فاز على سايمون في لعبة ثري ويدوز».

أحكمت قبضة يدي بقوة بينما شعرت بنار تضطرم بين ضلوعي. إن هذا ما كان يقصده إذن عندما أخبرني بأنه قد فقد ما يكفي على طاولة النرد.

سألته بنبرة أكثر نعومة: «كم كان عمرك؟».

استقام ظهره وهو يغمس الإبرة في الحبر قائلًا: «اثنا عشر عامًا، على ما أعتقد أو أحد عشر، لا أعرف بالضبط». وظل مركزًا على جلدي، ومسح عنه الدم الذي كان لا يزال يقطر.

أجاب عن أسئلتي بسهولة، وبلهجة مختلفة عن محادثاتنا المعتادة. وامتنعت عن طرح المزيد من الأسئلة لعدم رغبتي في المخاطرة بتغيير الأجواء الإيجابية السائدة بيننا حاليًّا.

بدأ العمل من جديد لكنني لم أشعر بأي ألم يذكر؛ فقد كانت بشرتي متخدرة إلى حد كبير. وشاهدت لهب الشمعة يتضاءل بينما كان يعمل في صمت تام مركزًا تمامًا فيما يفعله، حتى

بدا أنه نسي وجودي معه مرة أخرى، بينما كانت عيناه تنضحان بنظرات مشابهة لتلك التي كان ينظر بها إلى المسبك أثناء عمله على صهر المعادن.

بمجرد أن انتهى اعتدل في جلسته، ووضع الإبرة على الطاولة، ثم مسح ذراعي كلها حتى اختفى الحبر السائل وآخر قطرات من الدم. لقد جفلت من شعور الوخز الموجع، لكن عندما رفع الرسمة النهائية أمام الضوء اتسعت عيناي في دهشة، فما بدا في البداية مجرد بقعة سوداء فوضوية تحول إلى نقش رائع مميز لعائلة روث. ورأيت عيون الثعبانين تحدق إليَّ وهي مفتوحة على وسعها.

قلت: «إنه...»، ثم تبخرت الكلمات من على شفتي.

تجعد جبين إزرا: «ماذا؟».

ارتسمت ابتسامة على شفتيَّ، ثم هززت كتفيَّ. لم أكن متأكدة مما أردت أن أقوله، لقد غمرني شعور بالراحة بمجرد رؤيتي ذلك النقش على ذراعي على الرغم من النار المستعرة في جلدي الملتهب. وبدا لي أن الأسبوع الماضي كان حلمًا استيقظت منه في الحال في باستيان.

لم يكن ذلك النقش مجرد رمز يمثل العائلة، أو يدل على وجود صلة بيننا، وإنما كانت تحمل أهمية أعمق، يمكنني أن أشعر بها داخل نفسي.

ألقى قطعة القماش، ثم وضع ذراعيه على الطاولة مشبكًا إياهما، وسألني: «لماذا كذبتِ على هنريك فيما يتعلق بدفتر الحسابات؟».

تجمدت، وشعرت بتقلص كل عضلة في جسمي، وقلت له في دهشة: «ماذا تقول؟».

قال لي بنبرة ثابتة هادئة: «أنتِ قد كذبتِ على هنريك، فلماذا فعلتِ ذلك؟» وانتظر إجابتي. لم يحمل سؤاله في طياته اتهامًا، لكنني لم أستطع أن أفهم مغزى نظرات عينيه في تلك

اللحظة، لكنه كان هادئًا، بل هادئًا للغاية.

عندما لم أجبه، سألني مرة أخرى: «هل تشعرين بالذنب؟». زممت فمي، وأوشكت الكلمات تتدفق على لساني، ولسبب ما أردت أن أخبره بالحقيقة، لكنني لم أستطع أن أنطقها.

فخمَّن قائلًا: «هل أعجبك صانع الساعات؟».

كيف تمكن من ذلك؟ بدا دائمًا كأنه يستطيع فهم ما يدور في عقلي.

ثم سأل مجددًا: «وماذا عن ابن صانع الساعات؟».

رفعت عينيَّ سريعًا نحوه، واندفعت الدماء إلى وجهي فتوردت وجنتاي. تنهد بعمق ثم رفع يده نحو فكه وفركه بأطراف أصابعه، ثم قال: «آسف، لم يكن عليَّ قول ذلك».

سألته وأنا أحدق إليه: «لماذا قلته إذن؟».

لم يكن هناك داعٍ ليجيبني، فقد كان السبب مرسومًا على وجهه منذ أن كنا في غرفة المكتب لدى هنريك قبل أن نذهب إلى العشاء في بيت سايمون. ولم تعجبه فكرة زواجي بكوين، كما لم يرق له أن يرانا معًا عند سايمون، لكن الحقيقة الأكثر إثارة للقلق كانت أنني شعرت بالارتياح لانزعاجه من ذلك الأمر.

حدقت إلي يده الموضوعة على الطاولة، وعيناي تتبعان الندوب الشاحبة التي غطت جلده. ومنذ أن لمسته للمرة الأولى في غرفة المكتب، وأنا أشعر بوجوده في كل وقت تقريبًا. وقبل أن أفكر جيدًا في الأمر، رفعت يدي وتركتها تنزلق عبر الطاولة حتى وصلت إلى يده.

ظل إزرا ساكنًا وهو يراقبني أتلمس الندوب على يده بطرف إصبعي، وعندما لم يبتعد عني شبكت أصابعي بأصابعه. وفي لحظة عابرة، طغت على وجهه علامات الضعف والألم، وأخذ يحدق إلى يدينا المتشابكتين، وبدا أن مئات الأفكار تتصارع في ذهنه في تلك اللحظة.

ابتلع ريقه بصعوبة، وقال وهو يحدق إلى عيني: «برين. إن خالك هنريك لديه خطط محددة من أجلك. أنتِ تفهمين ذلك، أليس كذلك؟».

في الحقيقة لم أكن أهتم بذلك. فالشيء الوحيد الذي اهتممت به كان ذاك الشعور الآسر الذي ينتابني في كل مرة ينظر فيها إليَّ.

ثم أضاف وهو يتفقد الغرفة بعينيه: «إن هذه الخطط هي جزء من الوضع العام ككل. وجزء متأصل في هذه البيئة التي نعيش فيها».

نهضت ببطء من مقعدي، فانسالت تنورتي حول ساقي. وانحنيت على الطاولة دون أن أترك يده. واقتربت منه بينما ظل ساكنًا تمامًا، وشاهدت شفتيه تنفرجان، نظر إلى فمي طويلًا، ومرت الثواني ببطء حتى شعرت بأنني لا أستطيع التنفس. كان قلبي ينبض بشدة، وكانت نبضاته تتردد في كل شبر من جسدي. أردت الاقتراب منه بقوة في تلك اللحظة.

فجأة سمعنا صرير الباب، فسحب إزرا يده من يدي سريعًا، ووضعها على الطاولة. التفتنا فوجدنا ترو يقف في المدخل قائلًا: «هنريك يريد أن يراك».

بدا إزرا مشدوهًا لوهلة، وأغلق الصندوق بشكل غريب، وهب واقفًا.

قال ترو وهو ينظر إليَّ: «ليس أنت، وإنما برين».

التاسع عشر

ظل الإحساس بدفء لمسة إزرا حيًّا على أصابعي، أما الآن، فكانت يداه مخبأتين في جيبي بنطاله، بينما بدت عضلات ذراعيه متشنجة بشدة، فقد كانت مشدودة بقوة.

غادر ترو بالفعل تاركًا باب الورشة مفتوحًا قليلًا. وكان بإمكاني أن أشم رائحة دخان غليون هنريك المنبعث من غرفة مكتبه.

قال إزرا: «من الأفضل أن تذهبي الآن»، لكن صوته كان مكتومًا، وبدا أنه كان يشعر بالتوتر والقلق الشديدين.

أرخيت يدي على الطاولة بينما شعرت بألم شديد يجيش في صدري. وراودني شعور مفاجئ بالحماقة وأنا أقف مرتدية ثوبي اللامع في ضوء الورشة الخافت، وقد انكشفت جميع أوراقي أمام إزرا، بينما لم يكشف هو عن شيء.

أحكمت قبضتي يديَّ الزلقتين على تنورتي، واتجهت نحو الباب، لكن صوت إزرا أوقفني: «انتظري».

التفت إلى الوراء، وهدأ ما في صدري من ضيق قليلًا ما سمح لي بالتنفس.

نظر إليَّ إزرا قبل أن يتوجه نحو الرف على الحائط، ويلتقط عبوة دائرية صغيرة. ثم سار نحوي وهو يحملها، وقال بينما كان ينظر إلى ذراعي مكان النقش تحديدًا: «ضعي منها مرتين في اليوم حتى يُشفى الجرح».

نظرتُ إلى المكان الذي كان ينظر إليه، وتذكرت فجأة وجود ذلك النقش على ذراعي، وبالتحديد على باطن ذراعي، حيث كان كُم ثوبي ما زال مرفوعًا حتى مرفقي. كان شعوري بجلدي الملتهب يكاد يكون غير محسوس؛ إذ كنت متأثرة تمامًا بقرب إزرا مني ما أصابني بحالة من الخدر.

استدار وتوجَّه نحو الطاولة المحاذية للحائط، وتركني أقف هناك وحيدة. لقد أردته أن يقول شيئًا؛ أي شيء ليجعلني أشعر بأنه لم يتخلَّ عني، وعندما لم يفعل ذلك قبضت على العلبة بكلتا يديَّ وتركته في ورشة العمل.

بينما كنت أسير في الردهة ذات الإضاءة الخافتة، بدا المنزل خاليًا، لكن ظل هنريك كان يتحرك بدقة وخفة على الأرض.

جاء صوته بينما كنت أرفع يدي لأطرق الباب قائلًا: «ادخلي».

انفتح الباب، ورأيت هنريك يقف بجوار المدفأة ينفث دخان غليونه بهدوء. امتلأت الغرفة برائحة الدخان المألوفة ما جعل المشهد أشبه بإحدى اللوحات الزيتية التي ترسمها ساريا. وكانت سترته ملقاة على أحد المقاعد الجلدية، لكن قميصه الأبيض ظل مزرَّرًا حتى الرقبة.

تسلل شعور بالخوف داخلي ببطء، فيما سرت قشعريرة شديدة في جسدي. كنت أخشى أن يكتشف أنني قد كذبت عليه مثلما فعل إزرا. أو أنه أراد أن يوبخني بسبب ما قلته له أثناء العشاء، أو ربما قد عرف بشأن القبلة التي كادت تحدث في ورشة العمل، أو ربما يكون قد علم بالمشاعر التي تضطرم في قلبي في كل مرة أفكر فيها في إزرا.

انتبه إلى ذلك النقش على ذراعي فابتسم، ودار حول المكتب ثم أمسك بمعصمي، ورفع ذراعي نحو ضوء المدفأة لكي يتفحصه بدقة، وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه تقريبًا: «جيد جدًّا».

رأيت في عينيه نوعًا من الشعور بالملكية لم يعجبني، ونزعة هائلة للتملك أثارت قلقي للغاية.

ترك ذراعي، وعاد ليقف إلى جوار المدفأة مجددًا، وقال: «أردت أن أتحدث معكِ على انفراد».

فقلت له: «حسنًا».

أشار لي بالجلوس على أحد المقاعد، لكنه ظل واقفًا، لكنني لم أملك إلا أن أتساءل عما إذا كان قد فعل ذلك من أجل أن ينظر إليّ بازدراء. لكن بعد بضع لحظات من الصمت، غيَّر رأيه، وجلس على المقعد الآخر واضعًا ساقًا فوق الأخرى، بينما سمح لخيط آخر من الدخان بالهروب من شفتيه.

ثم قال: «أردت أن أخبرك بأنني فكرت فيما قُلته».

انتظرت أن يكمل.

أضاف: «أعني فيما يتعلق ببيت الشاي الخاص بوالدتك، لقد رأيت أنكِ محقة بالفعل».

شعرت بأن هناك فخًا ما بين كلماته، شيئًا مختبئًا وراء ما كان يقوله. فقد أخبر سايمون بالفعل عن خطته لافتتاحه، وقبل هذه اللحظة لم يقل لي كلمة واحدة عنه.

استطرد وعيناه تلمعان: «ورأيت أنكِ ستكونين مثالية لهذه المهمة».

سألته متعجبة، إذ لم أستطع أن أخفي دهشتي: «هل تريدني أن أتولى إدارته؟».

ضحك حتى ظهرت أسنانه البيضاء، وقال: «نعم، أريد ذلك بالطبع، لقد كانت فكرتك».

أرخيت قبضتي على ذراع الكرسي، وأسندت ظهري إلى الخلف، فقد اتضح أنه لم يُقصني من هذه المهمة إذن.

وأكمل حديثه قائلًا: «أنتِ تعرفين عن تلك الأشياء أكثر مما أعرف كثيرًا، كما أنها ستكون وسيلة جيدة ليشتهر اسمك، ويُعرف وجهك في حي التجار. فقد أثبتِّ اليوم أنك ذات كفاءة، ولديك الكثير من القدرات الهائلة، فقد تعاملتِ مع هؤلاء التجار بشكل رائع».

حدَّقت إليه، ولم أدرِ ما يجب عليَّ قوله. كان رجلًا محيرًا ذا تقلبات مزاجية هائلة، ففي لحظة يبدو غاضبًا، وفي اللحظة التي تليها يبدو فخورًا سعيدًا؛ لذا وجدت صعوبة في مجاراة سلوكه المتقلب.

تألم جلد ذراعي الرقيق عندما مررت بأصابعي فوق العلامة. وكان ذلك هو كل ما في الأمر إذن، لقد كان يدمجني بشكل كامل في العائلة، ولم يعد هناك مزيد من التجارب أو الاختبارات.

فتح درج المكتب، وأخرج حقيبة كبيرة مليئة بالعملات، ووضعها أمامي.

سألته: «ما هذا؟».

أجابني: «لقد أردتِ حصة من أموال العائلة لتعملي بها، أليس كذلك؟».

قلت بنبرة خافتة: «نعم».

قال: «حسنًا، الآن تملكين حصة، فهذه العملات لكِ أنت. أعتقد أنك ستنجحين في تولي الأمر. سنحتاج إلى أن يكون بيت الشاي جاهزًا للعمل في أقرب وقت. أريد أن يكون كل فرد في النقابة قد زاره بحلول وقت التصويت في المعرض، فهل تستطيعين فعل ذلك؟».

نظرت إليه، وقلت بثقة: «نعم. أستطيع فعل ذلك»، ارتسمت على شفتيَّ ابتسامة، فقد أصبح قول هذه الكلمات سهلًا للغاية عليَّ بمرور الوقت.

بدا هنريك مبتهجًا، وقال: «يبدو هذا مناسبًا تمامًا، أليس كذلك؟ فقد كان بيت الشاي ملكًا لوالدتك إيدن، كما أن كل فرد في هذه العائلة لديه حصته، وهذه الحصة تناسبك أنتِ وحدك، ولكن الأهم من كل ذلك أنك قد اكتسبتِ ثقتي يا برين».

ومضت عيناي، وشعرت بالقلق يتسلل إلى أحشائي؛ أحسست في أعماق نظراته بأنه كان يفكر في العشاء عندما كنت أرتدي ثوبي الجميل وأبتسم لابن صانع الساعات منفذة تعليماته بالضبط، وها هو الآن يكافئني.

لقد حصلت على ما أريد، لكنني لم أكن فخورًا بالطريقة التي نلت بها استحسانه.

نظر في عينيَّ مباشرة وهو يقول: «لقد جمعنا إرثًا كبيرًا يا برين، جنيناه من خلال عمليات السرقة والاحتيال. لكن هذا كان هو الإرث الشرعي، وسيكون كما أرادته إدين».

حدقت بينما كان صدى اسم أمي يملأ الفراغ من حولنا في غرفة المكتب. لقد أراد أن يضفي الشرعية على عمل العائلة بالفعل، كما أراد أن يطهره من تاريخ الأحجار المزيفة والرشاوى والصفقات المشبوهة. ولم يكن ذلك يتعلق بإرث العائلة فقط، وإنما بإرث إيدن أيضًا، فهل يُعقل أن يكون الدافع وراء ذلك مرتبطًا بها هي؟

أردف خالي قائلًا: «كان لديَّ شعور - حتى عندما كنتِ صغيرة - بأنك مميزة وفريدة، وأنك ستلعبين دورًا مهمًّا في مصير هذه العائلة. حتى عندما لم يكن الآخرون متأكدين من مدى قدرتك على إحداث أي تأثير فعال لدى قدومك من نيمسمير، كنت متأكدًا أنك ستستطيعين. حتى إن إزرا كان...» ثم تلاشى صوته.

سألته بنبرة هادئة: «ماذا عن إزرا؟». حاولت ألا أبدو متلهفة؛ فقد عرفت أن أذن هنريك تستطيع أن تلتقط المغزى من وراء كلامي بكل سهولة.

أجابني: «كان واثقًا بأنك لن تنجحي في ذلك الأمر، فعندما ألقى عليكِ نظرة واحدة ليلة مجئيك إلى هنا قال إنك بلا فائدة، وإنك أضعف من تحمُّل عمل العائلة». ثم هز كتفيه

وتابع: «لقد أساء تقديرك».

انتابني شعور مفاجئ بالصدمة، فقد آلمتني كلماته كثيرًا.

ثم أردف: «إنها مجرد منافسة بسيطة، وينبغي لك ألا تشعري بالقلق بشأن ذلك على الإطلاق».

قلت له: «لكنني لا أنافسه».

قال: «بالطبع أنتِ كذلك». ثم وقف وتوجه نحو الرف فوق المدفأة، وشاهدته يعيد ملء غليونه بالتبغ، ثم أشعله موضحًا: «إنه يشغل منصبًا قويًا في هذه العائلة؛ لذا لا يبدو مفاجئًا أنه لا يريد أن يأتي شخص آخر ويسلبه هذا المنصب. لم يكن يريد أن أضمك إلينا، ونصحني بأن أعيدك إلى نيمسمير، لكنه سيغير رأيه بمرور الوقت بكل تأكيد».

افرددرت ريقي بصعوبة، وحرصت على عدم إظهار أي مشاعر على وجهي. وكنت أعرف أن إزرا لا يريدني هنا، وأنه لا يرغب في أن أشارك في أي عمل للعائلة. لكنني اعتقدت أن ذلك الشعور قد تغير الآن، ولم أتوقع أنه يحاول تحريض هنريك ضدي من وراء ظهري.

قال هنريك وهو يحدِّق إليَّ عبر سحابة الدخان التي نفثها من غليونه: «كوني حذرة يا برين. إن إزرا موهوب ومتقد الذكاء. لكنه على الرغم من ذلك يفتقر إلى عنصر مهم للغاية وهو الطموح، كما أن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها، إنه ليس من دمنا».

قلت له محاولة استيضاح الأمر: «أنت لا تثق به إذن».

اتكأ هنريك على الحائط، وقال وهو يفكر في الأمر مليًا: «إنه يخفي شيئًا ما. ربما عملًا جانبيًا، أو فتاة. فهذه ليست المرة الأولى التي يخفي فيها شيئًا مثل هذا. وربما يكون هناك شيء أكثر أهمية. سنعرف بمرور الوقت».

اختنقت الأنفاس خلف ضلوعي، حتى إنني شعرت بطبقات ثوبي تؤلمني بينما كنت أحاول التنفس بعمق.

ثم أضاف بنبرة أكثر لطفًا: «أنا أريد منك فقط أن تتحلي بالذكاء. إنك في طريقك لترسيخ مكانة عظيمة لنفسك داخل هذه العائلة، بيد أن إزرا يحاول أن يمنع ذلك. لكنني لا يمكنني الاستغناء عنه بأي حال، خاصة لرغبتي في الحصول على خاتم التاجر».

زفرت ببطء، وأردت أن أسأله عما يقصده لكنني كنت بالفعل على وشك أن أكشف مدى اهتمامي بما قاله، وآخر شيء أردته هو أن يكتشف هنريك السبب وراء شعوري بالألم، فقلت له بشكل مقتضب: «أنا أفهم ذلك».

قال وقد بدا عليه الارتياح: «جيد. لديك الكثير من العمل بدءًا من الغد. ستكونين مشغولة للغاية، وأود أن أسمع منك تقريرك الأول أثناء عشاء العائلة».

أومأت برأسي بطريقة تنم عن تفهمي وطاعتي أوامره، ثم نهضت من مقعدي وأنا أشعر بقلبي ينبض بسرعة وقوة. تحرك هنريك نحو المكتب، بينما كنت أفتح الباب، لكنني توقفت قليلًا وحدقت إلى الردهة المعتمة، ثم التفت نحوه مجددًا، وسألته: «وماذا عن كوين؟».

حدق هنريك إليّ، وتساءل متعجبًا: «لا أفهم مقصدك؟».

ثبت عينيّ في عينيه، وحاولت أن أنتقي كلماتي بحرص، وقلت له: «أنا لا أريد أن أتزوجه».

ضحك هنريك نصف ضحكة، ثم سألني متعجبًا: «أنت لا تريدين الزواج به إذن؟».

أجبته: «لا. إنني مستعدة لإعداد بيت الشاي على أفضل ما يكون وجني الكثير من الأموال للعائلة، وترسيخ مكانة كبيرة لعائلة روث في حي التجار. لكنني لا أريد أن أتزوجه».

قال ببساطة: «إذن، فلتثبتي لي ذلك».

تساءلت: «ماذا تعني؟».

أجابني: «عليك أن تثبتي لي أنك ذات قيمة لي هنا أكثر مما ستكونين عليه في منزل سايمون، وبعدها سنتحدث في هذا الأمر».

كززت على أسناني، واشتعل الغضب داخلي كما تشتعل الفضة في المسبك، وأحكمت قبضة يدي على الجلد الناعم لحقيبة العملات.

تمتم بصوت خافت قائلًا: «على الرغم من أن إزرا لن يكون مسرورًا بذلك».

نظرت إليه وتساءلت في دهشة: «ماذا تقول؟».

انحنى هنريك إلى الأمام، ونهض من مقعده قائلًا: «لقد كان يرى أنه من الضروري أن تتزوجي بكوين».

شعرت فجأة بالغرفة تدور من حولي كأن هناك رياحًا عاتية عصفت بجسدي كله، فتركته متهالكًا.

تمتمت بيني وبين نفسي: «إن إزرا هو الشخص الوحيد الذي يستمع إلى آرائه».

كان مورو قد أثنى على ذكاء إزرا، وقال إنه يستطيع التلاعب بالأشياء وإعادة صياغتها بما يخدم مصلحته بالضبط كما يعيد تشكيل الفضة ببراعة. وما آلمني أنني ظننت في الأيام القليلة الماضية أنني وجدت مأوى في صحبة صائغ الفضة، أحتمي فيه لدى شعوري بالخوف والقلق، لكنه كان يراهن على فشلي، ويستغلني كما فعلوا جميعًا.

نظر هنريك إليَّ مرة أخرى، وعلت ابتسامة لطيفة شفتيه، وقال: «صحيح يا برين، كنتِ جميلة بالفعل هذه الليلة».

كززت على أسناني بشدة حتى آلمني فكي، وتوجهت نحو الباب، ثم أغلقته وأنا أضم الحقيبة الثقيلة إلى صدري. اختفيت في ظلام الردهة بينما كنت متوجهة لصعود الدرج عائدة إلى غرفتي. وكان كل ذلك لعبة مخططة من هنريك، النقابة والمقهى وزواجي بكوين. وبدا أن كل شخص في ذلك المنزل مشارك في هذه اللعبة حتى إزرا.

اندفعت إلى غرفتي، وأوصدت الباب خلفي بقوة، أخذت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا وأنا أضغط بيديَّ الباردتين على وجهي الساخن. وعندما رأيت انعكاسي في المرآة توقفت قليلًا، وأخذت شهيقًا حادًّا.

رأيت داخل الإطار الذهبي للمرآة صورة للمرأة التي كان من المتوقع أن أكون عليها؛ جميلة، وعملية، ومطيعة للجميع. وبدا الثوب المزخرف الذي أرتديه أشبه بالثياب الأثيرية في ضوء تلك الشموع، فقد نجح في تحويلي إلى شخصية من قصة خيالية. ومع ذلك، في هذه اللحظة، كنت أكثر شبهًا بالشبح.

لقد سئمت من تحديق الجميع إليَّ باستمرار، وتقييمهم لي، وتحليلهم سلوكي، وإصدارهم الأحكام عليَّ.

سحبت مقعدًا من أمام الطاولة بجوار النافذة، ثم رفعت الريشة بشكل أخرق من وعاء الحبر دون أن أهتم إذا كان الحبر يتساقط على تنورتي. كتبت بينما تسارعت دقات قلبي، وتجمدت يدي بعض الشيء وأنا أوقع باسمي. وقعت عيناي على ذلك النقش المحفور على باطن ذراعي، التي بدت مشوشة نتيجة امتلاء عينيَّ بالدموع، وقد شعرت بأن هذين الثعبانين ينظران إليَّ.

أدركت أنه ما من أحد في هذا المنزل سيمنحني المكانة التي أستحقها، لذا كان عليَّ أن أقتنصها بنفسي.

طويت الورقة، وختمتها بالشمع، ثم قلبتها على ظهرها لأكتب عنوان مصمم الأزياء؛ إذ كنت أنوي إرسالها إليه. فقد كان هناك ثوب آخر أرغب في أن يحوكه لي.

العشرون

شعرت بأن كل الأعين كانت مثبتة علينا بينما كنت أسير أنا ومورو في حي التجار في منتصف الشارع جنبًا إلى جنب يغمرنا ضوء الصباح. تخطّى طول كتفيه رأسي ما جعل ظله يغمرني، كانت أحذيتنا تضرب الشارع المرصوف بالحصى في وتيرة متناغمة فيما يشبه قرع الطبول.

شعرت في تلك الأثناء بالحماسة الشديدة. فقد انتهيت من محاولات إثبات نفسي لخالي هنريك ولهم جميعًا، لكن ظل هناك شيء ينبغي أن أثبته لنفسي.

انتابني شعور بالانتماء إلى هذا المكان، ولا أعلم إذا كان ذلك بسبب ذلك النقش المحفور على ذراعي، أم بسبب المعلومات التي عرفتها عن هولاند وأخفيتها عن خالي، لكنني أخيرًا شعرت بأنني واحدة من عائلة روث.

لاحقتنا أثناء سيرنا معًا نظرات المارة الحادة، لكنهم ما لبثوا أن أشاحوا بنظرهم بعيدًا عندما بادلتهم النظرات ذاتها، واكتشفت أنني استمتعت كثيرًا بشعور القوة الذي منحني إياه ذلك الأمر. كان لا بد أن نوازن جيدًا بين عنصري التأثير والخطر إذا أردنا أن نرسخ لأنفسنا مكانًا في مجتمع النقابات، حتى يمكننا إبراز أي من العنصرين عند الحاجة إلى ذلك، ومن ثم يخشانا تجار باستيان وفي الوقت نفسه يرغبون في التعاون معنا. كانت هناك فجوة كبيرة بين موقفنا الحالي والمكان الذي يتعين علينا أن نكون فيه لضمان تصويت كبار التجار لنا في المعرض.

لقد قضيت معظم حياتي وأنا أرى نفسي، مثل زهرة رقيقة تنمو بتلاتها وتزدهر تحت أشعة الشمس الساطعة، لكنني بدأت الآن أتساءل إذا كنت مخلوقة تعشق الظلام وتزدهر فيه

تمامًا مثل تلك الشخصيات التي تجلس حول طاولة خالي، كما أن ذاك الشعور بالراحة الذي يغمرني كلما أشاح أحدهم بنظره بعيدًا عني، يدفعني إلى التفكير فيما إذا كانت هذه الخاصية الجوهرية جزءًا من هويتي منذ البداية.

تسلل إزرا إلى عقلي كما فعل مرارًا منذ أن فتحت عينيّ هذا الصباح، حيث ارتسمت في ذهني صورته بفمه المزموم، وفكه القوي. لقد رحل قبل انبلاج الفجر، كان مقعده على الطاولة خاليًا أثناء وجبة الفطور. لكن الكلمات التي قالها لي هنريك بشأنه ما زالت تدور في رأسي وتعصف به.

استحضرت تلك اللحظة التي جمعتنا معًا؛ حيث تشابكت أصابعنا، وشعرت بوقع أنفاسه تغمر وجهي عندما اقتربت منه بشدة.

لقد أردته أن يقترب مني أيضًا ويغمرني بحبه، وأن يفصح لي عن مشاعره تجاهي، لكن ذلك كان قبل أن يمنحني هنريك إدارة بيت الشاي، وقبل أن أكتشف ما كان يحوكه إزرا من مؤامرات ضدي.

لم أكن حمقاء لأصدق هنريك في كل ما قاله، فربما كان يريدني أن أرضخ لرغباته، لكنني شعرت ببعض الصدق فيما أخبرني به؛ فمنذ أن وصلت إلى باستيان وأنا أشعر برغبة إزرا في عدم وجودي في هذا المكان. وعلى الرغم من أنني قد لمحته ينظر إليّ مرارًا خلال الأيام الماضية، وعلى الرغم من المشاعر الجارفة التي تشتعل بيننا، لكنني لم أكن متأكدة مما إذا كنت أستطيع الوثوق به.

لكن ما تأكدت منه هو أن مشاعري الجارفة تجاه إزرا قد جعلتني أغفل عن السبب الحقيقي لوجودي هنا، وعن توقعات الآخرين مني. وشعرت بالارتياح لعدم حدوث أي تجاوزات بيننا أثناء وجودنا بمفردنا في الورشة. فلم أكن أعرف ما كان سيحدث لو أننا فعلنا ذلك.

سألت مورو بينما كنا نسير وأنا أنظر إلى الأمام: «أين ذهب إزرا هذا الصباح؟».

أجابني: «ليُحضر شيئًا لهنريك على الأرجح». لم يظهر مورو أي شكوك في إزرا مماثلة لتلك التي كانت لدى هنريك، هذا إن كان يشك فيه أساسًا.

لمحت انعكاسنا على نافذة أحد المتاجر أثناء مرورنا بها، فرأيت أن مورو كان يراقبني، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي، وقلت له: «إن إزرا يختفي كثيرًا».

كان التعثر البسيط الذي شعرت به في خطوات مورو قد كشف لي أنه لم يصدق محاولتي إظهار اللامبالاة.

فسألني: «ما الذي حدث بالضبط في عشاء البارحة؟».

بادلته السؤال: «ماذا تقصد؟».

بدا عليه التلهف لمعرفة الإجابة بدافع الفضول وليس الشك، ورأيت أن هذه إشارة جيدة، حيث أجابني قائلًا: «عندما عدت كان إزرا في ورشة العمل، وبدا عليه الاستياء، فظننت أن الأمور ربما لم تسر على أكمل وجه أثناء العشاء، لكن هنريك لم يقل أي شيء أثناء الفطور».

أبقيت نبرتي لطيفة، وقلت: «لم يحدث شيء».

فقد مورو جزءًا من ثقتي به عندما علمت أنه كان مشاركًا في خطة هنريك لدى إرساله إياي إلى آرثر. لم أكن أكرهه، لكنني أدركت أنه لم يكن في صفي، في الواقع لم يكن أحدًا منهم كذلك. ونظرًا إلى أنه أصبح يحاول الحصول على المعلومات من خلالي، فقد شعرت بأن امتيازاتي تزيد في كل دقيقة، وقد أعجبني ذلك. فقد كنت أعرف أنني سأحتاج إلى هذه الامتيازات لتأكيد مكانتي داخل هذه العائلة.

مشينا بضع خطوات أخرى حتى وصلنا إلى زاوية فيج ألاي، واستدار مورو لمواجهتي، وسألني: «لماذا تشعرين بهذا الفضول المفاجئ تجاهه؟».

هززت كتفيَّ، وأنا أقول: «لا أعرف. أنا فقط لا أستطيع أن أفهمه».

تفحصني مورو بعيني خبير، وقال بنبرة مرحة لا تخلو من بعض التحذير: «لدينا جميعًا أسرار، ونرغب بالطبع في الاحتفاظ بها، ولا بد أنه يود الاحتفاظ بأسراره أيضًا».

ربما كان يرى أن الأسرار أشبه ببكرة من الخيوط، إن سحبت منها خيطًا فستتفكك بالتبعية بقية الخيوط. كان مورو يهتم بإزرا، وبدا أنه يحميه أيضًا، لكنني لم أكن أشك قط في الجانب الذي كان سيختار الانحياز إليه إذا اضطر إلى ذلك، فهو بالتأكيد سيفعل ما يؤمر به بالضبط.

عندما وصلنا إلى المقهى، لاحظت انعكاس ضوء الشمس على سطح الزجاج المُحَبب ما أحدث بريقًا يشبه انعكاس الضوء على الماء الساكن. نظرت إلى أعلى، حيث كانت اللافتة الباهتة المعلقة التي تحمل اسم أمي مطلية بطلاء ذهبي مخدوش، وقد بدت متوهجة بفعل أشعة الشمس.

سحب مورو يده من جيبه فظهرت سلسلة ذهبية قصيرة تتدلى من طرف إصبعه. وتأرجح في نهايتها مفتاح طويل ورفيع بدا كأنه لم يرَ ضوء الشمس منذ سنوات.

مد ذراعه إليَّ، قائلًا بابتسامة عابثة: «تفضلي، إنه لكِ».

اعتلت الابتسامة نفسها شفتيَّ وأنا أضعه في القفل الصدئ. سمعت صوت صرير القفل عندما أدرت المفتاح فيه، لكن عندما حاولت فتح المزلاج ظل مكانه ولم يتزحزح.

قال لي مورو عندئذ: «اسمحي لي بأن أحاول». انتظرني مورو حتى تنحيت جانبًا، وظل يحاول فتح الباب من خلال الضغط بقوة على إطاره من ناحية المفصلات، إلى أن تمكن من تحريك المزلاج أخيرًا، ومن ثم انفتح الباب.

بينما كنت أفتح الباب، احتك الجزء السفلي منه بالأرضية الرخامية. وحبست أنفاسي وأنا أخطو العتبة نحو الظلام المنتشر في الداخل. وكان الهواء فيه باردًا، لكنه يخلو من الرطوبة التي ميزت الأجواء بين جدران منزل عائلة روث. غطت طبقة سميكة من الغبار كل

الأسطح في الداخل. وبينما كنت أحدق إلى السقف، لاحظت ثريات ذهبية مرصعة بأحجار الكوارتز متدلية منه، بينما وجدت أسفلها طاولة خشبية ممتدة بطول الحائط، ومثبتة في الأرض، تقترن بمرايا تمتد على طولها لتشكل خلفية لها، كما لاحظت أن الطبقة الفضية التي طليت بها فناجين وأباريق الشاي كانت متقشرة ومنفصلة عن جسمها الأساسي. كما كانت الأرفف المعلقة خلف الطاولات الخشبية المنتشرة في المكان مزينة بأكواب وأباريق الشاي الملونة يدويًا. وبدا الأمر كأن الزمن قد توقف في هذا المكان، وتركه على حاله منذ آخر مرة وقفت فيها أمي بين جدرانه.

استدرت وقد تملكني شعور بالرهبة.

نفض مورو الغبار عن مقعد قريب قبل أن يجلس عليه، ويضع ساقًا فوق الأخرى وهو يراقبني قائلًا: «ما رأيك؟».

ابتسمت ابتسامة واسعة: «إنه مثالي».

كان كذلك بالفعل. استطعت تخيُّل كل شيء في حالة جيدة: الشموع مضاءة، والبخار يتدفق من أباريق الشاي. والنساء يرتدين الفساتين الرائعة، والرجال يرتدون السترات الملونة، ويجلسون جميعًا تحت وميض الثريات المعلقة. كان بيت الشاي جميلًا بقدر ما كان مفيدًا. فقد كانت مثل هذه الأماكن في نيمسمير ملتقى الجميع، ومكانًا لتبادل المعلومات والأخبار المنتشرة في المدينة. وإذا أراد هنريك أن ينضم إلى نقابة التجار حقًا، فإن هذا المكان يعد مدخلًا جيدًا له يعادل في أهميته أي مدخل آخر قد يسلكه.

قال مورو فجأة بنبرة تخلو من المرح، وتمتلئ باللطف والنعومة: «أنا أتذكر إيدن، وأتذكر هذا المكان أيضًا».

جلست على مقعد مجاور له، واتكأت على المنضدة الطويلة الممتدة التي كان يتكئ عليها، وقلت له: «لكن ما من أحد في العائلة يتحدث عنها مطلقًا».

قال: «إنهم لا يحبون التحدث عما حدث في الماضي».

سألته: «هل تقصد أخوالي؟».

أومأ برأسه بالإيجاب، وقال: «نعم. لقد تغيرت الأمور عندما ماتت إيدن. تغيَّر هنريك، ونويل، وأبي أيضًا. لكن هنريك خاصة ظل يعاني آثارًا نفسية لهذا الحدث عدة سنوات، وأعتقد أنه كان يأمل أن تحلِّي محلها بطريقة ما، وأن تصلحي ما لم يستطع هو إصلاحه».

شاهدته يعبث بسلسلة ساعته. لقد كان صريحًا أكثر مما كنت أتوقع.

حاولت أن أصل إلى مغزى حديثه، فسألته: «هل تعتقد أنه يشعر بالمسئولية تجاه ما حدث؟».

قال مورو: «إنه مسئول، عنا جميعًا، وهذا عبء لن أرغب في تحمله».

خطر لي أن مورو لم يكن يتحدث عن إيدن فقط. فبطريقة ما، كان يدافع عن هنريك، ويحاول مساعدتي على معرفة السبب وراء قيامه بما فعله، وكذلك السبب وراء تنفيذ مورو كل أوامره دون تفكير.

لم يكن لديَّ أدنى شك في حب هنريك عائلته أو إحساسه بالواجب تجاه أعمالها. بل يمكنني القول إنه مستعد للقيام بأي شيء دفاعًا عنها. لكن هذا لا يعني أنني أريد أن أكون دمية في يديه.

سألته بهدوء: «ماذا حدث للرجل الذي قتل والديَّ؟» لم أكن قد طرحت مثل هذا السؤال من قبل، لكنني شعرت بأن مورو سيمنحني الإجابة الصادقة.

قال مورو بنبرة منخفضة: «غادر والدي ونويل وهنريك في تلك الليلة بعد أن تلقينا أخبار ما حدث». توقف قليلًا، ثم تابع: «لم يعودوا حتى الفجر تقريبًا، وكان قميص والدي ملطخًا بالدماء. لكنني لم ألحظ ذلك إلا عندما استيقظت في الصباح، عند الباب».

سألته: «ماذا تعني بعند الباب؟».

بلع مورو ريقه، وقال: «لقد كان باب المنزل كله ملطخًا باللون الأحمر».

تململ في مقعده وهو يتابع: «لقد دهنوه، بدماء ذلك الرجل. فقد ظل الناس يتناقلون هذه القصة سنوات عديدة في كل مكان ذهبت إليه، في المقهى، والشوارع، وفي نورث إند، وفي الموانئ كذلك. فقد روى الجميع تلك القصة».

كان ذلك متوافقًا مع ما سمعته عن عائلة روث. وربما كان هذا هو السبب في عدم رغبة أحد في أن يمس أي شخص لديه هذا النقش المميز لهم، فقد كانت سمعة العائلة هي التي تجعل الجميع يخشانا، بالضبط كما يخشون سايمون.

أردف مورو: «يعتقد الناس أن أفراد عائلة روث بلا قلب، لقد سمعت أكثر من شخص يقول إن هنريك أشبه بالحجر. لكن قلبه في الحقيقة ينبض بحب هذه العائلة، وكل فرد فيها».

قلت له: «أعتقد أن هذا منطقي، فهو ليست لديه عائلة خاصة به».

هز مورو كتفيه بما ينم عن شكه في هذا الأمر.

سألته في دهشة: «ماذا؟ هل لديه عائلة؟».

قال بعد تردد: «هناك شائعات، لكن من يدري، إذا كانت صحيحة أم لا».

لكن النظرة التي اعتلت وجهه أخبرتني بأنه لا يعتقد أنها مجرد ثرثرة فارغة.

سألته: «وماذا عن والدتك؟ ماذا حدث لها؟».

أجابني: «لقد اكتشفت بسرعة كبيرة أن هذه الحياة لا تناسبها».

عبست قائلة: «أنا آسفة لحدوث ذلك».

قال وقد بدا صادقًا: «لا أستطيع أن ألومها حقًّا».

توقف مورو عن العبث بسلسلة ساعته أخيرًا، ثم عقد ذراعيه بإحكام على صدره، وهو يأخذ نفسًا عميقًا، ويتحول بنظره عني، ثم قال: «أتعلمين؟ لا تزال هناك مشكلة واحدة».

نظرت نحو ما كان ينظر إليه، وسألته: «ما هي؟».

أجابني: «من سيفكران يحتسي أي مشروب في بيت الشاي الذي تديره عائلة روث؟».

كان ذلك هو السؤال نفسه الذي دار في ذهني منذ أن تركت غرفة مكتب هنريك في الليلة السابقة. سيستغرق الأمر بعض الوقت حتى يتقبَّل الناس فكرة وجود هنريك بينهم، لكنه أراد فتح بيت الشاي قبل المعرض، بل أراد أيضًا أن يتردد عليه أعضاء النقابة المشاركون في التصويت. وكانت إعادة تشغيل بيت الشاي وجذب أعضاء النقابة البارزين إليه، هما تذكرتي للتخلص من أمر زواجي بابن سايمون، وقد أخبرته بأن بإمكاني القيام بذلك، لكنني لم أكن متأكدة من كيفية تنفيذه.

تخطت نظراتي الخلفيات المخملية البالية للمقاعد، والأرضيات الفسيفسائية المعقدة، حتى رأيت انعكاس صورتي في المرايا الكبيرة المعلقة. أدركت أنه مهما حاول هنريك، فلن ينجح في الاندماج مع الآخرين إذا ما ظل ماضيه يلاحقه طيلة حياته. غير أن هذا الأمر ينطوي على ميزة كبيرة؛ إذ يشكل عامل جذب يقوم على إحداث هنريك التوازن بين تأثيره الإيجابي وتشكيله خطورة حقيقية.

تمتمت بيني وبين نفسي قائلة: «ربما». وعندما نظرت إلى مورو، وجدت رأسه يميل إلى الجانب بفضول، فقلت: «ربما لن يكون مجرد بيت شاي عادي».

الحادي والعشرون

صرخ كازيمير في وجهي وتساءل مندهشًا: «ماذا تريدين أن تفعلي؟».

كان الناس الذين يدخلون إلى سوق بيت التجار الواسع الممتد يحدقون إلينا، بينما كان مورو يجلس خلف كازيمير، ويكتم ضحكته، فقد كان يستمتع بما يحدث.

كررت ما قلته لكازيمير: «أريد أن يمارس رواد بيت الشاي لعبة ثري ويدوز».

كانت خطة مثالية، فقد كانت لعبة ثري ويدوز بمنزلة متعة خفية لكل معارف ساريا من المجتمع الراقي، فقد راقبتهم من الردهة المظلمة لليالٍ عدة، حيث كان البهو يمتلئ بالتجار الذين يرتدون ملابس أنيقة، ويقضون لياليهم في ممارسة هذه اللعبة باستخدام النرد مقابل العملات المعدنية والأحجار الكريمة. لقد كان ذلك هو السر الصغير القذر الذي يريدون إخفاءه عن الجميع. وكنت أتوقع بشدة ألا يختلف التجار الكبار في باستيان عنهم.

أصررت على هذا الأمر لجذب المزيد من الأشخاص إلى بيت الشاي، وقلت له: «هذا أمر منطقي للغاية». كنت بحاجة إلى تكوين فكرة قوية وصياغتها لعرضها على هنريك للاقتناع بقدرتي على إدارة الأمر. وأضفت: «سيكون بيت الشاي لائقًا بما يكفي لإغرائهم بالمجيء إليه، وما إن يمارسوا هذه اللعبة ذات السمعة السيئة، حتى يلحق بهم العار، ويخشوا الفضيحة، وهو أمر كافٍ ليعودوا إلينا مرة أخرى، هذا أمر رائع للغاية».

جادلني كازيمير قائلًا: «كيف يُعد هذا رائعًا؟ لا بد أن نقدِّم إليهم ما يعرفونه يا برين، وما يرتاحون إليه».

قلت له: «إذا فعلنا ذلك، فلن يأتوا. سيرون ذلك بوصفه محاولة من مجموعة من الوضعاء للصعود إلى طبقة المجتمع الراقي. لكن إذا تصرفنا بما يليق بعائلة روث، فسيفتنهم ذلك، ولن يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم. صحيح أنه بيت شاي، بل أفضل بيوت الشاي، يقدِّم مشروبات رائعة في أكواب من الخزف المطلي يدويًّا، لكنه أيضًا بيت للعب النرد في مكان مفتوح وسط حي التجار، بلا غرف سرية لممارسة اللعبة. بل سيمارس الحضور كلا الأمرين في الوقت نفسه».

حدق كازيمير إلى وجهي مندهشًا ومتشككًا.

فقلت له مؤكدة: «سيحبون ذلك بكل تأكيد، ثق بي».

زفر كازيمير بحدة وقال: «إنها فكرة مجنونة، هل تحدثت مع هنريك عن هذا الموضوع؟» ثم ألقى نظرة حادة إلى مورو.

اعتدلت في جلستي، وأعدت لفت نظره إليَّ.

قلت له: «لقد طلب مني إعادة فتح بيت الشاي، وأن أجعل أعضاء النقابة يترددون عليه، وهذه هي الطريقة التي سأفعل بها ذلك».

زم كازيمير فمه بينما كان يفكر، ثم هز رأسه معترضًا.

ذكَّرته قائلة: «هذا عملي الخاص».

فاجأني مورو عندما قال: «علينا أن نعترف بأنها قد تكون فكرة رائعة». كنت أعتقد أنه جاراني في الفكرة لأنه يستمتع ببساطة بإثارة الأمور، لكن اتضح أنه كان يدعمني أمام كازيمير.

تذّمر كازيمير: «وقد لا تكون كذلك. فإذا فسد الأمر، فأنتِ من ستتحملين المسئولية كاملة». وكانت نبرته تفتقر إلى الحدة التي عادة ما تكون موجودة. نظر إليَّ مطوًّلًا نظرة ثقيلة،

وتبع ذلك لحظة طويلة مشوبة بالتوتر قبل أن يتنهد أخيرًا، ويقول: «ماذا تحتاجين؟».

ابتسمت وسحبت الورقة بحماس من جيب تنورتي، وسلمته إياها. مرت عيناه على القائمة سريعًا، وشفتاه تتمتمان بما هو مكتوب.

ثم قال: «هذا عدد كبير من الأحجار الكريمة»، ثم طواها ودسها في جيبه، وأضاف: «ستنفقين نصف عملاتك على هذا. فلماذا لا تجعلين هنريك يصنع أحجارًا مزيفة؟».

قلت: «لا يمكننا بدء هذا المشروع بهذه الطريقة، يجب أن يكون مختلفًا».

تفقد ساعته، ثم قال: «حسنًا، من الأفضل أن يجري ذلك سريعًا. فلا بد أن أذهب لمقابلة إزرا في نورث إند من أجل عمليات التسليم والتسلم. فسيكون في انتظاري هناك».

توجه نحو المدخل، وتبعناه حتى تركنا عند الممر الثاني، حيث يوجد تجار الأحجار الكريمة. شاهدته يختفي وسط الزحام، وقادني مورو عبر الممر الرئيسي في سوق بيت التجار، وكان ينظر خلفه كل بضع خطوات لتفقدي. كان الحشد يفسح الطريق أمامه، ويبدو في أعينهم معرفتهم التامة لشخصه. ويبدو أنه لم يكن لوير فالي وحي التجار هما المكانين الوحيدين اللذين يعرف فيهما الناس أفراد عائلة روث جيدًا.

وعندما استدار مرة أخرى مد يده، وجعلني في المقدمة حتى أتمكن من شق طريقي إلى الممر التالي. كانت رائحة الأرض والتوابل تنتشر في الأجواء، وتغلفنا تمامًا، وكانت الأكشاك مليئة بالسلال والأوعية الخشبية التي تحمل كل شيء مثل الأعشاب المدخنة، والطبية، بالإضافة إلى البراميل المملوءة بالخل.

عندما وجدت الكشك الذي كنت أبحث عنه، أشرت بذقني إلى مورو لينظر تجاهه. كانت الطاولة العريضة هناك مغطاة بسلال مبطنة وممتلئة بأوراق الشاي بكل لون. وفي كل سلة كانت هناك مغرفة خشبية نصف مدفونة، وملأت الرائحة رأسي بألف ذكرى عن نيمسمير.

كانت تاجرة الشاي امرأة ضئيلة الحجم ذات عينين حادتين ورموش كثيفة. نظرت إليَّ على الفور، وسألتني بفضول: «كيف يمكنني أن أساعدك؟».

قلت وأنا أشير إلى أكبر السلال التي كان يفيض منها الشاي الأسود على الطاولة: «أريد خمسة كيلوجرامات من الشاي الأسود، من فضلك».

قامت من مقعدها، وسارت ببطء حتى نهاية الكشك. وعبأت لي ما طلبته، وعندما وضعت الحقيبة على الميزان كان تخمينها للوزن مضبوطًا تقريبًا. وبعد أن ملأت حقيبتين، كل واحدة منهما تزن كليوجرامين ونصف الكيلو، ربطتهما بخيوط طويلة.

قالت بصوت عالٍ: «عشرون قطعة من النحاس».

قلت وأنا ما زلت أنظر إلى السلال: «لم أنتهِ بعد».

«هل لديك شاي الأرجون الفاخر؟».

كان الشاي الأسود التقليدي هو المفضل في باستيان، ولكنه كان يوجد في مطبخ أي شخص عادي، وكان يجب أن يكون هناك ما هو أكثر من لعبة النرد لجذب كبار أعضاء النقابة إلى بيت الشاي الخاص بي.

رفعت حاجبيها مندهشة، بينما كانت يداها متكئتين على أكياس الشاي الأسود.«شاي الأرجون الفاخر؟».

قلت لها: «نعم». ثم سحبت الغطاء عن سلة أخرى لأفحص محتواها، وأضفت: «إنه شاي أحمر مع...»

قاطعتني قائلة: «أنا أعرف ما هو يا فتاة، ماذا تريدين بشاي كهذا؟».

نظرت إليها مرتبكة، «أريد شراءه. أريد كيلوجرامين منه، وكيلوجرامين أيضًا من شاي الصفصاف الأبيض، إذا كان لديك».

حدقت إلى وجهي بجرأة لحظة أخرى قبل أن تستدير وتعطينا ظهرها، ثم أخذت تردد: «شاي الأرجون الفاخر، والصفصاف الأبيض». عرجت نحو الطاولة التي خلفها، ورفعت أغطية برميلين أسودين صغيرين لتتفحصهما.

ثم قالت: «لم يطلب أحد مني شيئًا كهذا منذ مدة طويلة، فعادة ما نبيع هذا للتجار المتجهين شمالًا».

كان هذا بالضبط ما كنت أرغب فيه بشدة، أن يصبح بيت شاي إيدن فريدًا من نوعه، ولا مثيل له في المدينة. وإذا كنت أريد أن أجعله وجهة لمجتمع التجار، كان عليَّ أن أقدِّم للناس أكثر من سبب واحد للعودة إليه مرارًا وتكرارًا.

رأيت من بعيد رأس كازيمير يتمايل بين الحشد على بعد بضعة ممرات. كان يشق طريقه من تاجر أحجار كريمة إلى آخر، وكان عبوسه المعتاد يعلو وجهه. لو أن مورو لم يساندني، فلا أظن أنه كان سيوافق على خطتي، ولا يسعني إلا أن أتمنى أن يوافق هنريك أيضًا.

اتسعت عيناي، وتجمدت في مكاني، عندما لفت انتباهي وجه آخر أعرفه على الجانب الآخر من سوق بيت التجار.

إنه إزرا.

كان يسير بسرعة أسفل النوافذ العالية، وقد رفع ياقة سترته حتى أخفى نصف وجهه، لكن عينيه الرماديتين الثاقبتين برزتا بشكل واضح في الإضاءة الخافتة. كان يشق طريقه عبر الممرات متجهًا نحو الجدار البعيد.

عاد انتباهي إلى كازيمير الذي كان يتحدث مع أحد التجار. وأيًّا كان ما يفعله إزرا، فهو لم يكن في نورث إند كما اعتقد كازيمير، كما أنه لم يكن يتوقع رؤية أي منا هنا أيضًا؛ فقد تسلَّمنا جميعًا واجباتنا هذا اليوم في الصباح، ولم تكن زيارة سوق بيت التجار مدرجة في قائمة مهام أي شخص منا.

توقف إزرا عند نهاية الممر، وهو يلقي نظرة خاطفة خلفه. ضيَّقت عينيَّ وأنا أراقبه، حيث بدا وجهه الصارم أكثر كآبة من المعتاد، وكان يقلِّب نظره في المارة كأنه يبحث عن شخص ما. انتظر فترة وجيزة قبل أن يصعد الدرجات المؤدية إلى الشرفة التي تطل على قاعة التداول، وعندما وصل إلى أعلى نقطة فيها، قابل شخصًا آخر ينتظره، إنه رجل لا أعرفه.

كان الرجل ذا شعر أسود مجعد يظهر بعضه من تحت قبعة، وعندما رأى إزرا تغيرت تعبيرات وجهه قليلًا. انكمش جبيني فجأة من هول تلك المفاجأة؛ لقد كان ذاك الرجل هو آرثر الذي كان في الرصيف رقم أربعة عشر، ذاك الذي كال لي اللكمات.

انتابني شعور بالاضطراب والانزعاج بينما كنت أشاهدهما، وتساءلت عن السبب الذي قد يدفع هنريك إلى مقابلة ذاك الرجل.

أشار آرثر نحو الباب المؤدي إلى الخارج، وتبعه إزرا، واختفيا عن الأنظار. تلألأ ضوء الشمس المنعكس على النوافذ المطلة على المياه.

اعتقدت أنه ربما كان يؤدي إحدى المهام التي كلفه بها خالي، لكن هنريك قد باح لي بأنه لا يثق بإزرا، وشككت في أنه أرسله للقاء آرثر نيابة عنه. كان من المرجح أن هنريك كان على حق، وأن إزرا يخطط لشيء ما.

جاء صوت مورو عاليًا من بين تلك الضوضاء المدوية في سوق بيت التجار قائلًا: «برين»، فأشحت بنظري عن النوافذ بصعوبة، ونظرت إليه.

كان يتفحص وجهي، وقد علت شفتيه ابتسامة بسيطة، وسألني: «هل أنتِ بخير؟». ثم رفع عينيه نحو الشرفة، وأضاف: «ماذا هناك؟».

ازدردت ريقي بصعوبة، ورسمت على شفتي الابتسام غصبًا، وقلت: «لا شيء»، ثم بحثت في جيب سترتي عن محفظة العملات التي أعطاني إياها هنريك وفتحتها.

لقد كذبت دون تفكير، واستغرق الأمر مني ثانية حتى أدركت ما كنت أفعله؛ لقد سعيت إلى حماية إزرا. ونظرًا إلى تأكيد هنريك على عداء إزرا لي، وجدت نفسي أشكك في صدق ولائه لي أيضًا، ومن ثم لم أكن ملزمة بإظهار الولاء له في المقابل.

بدا مورو متحيرًا بعض الشيء، وظل ينظر إلى الخارج، لكنني أبقيت رأسي منخفضًا، وانهمكت في عدِّ العملات المعدنية.

مدت المرأة يدها منتظرة مقابل الشاي الذي اشتريناه، فوضعت العملات النحاسية في راحة يدها، وعدتها مرتين. وعندما مد مورو يده لالتقاط إحدى الحقائب، اندفعت تلك المرأة قائلة «لا، لا يا سيدي، فلا يليق بك القيام بذلك» ووضعت العملات المعدنية سريعًا في صندوق خلفها، وأضافت: «سأجعل أحدًا ما يوصل تلك الحقائب إليكما». ثم أحضرت ريشة وورقة من المنضدة لتكتب العنوان عليها، وسألتني: «أين يجب أن أوصل لكما حقائب الشاي هذه؟».

أجبتها وأنا أشعر بالتشتت من لمعان الضوء على النوافذ العلوية: «إلى بيت شاي إيدن في حي التجار. في فيج ألاي تحديدًا».

انكمش جبينها، ورفعت الريشة من فوق الورقة فجأة قبل أن تبدأ الكتابة أيضًا، وقالت: «أنا لا أعرف بيت شاي بهذا الاسم».

رفعت قلنسوة عباءتي، ووضعتها على رأسي مبتسمة، ثم قلت لها: «قد يكون ما ذكرته صحيحًا؛ لكنك ستعرفينه قريبًا».

الثاني والعشرون

كان رد كوين على الرسالة التي أرسلتها إليه ينتظرني على مائدة الفطور.

ظهر إزرا على الطاولة، لكن الجميع كان مشتتًا في ذلك الصباح. فكان هنريك مشغولًا بالمجموعة التي كان يحضِّر لعرضها أمام النقابة، بينما كان مورو مهتمًّا بالعمل الإضافي الذي كلفه به هنريك.

حتى إزرا بدا مشغولًا بشكل واضح بشيء ما، وتساءلت عما إذا كانت له علاقة بمقابلته مع آرثر. كنت قد احتفظت بما شاهدته في سوق بيت التجار لنفسي، لكنني ما زلت أجهل السبب الذي دفعني لذلك.

لم يعرني إزرا أي اهتمام عندما جلست على مقعدي، والتقطت الرسالة التي كانت بجانب طبقي. لقد أصبح سلوكه أكثر مراوغة من المعتاد؛ إذ كان يعود إلى المنزل بعد فترة طويلة من خلود الجميع إلى النوم، ويبدأ عمله في الورشة في وقت مبكر من كل صباح. ولم يسعني إلا أن أعتقد أنه كان يتجنبني بعد ما حدث في الورشة.

فضضت ختم الرسالة، وفتحتها. لقد كان صانع الساعات وابنه هما حلقة الوصل الحقيقية الوحيدة التي تربطني بحي التجار وأعضائه المؤثرين على الرغم من عدم رغبتي في سير الأمر على هذا النحو، فبطريقة ما صعد سايمون درجات سلم المجتمع إلى الطبقة الراقية منه على الرغم من ماضيه الملوَّث، وإذا كنت أريد أن أجعل هنريك يتغاضى عن فكرة زواجي بكوين، كان لا بد أن أضمن لعائلة روث مكانة مماثلة.

كانت دعوة كوين لي لتناول الشاي معه هي بالضبط ما كنت أتمناه عندما كتبت إليه؛ لكن عندما وضعت الظرف على الطاولة ورأى إزرا ختم الشمع الخاص بكوين، نهض من مقعده، ولم يكن قد أنهى طعامه. شاهدته يختفي عبر الباب، وعندما نظرت إلى هنريك، ووجدته يراقبه.

لقد كنت أركز مع إزرا في السابق، وأمنحه قدرًا كبيرًا من اهتمامي، لكن الآن أصبحت المخاطر كبيرة جدًّا. فقد جذبت أفعاله انتباه هنريك، وأصبح محط نظره، وكانت تلك مخاطرة لم أستطع تحملها.

أما فيما يتعلق بتأييده زواجي بكوين، فلم أكن أرغب في تصديق أن هذا صحيح، أو بالأحرى كانت كبريائي تمنعني من الاعتراف بذلك. ولو كنت مكان إزرا، ربما كنت سأتصرف بالطريقة التي يتصرف بها الآن، فقد كان مكانه في العائلة حساسًا وافتقاره إلى قرابة صلة الدم المشتركة جعله الأكثر ضعفًا. ربما كان يرى أن انضمام عضو جديد إلى عائلة روث يمثل تهديدًا بالنسبة إليه، وربما اعتقد أنه لا يستطيع التكيُّف مع ذلك.

فلماذا إذن احتفظت بسره، ولم أكشف عن وجوده في بيت التجار؟ لم أكن على استعداد للإجابة عن هذا السؤال، حتى لنفسي.

كانت ورشة سايمون عبارة عن مبنى مزين بواجهة حجرية مصقولة جيدًا، وكان نصفه مغطى بضباب الصباح، ويقع في الركن الشرقي من حي التجار. وعلى الرغم من الضباب الكثيف استمرت مصابيح الشوارع في إصدار وهجها الناعم مخترقًا ذلك الضباب الكثيف، على الرغم من تردد صدى صوت جرس المرفأ من بعيد. طلب مني كوين الحضور إلى ورشة العمل، ولم أستطع إلا أن أشعر بأن هناك دافعًا ما وراء طلبه هذا. فربما أراد هو - أو سايمون - أن يريني عمل العائلة. كان هذا السيناريو مألوفًا بالنسبة لي، فقد تكرر أمامي من قبل مرارًا؛ امرأة شابة مؤهلة متاحة للزواج، يتوددون إليها بالعلاقات والإمكانات. لكن لم تكن لديَّ أية نية للزواج من كوين، أو أن أكون الجسر الذي يربط بينه وبين عائلة روث.

فتحت الباب امرأة شابة ترتدي مئزرًا من القماش المشمع وعدسة أحادية تتلاءم مع وجهها، بينما تلألأت سلسلتها الذهبية عندما تركتها تسقط في راحة يدها. ثم قالت لي: «هل يمكنني مساعدتك؟».

أجبتها: «أنا هنا لمقابلة كوين».

أومأت لي برأسها في تردد، فتقدمت وصَعَدتُ الدرج، وتركت قلنسوة عباءتي تسقط عن رأسي، وانتظرتني الفتاة لأفك أربطة العباءة قبل أن تأخذها وتعلقها على مشجب في الحائط، ثم قالت لي: «لحظة واحدة».

كانت ورشة العمل نظيفة ومنظمة، يتدفق الضوء الساطع عبر نوافذها العالية. لم تكن مثل ورشة العمل القاتمة والبالية في منزل عائلة روث، حيث غطى شريط من الدخان الأسود الصادر عن المسبك والفرن كل شيء في الأفق. تردد صدى صوت الطرق على المعادن عاليًا في الردهة الحجرية وامتلأ المبنى بصوت العمل الذي يجري تنفيذه خلف الجدران. بينما عُلقت على الألواح الخشبية قبل المدخل مباشرة صورة مرسومة لسايمون وهو يرتدي سترة حمراء رائعة، ويمسك بساعة ذهبية في يده كأنه يطالع الوقت.

ظهر كوين بعد بضع دقائق، فيما لا يزال يشبك أزرار سترته وهو يشق طريقه إلى القاعة. كان يرتدي ملابس أنيقة لكن الحبر الأسود لطخ أطراف أصابعه، كأنه قد قضى الصباح ممسكًا بريشة كتابة في يده.

ابتسم بحرارة قائلًا: «برين، سعدت للغاية بتلقي رسالتك في الليلة الماضية».

استدار متوقعًا أن أتبعه وهو يشير بيده نحو الردهة. وضعت يدي في جيبي تنورتي، وألقيت نظرة سريعة على الغرف المفتوحة التي مررنا بها. كان الحدادون وقاطعو الأحجار الكريمة المهرة مشغولين في عملهم؛ يزينون أغطية الساعات بالفضة والذهب ويضعون اللمسات النهائية على السلاسل التي تزينها. كانت ساعات سايمون تباع في أفضل المتاجر

ويرتديها أشهر التجار وأغناهم حتى في نيمسمير. لقد بنى لنفسه اسمًا قويًّا وكان ذلك كافيًا لنقابة الأحجار الكريمة لتتغاضى عن أصوله. وكان ابنه كوين هو من سيرث تلك المملكة التي بناها.

شاهدني بينما كنت أتفقد الورشة. رأيت أنه كان لا ينظر إلى كل ذلك على أنه عبء، بل كان يفتخر بهويتهم وبما استطاعوا تحقيقه.

قال مشيرًا إلى الغرفة المضاءة بنور الشمس أمامنا: «لقد أخبرتهم بأن يعدوا لنا الشاي إذا كنتِ ترغبين في الانضمام إليَّ».

قلت له على الفور: «أرغب في ذلك بكل تأكيد».

كانت مظاهر الفخامة حاضرة في غرفة الجلوس، حيث زُينت النوافذ على جانبيها بستائر من الحرير الفاخر، بينما كان الإطار المحيط بالمدفأة مصنوعًا من الحجر الجيري ذي اللون الأبيض الشفاف. كانت الغرفة على الأرجح تُستخدم للاجتماعات مع التجار وأعضاء النقابة الآخرين. لقد أراد أن يثير إعجابي بفخامتها.

وُضعت مجموعة شاي جميلة على طاولة منخفضة أمام مقعدين فاخرين، وجلست على إحداهما دون انتظار دعوة. وبدا أن سلوكي المريح المتحرر من الرسمية قد جعل كوين يشعر بالارتياح، فجلس بالقرب مني على المقعد الآخر، ما جعله يبدو أكثر استرخاء من ذي قبل.

قال وهو يشير بيد واحدة مستدعيًا تلك المرأة التي تقف في زاوية الغرفة: «قلت إن لديك شيئًا تريدين مناقشته معي».

شقت طريقها إلينا على الفور، ثم أمسكت بإبريق فضي صغير، وبدأت تسكب منه الشاي ببراعة في فنجاني بتدفق مستمر وثابت. كانت رائحته قوية ومميزة، ما يدل على أنه شاي عالي الجودة مصنوع من أوراق نادرة وقيِّمة ربما حصلوا عليها من مزارع الشمال.

عندما انتهت، التقطت الفنجان، ثم توجهت بالحديث إلى كوين قائلة: «لقد أسستم لأنفسكم مكانة مميزة هنا في حي التجار».

شعر كوين بالإطراء، يبدو أن التأثير عليه لن يكون صعبًا بالنسبة لي على الإطلاق، وقال بنبرة تنم عن الفخر: «لقد حققنا ذلك بالفعل، فوالدي يتميز بعقل متقد الذكاء حقًّا».

قلت مبدية ملاحظتي: «أنت معجب به إذن». كان واضحًا في كل مرة يتحدث فيها عنه أنه متأثر به وبنجاحاته بشدة، ويبدو أنه يحبه حبًّا جمًّا.

فقال متسائلًا: «ومن الذي لا يعجب به؟ لقد بنى كل شيء لدينا من لا شيء».

تبينت بعد اقترابي أكثر من عائلة سايمون أنني اتخذت القرار الصحيح بالكذب على هنريك بشأن دفتر الحسابات؛ فقد كان سايمون لا يزال يبث الرعب في نفوس الآخرين، وأثبتت القصص التي سمعتها عنه أنه خطير حقًّا. إن إعطاء هنريك نفوذًا ضده لن يؤدي إلا إلى تعريض عائلة روث للخطر. كان سايمون لا يزال يقوم بأعمال قذرة في الخفاء، لكن من لم يكن يفعل ذلك من أجل مصلحته؟ تظل النقود ذات أهمية كبيرة بالنسبة للجميع من أجل الحفاظ على الحياة التي أسسها كل منا لنفسه. حتى ذلك الوقت يظل سرهم في أمان معي، لكنني سأستخدمه إذا اضطررت إلى ذلك. وأدركت عندئذ أنني أصبحت أشبه هنريك على الرغم من عدم رغبتي في تقبُّل ذلك.

حدقت إلى الشاي بينما كانت هذه الفكرة تدور في رأسي.

قال كوين: «أنتِ أيضًا تنتمين إلى عائلة عريقة لها اسمها».

نظرت إليه قائلة: «نعم، بالطبع».

فأضاف: «أعني باستثناء إزرا».

وضعت فنجان الشاي الخاص بي على الطبق، وحاولت فهم ما يقصده، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها إزرا في محادثته معي، وكان ذلك غريبًا. لماذا يهتم بصائغ الفضة الذي يعمل لدى عائلة روث الآن؟

قلت له: «أخبرني إزرا بأنه كان يعمل لدى سايمون، وأنه قد تخلى عنه لصالح هنريك بعد خسارته في لعبة ثري ويدوز». تعمدت أن أقول ذلك بطريقة تنم عن اللامبالاة، لكنني كنت أراقب تعبيرات وجه كوين من كثب.

ظهرت إشارة خفية على وجهه فترة وجيزة كان لها مدلولها، لكنها اختفت قبل أن تتشكل تمامًا. ثم قال: «هذا هو ما حدث بالضبط».

سألته: «هل كنتما صديقين؟».

أشاح كوين بنظره بعيدًا عني كأنه يتذكر شيئًا ما: «بالتأكيد، لقد كنا في العمر نفسه، وكان يقضي معظم وقته عمليًا في ورشة والدي أثناء فترة تدريبه. لقد نشأنا معًا بطريقة ما».

سألته: «هل تعتقد أن ما يصوغه من مجوهرات كافٍ للتأثير على النقابة للحصول على خاتم التاجر؟».

فكر كوين في الأمر لحظة، ثم أجاب: «هناك حقيقة واحدة لا جدال فيها، وهي أن إزرا يمتلك موهبة نادرة لا غنى عنها لنقابة الأحجار الكريمة إذا كان مجلس التجارة في البحر المجهول ينوي الحفاظ على نفوذه في منطقة المضايق وما وراءها. سيكون من الحماقة بالنسبة له عدم منح هنريك خاتم التاجر». توقف قليلًا ثم تابع محاولًا الحفاظ على ضبط النفس: «لا يمر يوم إلا ويندم فيه والدي على لعبة ثري ويدوز التي خسر فيها إزرا».

قررت أن أسأله بصراحة مقتحمةً منطقة حساسة على أمل ألا تثير صراحتي استياءه، فلم يكن لديَّ وقت للتودد، وقلت له: «هل هذا هو السبب في أنه لم يتخذ قرارًا بشأن رعاية هنريك؟».

ابتسم كوين ابتسامة واسعة، وقال: «كل ما في الأمر أنه يتأنى قبل اتخاذ قرار نهائي».

أخذت رشفة بطيئة من الشاي، وتركت الصمت يتغلغل بيننا، فقد انتابني الفضول لمعرفة الطريقة التي يود أن يقود بها كوين هذه المحادثة، وفي النهاية بادر بالحديث حيث أضاف وهو يلتقط كأسه: «آمل ألا يكون ذلك قد خيب أملك».

قلت مندفعة: «هذا ليس سبب وجودي هنا، في الواقع».

بدا متفاجئًا، وقال: «هل حقًّا لم تأتِ من أجل ذلك؟».

أجبته: «لا، في الحقيقة لقد جئت لأطلب مساعدتك في شيء ما».

بدا الفضول جليًّا على تصرفاته في تلك اللحظة، حيث انحنى إلى الأمام وترك فنجان الشاي مرة أخرى قبل أن يستند بمرفقيه إلى ركبتيه، ثم سألني: «ما الأمر إذن؟».

أجبته: «سأفتتح بيتًا للشاي في الأسبوع المقبل، وأود أن تأتي وتزورنا هناك».

قال وهو يشبك أصابعه معًا: «آه، هل تقصدين بيت الشاي سيئ السمعة؟».

رفعت حاجبيّ في دهشة، وسألته: «هل سمعت عنه؟» كان ذلك جيدًا، بل كان جيدًا جدًّا.

أجابني: «من المؤكد أن الأخبار المتعلقة ببيت الشاي الذي يتيح لعبة ثري ويدوز ليست أخبارًا عادية. ومع ذلك، لم أكن أعلم أنك العقل المدبر وراءها».

قلت له: «لقد كان لأمي، كان حصتها في العائلة، والآن سيكون لي».

نطق اسمها بنبرة تنم عن الاحترام والتبجيل: «إيدن روث بالطبع، لقد سمعت عنها أيضًا».

سألته وأنا أحاول معرفة المزيد: «وما الذي تعرفه عنها؟».

نظر في عينيَّ قائلًا: «كان والدي يقدِّرها. وعلى ما أعتقد كان يكن لها ما هو أكثر من التقدير والاحترام».

قلت له: «لم أكن أعرف أنه يعرفها بشكل جيد».

هز كوين كتفيه: «لقد كانوا جميعًا جزءًا من الدوائر الاجتماعية نفسها في ذلك الوقت. لقد تغير الكثير منذ ذلك الحين».

لاحظته وهو يقلّب الشاي في فنجانه بحركة دائرية، ثم نظرت إلى عينيه قائلة: «لهذا السبب أحتاج إلى مساعدتك. سأتحدث معك بمنتهى الصراحة، لقد أكسبتك مكانة عائلتك في النقابة احترام الجميع في حي التجار، وأنا أريد أن يمتلئ بيت الشاي بهؤلاء التجار المرموقين عند افتتاحه إذا أردنا الحصول على أصواتهم في المعرض».

كان من الجرأة أن أطلب منه ذلك، في حين أنه لم يكن هناك اتفاق بشأن الرعاية أو الزواج بين عائلاتنا. وفي الواقع، سيكون هذا بمنزلة خدمة أكثر من مجرد اتفاق رسمي.

تفحَّصني كوين ثم سألني: «وما الذي سأحصل عليه في المقابل؟».

ثبَّت نظري عليه دون أن أرمش، وقلت له: «ستحصل على صداقتي». ابتسم كوين وهو يتكئ على ذراع مقعده، بينما اعتلت وجهه نظرة متآمرة، وفكَّر قليلًا قبل أن ينظر إليَّ ويقول: «أعتقد أن هذه مقايضة عادلة تمامًا».

الثالث والعشرون

جلست إلى الطاولة الموضوعة أمام النافذة الوحيدة في غرفتي، أكتب تحت الضوء الخافت، حيث كنت أقسِّم الورقة التي أمسك بها إلى أعمدة لتسجيل أسعار مشترياتي من الشاي والأحجار الكريمة، وفي الأيام القليلة المقبلة، ستنضم إليها أسعار أقمشة الكتان، واللوحات، والشموع، وجميع الضروريات الأخرى اللازمة لبيت الشاي.

لقد خصمت تكلفتها جميعًا من إجمالي العملات التي أعطاني إياها هنريك. لم أكن بحاجة فقط لأبرهن له على أن بإمكاني فتح بيت الشاي، بل كان عليَّ أن أريه أنه يمكنني إدارة دفاتر الحسابات أيضًا. وفي هذا الصدد وللمرة الأولى شعرت بأن تعاليم ساريا قد أفادتني حقًّا. فأثناء مشاهدتها على مر السنين، تعلمت كيفية إدارة الحسابات والتعامل مع الأمور المتعلقة بالتجارة، بل تعلمت أيضًا كيفية إبرام الصفقات والحصول على أسعار مخفضة.

نظرت إلى كومة الأوراق الموضوعة أسفل دفتر الحسابات، حيث ظهر خط يدي من بينها. فقد كتبت العديد من الرسائل إلى ساريا منذ وصولي إلى هنا، لكنني لم أبعث إليها بواحدة منها على الإطلاق. لم أكن متأكدة كذلك مما إذا كانت تعد رسائل كاملة؛ إذ كانت مجموعة من الأفكار المفككة والمتفرقة، تتخللها حكايات عن ترو أو أسئلة لم أجرؤ على طرحها عليها من قبل عن والديَّ، وهنريك، وتجاربها في هذا المنزل. لكن كلما طالت الرسالة، قلت ثقتي بأنني سأتمكن من إرسالها إليها.

وضعت الريشة على الطاولة وأسندت ظهري إلى المقعد، وأخذت أراقب الشارع في الأسفل. كانت مصابيح الشوارع مضاءة بالفعل، بينما أغلقت متاجر لوير فالي. لقد وفر لي عملي في الإعداد لافتتاح بيت الشاي الذي استهلك كل وقتي بعض التحرر من مراقبة خالي لي وعظم توقعاته لي. ولم يطرح أحد أي أسئلة عليَّ عندما كنت أغادر المنزل، أو

أعود إليه في ساعات غير مناسبة. لقد أدركت أنه شيء مكتسب، أعطاني هنريك من خلاله مطلق الحرية ليرى ما يمكنني فعله. وإذا أردت المزيد من الحرية، فعليَّ تحري الدقة وأعلى درجات الحذر.

سمعت وقع خطى تصعد إلى أعلى الدرج، ونظرت إلى المرآة وأنا أتطلع إلى ظلام الردهة من خلفي. كنت قد بدأت التعرف على صوت مشية إزرا. إذ كان وقع خطواته يختلف عن الإيقاع الكسول لمورو أو الإيقاع السريع لهنريك. إذ كان يتحرك بطريقة مدروسة وحذرة، وفي كل مرة كنت أسمع فيها وقع خطواته، كنت أحاول التنفس بعمق بشكل لا إرادي حتى أشم رائحته في الهواء.

سمعته يعود في وقت سابق من بعد الظهر من ذاك المكان الذي كان مختفيًا فيه، لكنني لم أتمكن من إلقاء نظرة عليه. امتلأ المنزل بصوت عمله في الطابق السفلي. وقاومت رغبتي الجامحة في الذهاب إليه في الورشة.

أما الآن فقد وقفت أراقب الباب المفتوح بطرف عيني، واستدرت قليلًا عندما رأيت ظله يتحرك في الردهة. وعضضت على شفتيَّ، وغيرت رأيي مائة مرة قبل أن أستجمع قواي وأناديه باسمه أخيرًا: «إزرا».

توقفت حركة الظل فترة طويلة، حتى إنني اعتقدت أنه ربما يكون قد توهمت الأمر. لكنه بدأ بعد ذلك في التحرك مرة أخرى فوق ألواح الأرضية في الاتجاه المعاكس. وبعد لحظة، ظهر وجه إزرا عند مدخل الغرفة المفتوح، وكان الزراران العلويان لقميصه مفكوكين، بينما تساقط شعره على جبهته وبدا متعبًا.

قلت وأنا أغلق دفتر الحسابات الذي أمامي: «لم أرك منذ يومين. أين كنت؟».

أسند كتفه إلى إطار الباب، وقال: «كنت في العمل». كانت إجابته غامضة للغاية. لكنني لم أكن الوحيدة التي لاحظت غياب إزرا، فقد كان هنريك يسأل عن أيضًا.

وقفت الكلمات على طرف لساني، أردت أن أحذره. فإذا لم يتوخَّ الحذر بالفعل، فسيجعل هنريك عدوًّا له. وربما يكون قد أصبح كذلك بالفعل وهو ما أثار قلقي أكثر مما قاله خالي عن محاولة إزرا التخلص مني. كان لا يزال تآمره ضدي يحرق قلبي، لكنني لم أرغب في أن يعاديه هنريك ويصب عليه جام غضبه.

قال بطريقة رسمية إلى حد ما: «يقول مورو إن بيت الشاي أصبح جاهزًا تقريبًا». لقد تبددت مشاعر الألفة والراحة التي تبادلناها معًا في ليلة العشاء، واعتقدت أن هذا أفضل، لكنني ابتسمت ابتسامة مفتعلة، فلم يعجبني شعوره بالانزعاج، وكذلك شعوري بالتوتر والاضطراب.

فقلت له: «إنه كذلك بالفعل».

أومأ برأسه وقد بدا عليه الشعور بالانزعاج: «جيد. هذا جيد! سأعرض عليكِ مجموعة من ألعاب النرد لتتفحصيها خلال يوم أو يومين، على أن تكون جاهزة تمامًا في الوقت المناسب».

أومأت برأسي، ولم أكن أعرف ما يجب أن أقوله. لقد وضع حائلًا بيننا منذ أن اقتربت منه بشدة في الورشة، ولم أكن أعرف كيف أتخطاه، أو ما إذا كنت أرغب في ذلك من الأساس.

حدقنا أحدنا إلى الآخر في صمت، ومرت عيناه على وجهي كأنه ينتظرني أن أقول شيئًا. وعندما لم أفعل بدا أنه قد حسم أمره، فوضع يديه في جيبيه وقال: «أراكِ لاحقًا». استدار وخطا بضع خطوات نحو غرفته قبل أن يفتح الباب ويغلقه.

وضعت وجهي بين كفيَّ، وتنفست عبر أصابعي. فقد كانت لديَّ أسئلة، بل الكثير من الأسئلة، كما أردت مواجهته بشأن كوين وبشأن خططه للتخلص مني. لكن كلما فكرت أكثر، أدركت خوفي الشديد من الإجابات المجهولة التي قد يقولها إذا ما طرحت عليه هذه الأسئلة.

فُتح بابه مرة أخرى، وشاهدت ظله في المرآة، بينما كان يتحرك في الردهة، يبدو أنه سيغادر مرة أخرى.

نظرت من النافذة لأشاهده وهو يظهر في الشارع، تسلل البرد من خلال الزجاج، بينما شكلت أنفاسي بقعًا ضبابية على سطحه، أخيرًا ظهر إزرا حيث كان يسير في وسط الزقاق مرتديًا سترته وقبعه مائلة فوق عينيه.

ضغطت على شفتيَّ بقوة في محاولة لاحتواء هذه المشاعر الجياشة التي كانت تثور داخلي، عندما رأيته يختفي عبر الزاوية. وكززت على أسناني بشكل مؤلم، وشعرت بحرارة تكوي جلدي كتلك التي شعرت بها عندما لمسته.

لم أكن أعرف إذا كان الاختلاف في سلوك إزرا خلال الأيام القليلة الماضية بسبب ما حدث بيننا في الورشة، أو بسبب ما كان يفعله في بيت التجار، أو ربما لأن هنريك منحني حصة في أعمال العائلة. لم أتمكن من فهم سبب التحول في شخصيته من شخص كان ينظر في عينيَّ بكل حب وشوق إلى شخص يحاول أن يبعدني عنه بكل السبل. ففي لحظة بدا كأنه يشعر بالغيرة من كوين، وفي اللحظة التالية كان يتجاهلني.

نقرت بأصابعي على غلاف دفتر الحسابات، وتضاربت الأفكار في ذهني حتى نهضت أخيرًا. وبينما كنت في طريقي عبر الردهة، لاحظت أن غرفة مورو كانت غارقة في الظلام، والشمعة قد انطفأت. وعلى يساري، كان باب إزرا مغلقًا، على الرغم من عدم وجود أقفال على غرف النوم. ربما كان ذلك مقصودًا من قبل هنريك، لكنني فهمت القاعدة غير المعلنة، وهي أن عتبات الأبواب كانت نوعًا من الحدود التي لا يُسمح بتخطيها. وكانت كلمات إزرا الأولى معي هي تحذيري من الدخول إلى غرفته.

لمست المقبض البارد، وأدرته ببطء حتى فُتح الباب. تسارعت نبضات قلبي عندما دلفت إلى الداخل، وأغلقته خلفي. كانت الغرفة مظلمة والستارة مسدلة ما سمح لبصيص من ضوء القمر بالنفاذ إلى الغرفة، وتحديدًا على الأرض بجانب السرير عند الزاوية. كانت هناك

مرآة مستطيلة على الحائط بالقرب منها رف وضُع عليه مشط وشفرة حلاقة بجوار حوض غسيل اليدين. يبدو أن عالم إزرا صغير وبسيط.

كانت قطع النرد الثلاث لا تزال موجودة على التسريحة، فالتقطت واحدة وقلبتها بين أصابعي وتحسست الشقوق الدائرية الصغيرة المحفورة عليها، بينما توجهت نجو الجدار الذي علقت عليه الأوراق فوق المكتب المصنوع من الخشب. وكانت مثبتة بمسامير نحاسية مرتبة بطريقة تشبه هيكل القماش المنسوج بشكل وثيق.

تفحصت الكتابة المنقوشة على هذه الأوراق. كانت مكتوبة بالحبر الأسود دون وجود أية بقع تلطخ الورقة، يبدو أنها قد كُتبت بيد خبير. كان إزرا يدوِّن ملاحظات على كل شيء تقريبًا بدءًا من الحسابات إلى العمولات وحتى أدق التفاصيل. بدا الأمر أشبه بالنظر إلى خريطة لعقله، وتساءلت عما إذا كان هذا هو المشهد الذي يراه وراء نظراته الغامضة دائمًا.

لقد منحه هنريك ثقته الكبيرة، ولكن بطريقة ما فقد إزرا تلك الثقة. وتساءلت عندئذ عن السبب الذي يدفعني إلى التستر عليه حتى الآن، وعدم فضح أمره أمام الجميع.

فتحت الكتاب الموضوع على المكتب، وأنا أحرص على عدم تغيير موقعه، وتصفحت صفحاته بلطف، كان يحتوي بين طياته على أرقام تخص هنريك وأرقام أخرى للورشة، وكذلك بعض المدفوعات للنادل في المقهى. لا يوجد أي شيء عن سايمون ولا أي شيء أيضًا يمكن القول إنه سر. كانت جميعها معلومات قد سمعتها تُناقَش أثناء وجبات العشاء العائلية وحول مائدة الفطور كل صباح.

أطلقت تنهيدة عميقة وأنا ألقي يدي إلى جانبي يأسًا. ثم حدقت إلى دائرة الضوء المرسومة على الحائط. وكانت الغرفة معبَّقة برائحته، لكنني سرعان ما دفعت هذه الفكرة من ذهني على الفور؛ فلم أرغب في التفكير فيه، أو تذكر ملمس يديه على يدي، أو الإحساس بأنفاسه على جلدي. لم أرغب في التفكير في ذكرى إبهامه الذي كان يضغط بلطف على التجويف أسفل معصمي. بيد أن هذه الأفكار انتابت ذهني وأتعبته إلى حد كبير خلال الأيام التالية.

ضغطت بإصبعيَّ على طرف أنفي، ووقفت متحيرة لا أدري ماذا أفعل، لكن ما لبثت أن رأيت صندوقًا خشبيًّا صغيرًا على الرف بجانب المكتب. وعلى الرغم من أنه كان مغلقًا، ظهر من إحدى زواياه طرف ورقة صغير. مددت يدي وفككت المزلاج النحاسي الصغير، فاكتشفت مجموعة من الرسائل المرتبة بشكل مستقيم، بينما كانت أختامها الشمعية مزالة. أخرجتها وقرأت ما بها حتى وجدت إحداها تتضمن اسمًا مألوفًا لي؛ إنه سايمون.

تناولتها بخفة وفتحتها لأطلع على ما فيها.

إزرا،

أوافقك الرأي في أن ارتباط عائلتينا مهم للغاية لحماية مصالحنا المشتركة. وأعتقد أنه يمكننا التوصل إلى إجراء ما لتحقيق ذلك على أرض الواقع. لقد وجَّهت دعوة إلى هنريك للانضمام إلينا لتناول العشاء يوم الثلاثاء المقبل وأتوقع حضورك.

سايمون.

فُغِر فمي من هول ما انتابني من دهشة، وأنا أعيد قراءتها مرة أخرى.

ارتباط عائلتينا.

اهتزت الرسالة في يدي بينما كانت كلماتها تُحفر داخلي، كان هنريك محقًّا إذن. ولم أرغب في تصديق ذلك، وظللت على الرغم من كل شيء مقتنعة بأن خالي كان يتلاعب بي للسيطرة على كل شيء وكل شخص. لكن الرسالة كانت موجهة إلى إزرا لا إلى هنريك. وإذا كان يتحدث عن ارتباط بين العائلتين، فإنه يتحدث عني.

طويت الورقة بدقة، ووضعتها في الصندوق، وأغلقته بينما انهمرت الدموع الحارقة من عينيَّ. لقد سألته بينما كنت أنظر في عينيه عما إذا كان على علم بخطة هنريك لتزويجي بكوين، وكذب.

كانت هذه خطة إزرا إذن.

الرابع والعشرون

حضر مصمم الأزياء لتلبية طلبي على الفور دون تأخير، ودون أن يطرح أي أسئلة. كان الصندوق الذي وضعته سيلفي في منتصف سريري لا يزال كما هو، وعندما وقفت أنظر إليه، شعرت بفراغ عاطفي يملأ صدري. وأدركت أنني في هذه المرحلة لا بد ألا أدين بالولاء إلا لنفسي.

امتلأ المنزل برائحة العشاء، وبدأ أخوالي الوصول إلى الطابق السفلي، فضجت ألواح الأرضيات بوقع خطواتهم بينما كنت أحدق إلى الصندوق. لقد دفعت مبلغًا جيدًا لمصمم الأزياء، وكان هذا المبلغ هو آخر ما أحضرته معي من نقود من نيمسمير. لكنني شعرت بأن تلك البدلة الموجودة داخل الصندوق لها أهمية كبيرة بالنسبة لي تفوق كونها مجرد بدلة عادية.

فتحت غطاء الصندوق وأزلت الورقة الرقيقة والرفيعة الموضوعة على الثياب داخله. وقعت عيناي على قماش التويد الفاخر ذي اللون الأزرق الداكن، ثم رفعت السترة بحذر شديد. كان القماش نظيفًا ومكويًا، والخياطة خالية من أي عيوب على طول الدرزات، كانت السترة مثالية.

وُضِع أسفل السترة قميص ناصع البياض ومزين بأزرار من اللؤلؤ طُوي بشكل أنيق فوق بنطلون ذي لون كستنائي. وضعت السترة على سريري وفككت أزرار فستاني، وتركته يسقط على الأرض دون أن ألتقطه. كان النسيم البارد المنبعث من النافذة يداعب بشرتي بينما كنت أرتدي البنطال والقميص، وأدخله بدقة داخل البنطال. مررت الحمالات فوق كتفيَّ بشكل مثالي، ثم شرعت في إغلاق أزرار الصديرية قبل أن أرتدي السترة في النهاية.

ارتديت البدلة كاملة، وشعرت بقماش الصوف الكثيف يحتضنني، وعندها فقط استدرت نحو المرآة الطويلة. ارتسمت ابتسامة خجولة على شفتي، وتزين خداي باللون الوردي، بينما كنت أتفحص صورتي في المرآة. بدا لي أن ألوان تلك البدلة الدافئة وأنسجتها الرائعة تنبض بالحياة في ضوء الشموع الخافت. وفككت دبابيس شعري وتركته ينسدل على كتف واحدة.

بدوت كفرد من عائلة روث، وكان هذا أمرًا واضحًا للغاية لا يمكن إنكاره. لكن الشيء الذي جعلني أشعر بالفخر والثبات حينها هو أنني بدوت صورة حقيقية من نفسي، ربما للمرة الأولى على الإطلاق.

لن يكون هناك المزيد من الفساتين لحضور أمسيات العشاء، وارتداء المجوهرات الباهظة لجذب انتباه الرجال. ولن يكون هناك المزيد من الخدود المتوردة والابتسامات الخجولة، فقد سئمت التظاهر.

أخذت ساعتي من التسريحة، ووضعتها في جيب سترتي قبل أن أفتح الباب وأنزل على الدرج. سرت بخطوات متثاقلة، وعندما دخلت من باب غرفة الطعام، تلاشت الأصوات تمامًا كما يتلاشى اللهب من الفتيل، وتوجَّهت جميع الأنظار نحوي.

رفعت ذقني إلى أعلى في تحدٍّ. فلم أعد أخشى شيئًا، فمنذ أن وجدت الرسالة في غرفة إزرا وأنا أشعر بالغضب الشديد يملؤني. كنت أتحداهم في أن يتفوهوا بأي كلمة، وكثيرًا ما أردتهم أن يفعلوا ذلك.

تفحصني أخوالي بأعينهم، وبدت الحيرة الشديدة في نظراتهم، بينما كنت أقف في مكاني خلف المقعد في انتظار السماح لنا بالجلوس. فتح مورو فمه في دهشة، لكنه لم يقل شيئًا، واكتفى بأن يتنحنح. لكن ما أشعل الحرارة في جسدي حقًّا هي تلك النظرة القادمة من الجانب الآخر من الطاولة. فقد استجمعت قواي ونظرت في عيني إزرا الداكنتين، كان

يمسك بالجزء الخلفي من مقعده بكلتا يديه كأنه مرساة، وتفحصتني نظراته بدءًا من شعري حتى أخمص قدميّ.

لم أنأَ بناظريَّ بعيدًا عنه، ورفضت أن أكون أول من يقوم بذلك. فلم أنم جيدًا على الإطلاق خلال الليالي الثلاث الماضية بينما كنت أحلل حقيقة شخصية صائغ الفضة ومدى قوة علاقتي به. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى توصلت إلى استنتاج مفاده أنني لا أعرف حقيقته على الإطلاق، فقد كان شخصًا غامضًا حقًّا، يمثل لغزًّا محيرًا، لكنني كما قررت ألا أنصاع ثانية لمخططات هنريك، واتخذت قراري بإنهاء علاقتي بإزرا أيضًا.

لا يوجد شك في أن صنع يديه هو ما منح هنريك فرصته الوحيدة للحصول على خاتم التاجر، ودائمًا ما اعتقدت أنه حليفي الحقيقي الوحيد في هذا المنزل، لكن ذلك كان بمنزلة اعتقاد أحمق لفتاة ضعيفة اعتادت ارتداء أثواب سخيفة، فتاة كانت تتأنق وترسل الابتسامات هنا وهناك لجذب انتباه الآخرين تنفيذًا للأوامر الموجهة إليها.

لقد تركت تلك الفتاة ملقاة على أرضية غرفتي مع ثوبها.

شعرت بأن مورو يراقبنا بطرف عينه حيث كان ينتقل بنظراته بيننا، وقد بدت عليه الحيرة الشديدة.

سمعت صوتًا ينادي: «برين».

أخذت نفسًا عميقًا، وأدركت أن هنريك كان يقف على رأس الطاولة، كان يتفحصني بدقة، بينما تجعد جبينه في دهشة، وتجهم وجهه وأشار بيده إلى سترتي وبنطالي قائلًا: «قلت لك ما هذا؟».

نظرت إليهم، وقلت بنبرة تحمل غضبًا شديدًا أكثر مما ينبغي: «إنها ملابس».

لم يبدُ هنريك منزعجًا، وقال لي: «أستطيع أن أرى ذلك. لكن...» عندما لم أقل شيئًا، فرك جبهته بيده، وقال: «برين...»

قاطعته: «ألم تطلب مني أن أفتح بيت الشاي؟ كما طلبت مني التسلل إلى غرف المكاتب وفتح الأقفال المغلقة وجذب كبار الشخصيات في حي التجار حتى يتسنى لك الحصول على ما تريد؟ لا بأس إذن. فليس بإمكاني تحقيق ذلك وأنا أرتدي زي الدمية»، كنت أسمع الكلمات وهي تخرج من فمي، لكنني لم أستطع منعها، لقد تسللت عبر لساني بمرارة على الرغم مني.

اشتد السكون في الغرفة وكان أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة، بينما أخذت أحدق أنا وهنريك أحدنا في عيني الآخر عبر الطاولة. ازدردت ريقي بصعوبة، وتسارعت نبضات قلبي، بينما ضاقت عيناه ولمعت نيران المدفأة فيهما. لقد كنت غاضبة منه ومن ساريا ومن إزرا، والأهم من ذلك كله أنني كنت غاضبة من نفسي.

لكن في اللحظة التي شعرت فيها بأن هنريك على وشك أن يصب جام غضبه عليَّ، أرجع رأسه إلى الخلف وضحك بصوت عالٍ. وملأ صوت ضحكاته غرفة الطعام، وتبعه صوت أخوالي، الذين هموا بالجلوس على مقاعدهم وهم يضحكون.

أخذت أنظر حول الطاولة في ارتباك شديد، ورأيت أن إزرا هو الوحيد الذي لم يكن يضحك، وكانت عيناه مثبتتين على وجهي، ما جعلني أشعر بنار المدفأة المشتعلة تضطرم في صدري. فكانت نظراته توحي بأنه فهم مغزى كل كلمة من كلماتي.

سحب هنريك مقعده، والابتسامة لا تزال مرسومة على شفتيه، وأومأ لي إيماءة موافقة، وقال: «فليكن ما أردتِ».

سحبت مقعدي بحذر وجلست. نظر هنريك إليَّ مرة أخرى، وقال لي بنبرة هادئة: «الآن، أخبريني كيف تسير الأمور».

ومع ذلك أخذت أراقبه من كثب متوقعة حدوث تحول في مزاجه في أي لحظة؛ لقد تحديته، ربما ليس بشكل صريح، ولكن بطريقتي الخاصة، وقد لاحظ ذلك؛ لكنه كان يبتسم بينما يبدو الهدوء على ملامحه دون أن ولم ألحظ أي تعبير على وجهه الجامد. وقد جعلني ذلك أستشيط غضبًا أكثر من أي شيء آخر.

قال: «كيف تجري الأمور في بيت الشاي؟».

أجبته بينما بدا الضيق في صوتي: «إنها على ما يرام».

أخذ رشفة من مشروب الشعير، وسألني: «هل سيكون مفتوحًا في الوقت المحدد؟».

أجبته: «بل قبل الوقت المحدد».

كنت قد حددت موعد افتتاح بيت الشاي بعد ستة أيام، وكان العمال الذين وظَّفتهم يعملون على مدار الساعة لإعادة تنجيد المقاعد وتلميع الثريات. وفي غضون أيام، ستكون أبوابه مفتوحة، وسيقرر خالي ما إذا كنت أكثر إفادة له في الزواج أم في العمل.

قال لي: «هذا جيد».

انعكس وهج المدفأة على وجه إزرا ما جعل ملامحه تبدو أكثر حدة. تذكرت الليلة الأولى التي تناولت فيها العشاء على هذه الطاولة، وسلوك إزرا الوقح والفظ معي. ولم يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كانت تصرفاته هذه قبل أو بعد عقد صفقته مع سايمون التي سهل له الحصول عليَّ من خلالها.

كنت أدرك تمامًا أن سايمون لن يعطي هنريك رعايته دون ثمن، ودائمًا ما تساءلت عن هذا الثمن، بيد أنني عرفت أن ابنة أخت هنريك، تلك الفتاة الرقيقة الجذابة هي الجائزة المناسبة لتاجر ذي ماضٍ غامض. في الواقع، لم يكن من السهل العثور على زوجة لكوين

في ظل سمعة سايمون على الرغم من مكانته والتأثير الذي يمكنه إحداثه في الوقت الحالي.

كززت على أسناني عندما أحدثت السكين صوتًا مزعجًا على الطبق. ومرة أخرى وجدت عينيَّ إزرا مثبتتين عليَّ، ولم ينطق بكلمة واحدة على العشاء إلا عندما خاطبه هنريك مباشرة. وعلى الرغم من صمته، كنت أجد عينيه مثبتتين عليَّ في كل مرة أشعر فيها ببعض الانزعاج والتوتر، لكنه كان يشيح بناظريه بعيدًا عني في كل مرة تلتقي عيناي بعينيه.

عندما انتهى هنريك تناول كأسه إلى المطبخ، وتبعه كازيمير ونويل. وبمجرد رحيلهم وضع إزرا منديله على الطاولة، وهب واقفًا كأنه كان ينتظر مغادرة هنريك ليفعل ذلك.

شاهدته بطرف عينيَّ، وشعرت بنيران الغضب تأكل أمعائي. شبك أزرار سترته ومرر يدًا واحدة خلال شعره الداكن ومشطه للخلف، قبل أن يتجه نحو الباب. وغادر مرة أخرى، وكان يبدو أنه يريد ألا يلاحظه هنريك.

انتظرت أن يغلق باب المنزل، ثم نهضت من مقعدي دون أن أكمل تناول عشائي. قال لي مورو بفم مكتظ بالطعام وهو يمسك منديله بإحدى يديه: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

قلت له سريعًا محاولة رسم ابتسامة بسيطة على شفتي: «إلى بيت الشاي. لقد تذكرت من فوري أنني نسيت شيئًا ما».

عرض عليَّ المساعدة قائلًا: «هل تريدينني أن أذهب معك؟».

قلت بسرعة كبيرة: «لا، أنا سأذهب بمفردي، وسأعود قبل أن يحل الليل وتضاء مصابيح الشوارع».

تردد مورو قبل أن يتناول قضمة أخرى، وحرصت على جعل خطواتي بطيئة وثابتة حتى عبرت زاوية الردهة، فانتزعت إحدى قبعات أخوالي من المشاجب الموجودة بجانب الباب، وتسللت إلى الزقاق بعد أن أغلقت باب المنزل خلفي بهدوء.

كان الشارع فارغًا، فأخذت أنظر في كلا الاتجاهين حتى سمعت صوتًا خافتًا لحذاء، فتبعته في اتجاه الشارع الرئيسي في لوير فالي. وعندما وصلت إلى الرصيف، رأيت ظل إزرا يمر سريعًا بجوار نافذة متجر مضاءة كان يسير بخطوات سريعة وكتفاه مشدودتان للخلف.

انتظرت قليلًا قبل أن أتبعه، وحرصت على البقاء بالقرب من المباني على مسافة بعيدة بما يكفي لأتمكن من الاختفاء بسهولة في الظل الذي يلقيه سقف تلك المباني إذا ما نظر إليَّ فجأة.

تغيرت ملامح المدينة في ظل ضوء النهار المحتضر، حيث أضيئت المصابيح، وجمع السكان ملابسهم المنشورة على حبال الغسيل، وعادت العربات من السوق. ظل إزرا يسير في الشارع الرئيسي حتى غادرنا لوير فالي، ثم انعطف نحو الميناء، وتبعته محاولة أن أبقي نظري عليه خاصة وسط هذه الحشود المتدفقة من بيت التجار.

على حد علمي لم يكن لدى هنريك أي عمل في هذا الجزء من الميناء، لكن إزرا كان يسير بخطوات واثقة، وقد بدا أنه يعرف طريقه جيدًا. وما كنت متأكدة منه أنه بغض النظر عن وجهته، لم يكن ذلك بناء على أوامر خالي.

كان ينظر بعينيه كل بضع خطوات نحو المباني العلوية كأنه يراقب شيئًا ما، ويبدو أنه تعلم ذلك من عائلة روث، فهي دائمًا ما يتوخى أفرادها الحذر، ويتوقعون وجود من يراقبهم. لو أنني كنت على علم بذلك ما وضعت ثقتي في إزرا منذ البداية.

عندما استدار مرة أخرى توقفت فجأة، ودسست نفسي بين مصراعي نافذة مفتوحين. كان يسير باتجاه الأرصفة، وهو المكان نفسه الذي زرته ليلة أن طرقت باب آرثر؛ لكن إزرا قام

بعمليات التسليم الخاصة به في الموانئ بداية الأسبوع، فلِمَ يذهب إلى هناك الآن إذن؟

أطلقت نفسًا عميقًا قبل أن أتبعه، حيث كانت المباني تصعد فوق التل، وتتشابك أسطحها الداكنة في متاهة من الأزقة الضيقة، والطرق المتعرجة. وبينما واصلنا التقدم، كانت المنطقة تصبح مقفرة بشكل متزايد، فلم يكن هناك ما يمكنني الاختباء في ظله؛ لذا لم يكن لديَّ خيار سوى السماح لإزرا بأن يتقدمني بمسافة كبيرة إذ ينتابني القلق من أن يراني.

ومع تحركه عبر سلسلة من المنعطفات، اضطررت إلى تسريع وتيرتي، محاولة تمييز مكان وجودنا والطريق الذي نسلكه. وعندما نظرت إلى الخلف، رأيت المياه تتدفق مثل شلال أسود بفعل الظلام، بينما تحولت المدينة إلى ساحة متلألئة من الأضواء. وعندما نظرت إلى الشارع أمامي انفتح باب فجأة، وخرجت امرأة تحمل دلوًا من الماء، واصطدمت بي بقوة.

أطلقتْ صرخة عالية، حيث كانت على وشك السقوط على الأرض الحجرية، فأمسكت بها، وأبقيتها واقفة على قدميها، ولكن بمجرد أن اعتدلت دفعتني وهي تصيح: «ماذا تفعلين هنا؟». نثرت الماء الذي تجمع على يديها بعيدًا عنها، وانطلقت أنا سريعًا متفحصة الشارع.

تركتها وسترتي مبللة بالمياه، واتجهت إلى الزقاق التالي. لم يكن إزرا هناك، فذهبت إلى الزقاق التالي، لكنه كان فارغًا.

استدرت حول نفسي وأنفاسي تشكل ضبابًا في الهواء البارد. لم يكن هناك أحد باستثناء أصوات العمل الخافتة التي تنبعث من الأرصفة، وجرس المرفأ الذي يرن من بعيد. تأوهت وسحبت القبعة عن رأسي، فانسدل شعري على كتفي.

لقد اختفى إزرا.

الخامس والعشرون

لم أغادر بيت الشاي في اليوم التالي قبل حلول الظلام، تهيأ كل شيء في المكان بشكل تدريجي، ومع بقاء يومين فقط قبل الافتتاح، تركت نفسي أنهمك في العمل. فقد كنت أشتت انتباهي عن تلك الآلام التي تعصف بقلبي عند تفكيري في كل من هنريك وكوين وإزرا.

كان أفراد عائلة روث يحبون التحدث عن الروابط الأسرية القوية، وصلة الدم التي تجمعهم، لكن الحقيقة هي أن كل فرد منهم كان يهتم بنفسه أولًا؛ لذا فقد قررت أن أفعل الشيء نفسه.

توقفت عند المدخل المفتوح للمطبخ عندما رأيت مورو. كان زر ياقة قميصه مفكوكًا بينما تساقط شعره الجامح على عينيه، وهو ما يعد مؤشرًا واضحًا على عدم وجود هنريك في المنزل. وقفت سيلفي خلفه تعجن بقوة كتلة من العجين على طاولة المطبخ.

سألتني وهي ترفع أحد حاجبيها: «هآنتذا، هل أكلتِ؟».

بدا السؤال أشبه بالاتهام، لم أكن قد تناولت وجبة واحدة في ذلك اليوم؛ حيث تلاشت شهيتي. لم أكن أريد العودة إلى المنزل لذا قضيت الوقت منهمكة في العمل؛ فلم تكن لديَّ رغبة في الجلوس حول طاولة واحدة مع أشخاص يتظاهرون بأنهم يهتمون بي فقط من أجل تحقيق مكاسب مالية. وعندما أفتتح بيت الشاي، فسيصبح ملاذي الآمن.

أخذ مورو قضمة من تفاحة وهو يقلِّب صفحة من دفتر الحسابات الذي كان يقرؤه. ثم أشار نحو باب الورشة دون أن يبعد عينيه عن الأرقام قائلًا: «إزرا يبحث عنك».

أخذت نفسًا عميقًا وسرت ببطء أحاول جر قدميَّ عبر الردهة. سمعت صوت طرقه على المعدن، لكنه توقف على الفور عندما طرقت الباب المغلق، وعندما فتح الباب وقف إزرا جامدًا في مكانه لوهلة ثم تراجع إلى الخلف.

قال وهو يفتح الباب على مصراعيه: «مرحبًا». دخلت دون أن أنطق بكلمة واحدة.

مرحبًا، هذا كل ما أستطاع أن يقوله. كززت على أسناني لأمنع نفسي من الرد بسلسلة من الشتائم التي كانت تقف على طرف لساني.

قلت بنبرة باردة: «قال مورو إنك تريد رؤيتي».

أغلق الباب قائلًا: «طلب مني هنريك أن أريك الأحجار الكريمة التي انتهيت منها قبل أن أبدأ العمل على المجموعات الأخرى».

حدقت إلى وجهه فحسب، لم يكن لديَّ أي اهتمام بالمحادثة، فقد كنت أشعر بالاختناق في كل لحظة تمر وأنا أقف معه في الغرفة نفسها. فلم يكتفِ بإثارة غضبي نتيجة كذبه وتآمره ضدي فحسب، بل سبب لي ألمًا شديدًا أيضًا ما زال عالقًا داخلي. لكن هذا خطئي، فأنا من سمح له بالتأثير عليَّ إلى هذا الحد.

سرت بين الطاولات خلفه وتوقفت أمام الفرن المتوهج. يبدو أنه كان يعمل على صندوق فضي صغير مرصع بالماس، أو ما بدا مثل الماس. ربما تكون مجموعة من منتجات هنريك المزيفة والمتجهة إلى منطقة سيروس.

مد يده عبر الطاولة ليأخذ الحقيبة الجلدية الصغيرة الموضوعة على كومة من الكتب، جفلت بشكل لا إرادي عندما لمست ذراعه ذراعي، لاحظ ذلك، فأعطاني الحقيبة من مسافة بعيدة. وتناولتها دون أن أنظر إلى عينيه، وعندما قلبتها وقعت ثلاثة أحجار نرد في راحة يدي، إنها أحجار النرد الخاصة بلعبة ثري ودوز.

أطلقت نفسًا طويلًا وهادئًا، بدت أحجار النرد مثالية بالضبط كما كنت أتخيلها.

التقطت أحدها، وأمسكت به بين إصبعي، وتفحصته من كثب. وكان الحجر مصقولًا للغاية لدرجة أنني كنت أرى انعكاسي فيه، لكن زواياه كانت حادة بينما كانت الشقوق المستديرة التي تشير إلى الأرقام بارزة بشكل مثالي.

نظرت إلى عينيه.

انحنى إلى الطاولة، واقترب مني مرة أخرى، ثم سألني عندئذ: «هل سيؤدون الغرض؟».

قلت له وأنا ألقي النرد في يده: «نعم».

بدت النظرة التي ومضت في عينيه أقرب إلى الرضا، كأنه قد شعر بالسعادة لأنني أحببت صُنع يديه. لكنني ظللت على الرغم من ذلك غير مبالية، أو على الأقل حاولت التظاهر بذلك. وكان همي الأساسي هو أن يقوم بواجباته.

قال: «إنها فكرة جيدة للغاية». وكان صوته عميقًا هادئًا حتى إنني شعرت بقشعريرة تسري في أنحاء جسدي عندما تحدث. وكرهت شعوري بذلك، وكان إزرا أشبه بشعلة نار أنكوي بنارها كلما اقتربت منها.

تمتمت: «سنرى».

لم أكن أعرف حتى هذه اللحظة ما اكتسبه إزرا من خلال تظاهره بدعمي، ما لم يكن هناك ما يريده مني. وكان يعلم بالفعل أنني كذبت على هنريك بشأن دفتر الحسابات الخاص بسايمون، ولم يشِ بي على الرغم من ذلك. وربما اعتقد أنه إذا احتاج إلى حليف ضد خالي، فسأكون أنا كذلك، لكنه كان مخطئًا.

تجرأت وسألته: «ماذا كنت تفعل في بيت التجار في ذاك اليوم؟».

حافظ إزرا على سلوكه الهادئ، لكن كان من الواضح أن سؤالي فاجأه. وأدار ظهره لي، وصرف انتباهه إلى شيء ما على طاولة العمل.

سألني: «كيف عرفت أنني كنت في بيت التجار؟».

أجبته: «لقد رأيتك مع آرثر».

لكنه رد عليَّ بسؤال مفاجئ، قائلًا: «ماذا كنت تفعلين في الموانئ الليلة الماضية؟» كان صوته هادئًا يخلو من الغضب الذي شاب صوتي أنا.

لقد رآني إذن.

ثم أضاف وقد صارت عيناه أكثر دكنة مما عهدتهما: «أيًّا كان ما كنتِ تفعلينه، عليكِ أن تتوقفي قبل أن تفعلي شيئًا لا يمكن التراجع عنه».

لقد كان كلامه بمنزلة تهديد بالنسبة لي، كما رسمت تلك الكلمات التي نطق بها خطًّا واضحًا بيننا. وقفنا هناك يحدق أحدنا إلى الآخر، وكل منا ينتظر أن يشيح بنظر الآخر أولًا، لكنني رفضت الاستسلام.

كان إزرا هو الذي طرفت عيناه أخيرًا، وانقبض فكه قليلًا، لكنه لم يكشف عن المزيد مما يدور في رأسه. ثم قال وهو يرمي كيس النرد مرة أخرى على الطاولة: «سأنهيهم في الوقت المناسب قبل الافتتاح».

مررت بعيني على الرفوف التي تقع خلفه. فقد كان يقضي ساعات طويلة في هذه الغرفة كل يوم، وغالبًا ما يكون الباب مغلقًا. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أفكر فيها فيما إذا كان من الممكن أن يكون هناك أي أدلة بين هذه الجدران حول ما كان يخطط له بالضبط. وتساءلت عما إذا كان هناك تفسير لذهابه إلى الجانب الآخر من المدينة في تلك الليالي التي كان يجب أن يكون فيها في المقهى أو في مكان آخر؟

كان الكثير من الأسئلة والاتهامات يقف على حافة لساني، لكنني لم أستطع التعبير عن أي منها بصوت عالٍ، حتى لا يعرف ما يدور داخلي، ويكشف كم الأذى الذي سبَّبه لي. فلم أكن مستعدة لحدوث ذلك.

انفتح باب الورشة فجأة فجفلنا، وظهر مورو عندئذ وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.

قال وهو يشير برأسه نحو باب غرفة مكتب هنريك: «من الأفضل أن تحضرا في الحال إلى هناك».

ألقى إزرا نظرة نحوي قبل أن يفك مئزره ويسحبه من فوق رأسه، وكان يرتدي تحته قميصًا أبيض فوقه صديرية، شبك أزرار قميصه حتى رقبته وهو يشق طريقه نحو الباب، فتبعته.

كانت غرفة مكتب هنريك أشبه بشعلة مضيئة تشع بالضوء الذي يصل إلى الردهة؛ إذ كانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها. وبلعت ريقي بصعوبة بمجرد أن رأيته. كان يسير عبر الغرفة ذهابًا وإيابًا، بينما أمسك مؤخرة رقبته بإحدى يديه، وعيناه الجامحتان مثبتتان على الأرض. كان كازيمير ونويل ينتظرانه أن يتحدث بالفعل.

وجدت مكانًا بصعوبة لأقف فيه عند الزاوية، وعندها فقط رأيت رسالة على مكتب هنريك، كانت أطرافها مجعدة، والظرف الذي كانت موضوعة فيه ممزقًا.

صاح هنريك بصوت عالٍ أشبه بصوت العاصفة: «ذلك الوغد!».

بدا نويل متخوفًا كأنه يتوقع شيئًا مقلقًا على وشك الحدوث، وتساءل قائلًا: «من يكون؟».

صاح هنريك: «آرثر!».

سأله كازيمير بنفاد صبر: «ماذا فعل؟».

زمجر هنريك قائلًا: «لقد حصل على راعٍ من نقابة الأحجار الكريمة». ولم يكن هناك وجه واحد في الغرفة لم تعلُه آثار الصدمة من ذلك الخبر، وساد صمت متوتر ما جعل الهواء باردًا، على الرغم من نار المدفأة المشتعلة.

قال هنريك وهو يكز على أسنانه، وينفث الهواء بقوة من فتحتي أنفه: «هل يمكن لأحدكم أن يخبرني كيف لم نعرف أي شيء عن هذه الأخبار؟».

نظر كازيمير إلى نويل نظرة خاطفة قبل أن ينظر إلى الأرض.

تمتم مورو: «يبدو أنه أراد إخفاء ذلك عن الجميع».

ردد هنريك بحدة: «يبدو أن الأمر كذلك بالفعل» ثم نظر إلى إزرا قائلًا: «كان من المفترض أن يكون تحت مراقبتك».

نظرت خلسة إلى إزرا، فقد رأيته أمس في الميناء، وربما كان ذاهبًا إلى مقابلة آرثر. شعرت بمشاعر مضطربة تجيش داخلي، حيث بدأت التفكير في العديد من السيناريوهات المحتملة.

رفع إزرا عينيه عن الأرض، وقال: «نعم. لقد كُلفت بمراقبته».

لم تكشف نبرة إزرا عن أي قلق أو توتر. وبدا هادئًا للغاية، وقد وقف بوجه خالٍ من التعبير يستمع إلى خالي وينتظر ما سيحدث. ثم ما لبثت أن رأيت يده مطوية تحت أحد مرفقيه؛ إذ كان يعبث بإصبعه بعصبية في الخياطة الجانبية لسترته.

كنت محقة، فلم يكن إزرا يتآمر ضدي أنا فقط، وإنما كان يتآمر ضد هنريك أيضًا، وإذا كان هذا صحيحًا، فإنه سيسعى جاهدًا لعدم حصول هنريك على خاتم التاجر، وربما قد ساعد آرثر على العثور على راعٍ آخر.

تحدث هنريك بصوت منخفض للغاية قائلًا: «إذن، كيف حدث هذا؟».

أجاب إزرا: «لا أعرف».

وبخه هنريك: «لا تعرف؟ يبدو أن هناك كثيرًا من الأمور التي بت تجهلها مؤخرًا».

ظل إزرا ساكنًا. وظننت لحظة أنني رأيت ملامح الخوف بادية على وجهه الصارم. شعرت حينها بأنني أستطيع أن أرى انهيار أي خطة أو مخطط كان لديه، وهو ما كان يتضح من خلال تعبيرات عينيه.

كسر نويل الصمت أخيرًا وسأل: «مَن الراعي؟».

قال هنريك بغضب: «روان».

قاطعته: «مَن روان؟».

تمتم مورو بجانبي: «تاجر أحجار كريمة في نورث إند».

بدت مفاصل هنريك بيضاء بينما اشتدت قبضته على الجزء الخلفي من المقعد لدرجة أنني ظننت أنه سيشقه إلى قسمين.

قال كازيمير وهو يلوِّح بيده في الهواء: «يمكننا أن نتخلص منه، لن يستطيع آرثر الحضور إلى المعرض بكل تأكيد إذا لم يكن يتنفس».

اتسعت عيناي في ذهول وأنا أنقل ناظريَّ بينهم، بدا أنهم جميعًا يفكرون في قتله بجدية.

صاح هنريك متذمرًا: «لقد فات أوان ذلك؛ بما أننا قد علمنا أمر الرعاية، فإن الآخرين قد علموا به كذلك، وسيكون من السهل جدًّا أن تلصق التهمة بنا».

أومأ نويل بالموافقة: «أنت على حق».

قال هنريك ببطء: «لن ينام أحد منكم حتى نصلح ما أفسدناه جميعًا».

لم يكن هناك شك في أن ما حدث لا يعد بالأمر السيئ لهنريك فحسب، بل لهم جميعًا، ولي أيضًا.

فإذا لم يحصل هنريك على خاتم التاجر، فلن يوافق أبدًا على التخلي عن زواجي بكوين، إذ سيصبح في حاجة إلى ذلك أكثر من أي وقت مضى.

نهض من المقعد مندفعًا، واستدار ناظرًا نحو المدفأة، وخرج كازيمير إلى الردهة، ثم تبعه نويل. تلاهم مورو وإزرا، فقد فُتح باب المنزل وأغلق أكثر من مرة. لقد وكِّلوا جميعًا بمهام، فكانوا يقومون بما يلزم لإنجازها على أكمل وجه.

لكن كان لديَّ شعور بأن إزرا يعرف بالفعل ما كان يحدث، كما شعرت أيضًا بأن الأوان قد فات لإصلاح كل ما فعله.

عندما استدار هنريك فوجئ بأنني ما زلت واقفة هناك. فسألني: «ماذا تريدين؟».

نظرت إليه بينما تسارعت ضربات قلبي بشدة حتى أوشكت أن تعصف بصدري، إن قول ما أنوي قوله الآن يعني وقوع عواقب حتمية لا رجعة فيها. فلن يحول أي شيء دون انتقام هنريك من إزرا. لكن كان لا يزال هناك جزء صغير مني لا يريد رؤية إزرا تحت مقصلة هنريك، وكنت بحاجة إلى استئصال تلك المشاعر التي أكنها له بالضبط كما يُستأصل المرض اللعين.

قلت وأنا أشعر بالكلمات تبدو مثل السم على لساني: «أعتقد... أعتقد أن إزرا من سهل له ذلك».

وفجأة، ظهر الظلام في كل ركن من أركان الغرفة، بينما ألقت النار انعكاسًا في عيني هنريك.

أضفت: «أعتقد أنه هو من ساعد آرثر على الحصول على رعاية روان».

قال هنريك بينما بدا الغضب جليًا على وجهه: «كيف؟ لماذا؟».

سحبت ياقة قميصي إلى أعلى، وتحركت بعصبية على قدميَّ، وقلت: «لقد تبعته إلى الميناء في الليلة الماضية، وبدا كأنه متجه إلى مقابلة آرثر». تنفست بسرعة كبيرة حتى إنني شعرت بالدوار، وأضفت: «كما أنني رأيته مع آرثر في بيت التجار قبل بضعة أيام».

تسمّر هنريك في مكانه حتى شعرت بأنه أصبح مثل تلك التماثيل في حي التجار.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت: «لقد كنت محقًّا، إنه يخفي شيئًا ما».

لم يبدُ غاضبًا، بل كان يفكر، كانت تروس عقله تدور بلا توقف، وهو ما بدا أكثر ترويعًا.

سألني وقد تحولت ثورته إلى هدوء غريب: «هل يمكنك معرفة ما الذي يخفيه؟».

استطعت أن أشعر به، وهو يفكر في جميع السيناريوهات والخطط المحتملة. وبدا أن جميعها يؤول إلى النتيجة نفسها، وهي التخلص من إزرا. لم أرَ أنني مخطئة، كان إزرا هو من اتخذ قراره، ولذلك اتخذت قراري أيضًا. فقد رأيت أن مصالحنا قد تعارضت عن هذه النقطة، فحصول هنريك على رعاية سايمون كان كفيلًا بتخليصي من خطة تزويجي من كوين؛ لذا فعلت ما بوسعي لإنقاذ نفسي من ذاك المصير.

قلت لهنريك عندئذ: «نعم يمكنني».

السادس والعشرون

وقف رجل خلف النافذة يتطلع إليَّ منذ ساعات، حيث كنت مختبئة في زاوية الجدار المبني من الطوب أراقب سفح التل. عندما أُغلق بيت التجار وانتهى العمل في الميناء أصبح مكاني بجوار النافذة المغطاة بالألواح الخشبية في ذلك الركن أكثر برودة، ومع ذلك بقيت في المكان نفسه دون حراك.

على الجانب الآخر من الشارع، كان مدخل ورشة الحدادة مفتوحًا جزئيًّا، ما سمح لنسيم البحر بالدخول، وكان الرجل الذي يعمل في الداخل يراقبني. وكان تدقيقه يزداد مع مرور كل ساعة، ويصبح أكثر ريبة.

تمكَّنت في أغلب الوقت من تجنب النظر إلى إزرا في ذلك الصباح، وأبقيت عينيَّ على طبقي عند الفطور، فلم أرغب في التفكير فيما سيستطيع أن يراه إذا قابلت عيناي عينيه. وكانت لديه قدرة هائلة على قراءة ما يدور في أذهان الآخرين، وما تكنه صدورهم، وهذا ما جعله أكثر قيمة لدى هنريك وغيره. لكن الآن انقلب السحر على الساحر، وعندما أكتشف ما ينوي فعله، فسأكون اليد اليمنى لخالي، وعندئذ سيتطلب الأمر أن يبقيني إلى جواره دون أن يزوجني.

لقد استغرق مني الأمر ثواني فقط لأقرر ما إذا كنت سأعطي هنريك الدليل الذي كان بحاجة إليه ليتأكد من أن إزرا خائن لي ولعائلة روث كلها. وبدوري سأضمن تحرري من الزواج بكوين، ومن أي شيء آخر كان مخططًا لي.

تسللت من المنزل بمجرد أن بدأ العمل في الورشة، فقد كانت مسألة وقت فقط قبل أن يعود إزرا إلى الميناء كما كان يفعل كل يوم تقريبًا. وعندما يفعل ذلك سأكون في انتظاره

بكل تأكيد.

مع انحسار ضوء النهار، ركزت بصري أكثر على سفح التل، المدخل الوحيد لهذا القسم من الأرصفة البحرية. فإذا ما جاء إزرا من هذا الطريق، فلا بد أن يمر من هنا. طوال اليوم، كنت أشاهد التجار، والبائعين، والباعة المتجولين يأتون ويذهبون، منتظرة رؤية إزرا بجسده الطويل والرشيق بينهم. كنت أنتظر رؤية قبعته الداكنة وسترته الأنيقة وحذائه اللامع؛ سأكون قادرة على تمييزه في أي مكان. لكن لا بد أن أتحلى بمزيد من الحرص هذه المرة حتى لا يكشفني.

ومع حلول الظلام، ظهر إزرا أخيرًا. وفي غمضة عين أصبح عند تقاطع الطريق في الأسفل. وسار بخطواته السريعة الهادفة عبر المساحة المفتوحة بين المباني.

أخذت نفسًا عميقًا وضيقت عيني لأركز مجال الرؤية وأرى بشكل أفضل. واصل المشي ونظره مثبت إلى الأمام، لكنني كنت أعرف شكله جيدًا. لقد كان محفورًا في ذاكرتي، الصورة المميزة له، وهو يعمل تحت وهج الفرن المشتعل.

انطلقت خلفه في الزقاق، ومشيت في طريق موازٍ لطريقه. وفي كل مرة كان يختفي خلف مبنى، كنت أحبس أنفاسي، وأتوقف ثم أتحرك ثانية عندما يعاود الظهور. ولم أكن لأرتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبته في المرة السابقة. وبينما كان أفراد عائلة روث يراقبون الشوارع والنوافذ من حولهم، كانت لديَّ من هنا رؤية أوضح لمسار إزرا.

كانت مصابيح الشوارع تشبه الأجرام السماوية العائمة في الضباب الكثيف الذي غطى شوارع باستيان، سرت وياقة سترتي مرفوعة في مواجهة الريح. كانت المباني السوداء تلوح في الأفق مثل العمالقة في الضباب، وتحجبني بينما كنت أتنقل بين الأرصفة البحرية المتداخلة. اتبعت خارطة الطريق المحفورة في ذهني، فقد درستها في وقت متأخر من الليل، في محاولة لفهم اتجاهاتي في طريق الموانئ المعقد.

وفقًا للمهام التي جرى توزيعها على الفطور في ذلك الصباح، كان من المفترض أن يكون إزرا في موقعه في المقهى، لكنه كان في الجانب الآخر من المدينة، ومن المحتمل أنه رشا النادل ليتكتم أمره إذا جاء أي من عائلة روث ليسأل عنه. كان ذلك هو التفسير الوحيد لقدرته على إخفاء أمر عدم ذهابه إلى المقهى. وبالنظر إلى حصول آرثر على الرعاية، لا يسعني إلا أن أخمن أنه تفاوض على اتفاق شامل مع إزرا. ربما لم يكن دوره فيه يقتصر على كونه مجرد صائغ فضة، بل كانت له أيضًا مصلحة خاصة في العمل.

كان الشارع الضيق يرتفع تدريجيًا في اتجاه صاعد، فصعدت معه بينما تضاءلت أشعة الشمس في الأفق من خلفي. ومن بعيد بدا الميناء غارقًا في الظلام ما جعل الأرصفة تبدو كأنها قد التحمت بالسماء فلم يعد بالإمكان تمييز أي ملامح لها، لكن كان بإمكاني سماع العمل المتواصل داخلها.

لم يكن هناك فرق بين الليل والنهار في هذا الجزء من المدينة، حيث واصل العمال عملهم بجد ونشاط دون انقطاع، ومن بينهم تجار الأحجار الكريمة، وصانعو الأشرعة، والعاملون في ورش الحدادة. واصل العمال المهرة في باستيان مهامهم بعد ساعات العمل المعتادة لتحقيق مقرراتهم الإنتاجية وتوفير الإمدادات لكل من سوق بيت التجار وجميع التجار القادمين إلى الأرصفة في صباح اليوم التالي.

وصلت إلى التقاطع التالي، وتوقفت مؤقتًا متوقعة ظهور إزرا في الشارع السفلي. وعلى الرغم من أن ضوء المصابيح كان يلقي وهجًا على الزقاق بين المباني، فلم يكن هناك أي أثر له، ونظرًا لأنه كان من الصعب أن يسلك طريقًا فرعيًا دون أن ألاحظه، فإن التفسير الوحيد المعقول هو أنه وصل بنجاح إلى وجهته المقصودة دون أن أراه.

لكن الرصيف الرابع عشر حيث كانت ورشة آرثر، كان بعيدًا عن الشارع، ويوجد تقريبًا في نهاية مجموعة المباني المكتظة.

تفحصت المكان من حولي ببطء وأنصت السمع، لم يكن هناك وقع خطوات ولا أي أصوات أخرى، لم يكن هناك أي أحد سوى الرجل الذي يحمل سُلمًا على كتفيه ويذهب به من مصباح إلى آخر في الشارع.

وعندما لم يظهر إزرا نزلت إلى أسفل التل، حيث من المفترض أن يكون، وعندما وصلت إلى الممر وجدته خاليًا، لكنني بقيت مختبئة في الظلال لأتفحص الشارع بعناية. وبين هذا الزقاق والزقاق الذي يليه، لم يكن هناك سوى مبنى واحد له باب واحد.

ارتفعت مدخنتان على جانبي مبنى، وانبعثت منهما أعمدة من الدخان. لكنني لم أتبين طبيعة العمل داخل هذا المبنى بالتحديد. تقدمت بحذر، وتحولت إلى الزاوية حتى وقعت عيناي على اللافتة المهترئة؛

المرفأ رقم 64.

يقع هذا المبنى على مشارف المدينة، وتحديدًا بجوار سور المدينة ما مثَّل حدًّا فاصلًا قبل بداية ظهور سفوح التلال. لم يبدُ أنه ورشة عمل لتاجر ميسور أو مجرم ثري، فقد كانت الركائز الحجرية للمبنى متداعية، ولم تكن قد مسَّتها فرشة طلاء سنوات عديدة، بدا أن لهذا المبنى غرضًا آخر مختلفًا تمامًا.

اتبعت الواجهة الطويلة والخالية من النوافذ حتى وصلت إلى الباب الوحيد الذي بدا لي للحظة أنه من المستحيل العثور عليه؛ فقد كان مطليًا باللون الأسود الباهت نفسه الذي طُلي به الطوب. لم يكن هناك مقبض للباب، لكن امتد فقط صف من المسامير الحديدية على جانب واحد منه ما كشف عن وجود مدخل للمبنى في هذا المكان.

وضعت أذني على المعدن البارد لأصغي السمع، وكانت الأصوات الصادرة من الداخل هي الأصوات المعتادة في مثل هذه الأماكن. لكنني سمعت طنينًا خفيًا وخافتًا ما يشير إلى وجود نشاط خفي داخل هذا المكان.

لم يكن غريبًا أن يمتلك التاجر الواحد أكثر من ورشة عمل؛ لذلك كان من الممكن أن تكون هذه ورشة عمل آرثر. وإذا كان إزرا يعمل معه أو لديه، فمن المحتمل أنه كان يدفع له مبلغًا كبيرًا. أو ربما قد عرض شيئًا ما على إزرا لا يمكنه رفضه نظير مساعدته إياه، وربما كانت بينهما شراكة. مهما كان الأمر، فقد أخطأ هنريك عندما قال إن إزرا ليس لديه طموح. وفي الواقع، كنت أظن أن خالي قد قلل من شأن إزرا بأكثر من طريقة كما فعلت أنا.

دوًّى صوت فرقعة عالية مفاجئة خلف الباب، فتراجعت إلى الخلف بسرعة، فقد أوشك الباب أن يطرحنى أرضًا وهو ينفتح. انطلق شخص من الباب إلى الزقاق أمامه دون أن يشيح بعينيه عن الغليون الذي في يده، وقد توهجت حجرة التبغ فيه بينما كان ينفث الدخان. تجمدت وسحبت قبعتي على وجهي، والتصقت بالجدار، لكنه ظل مركزًا على الغليون، بينما كان يضعه في فمه قبل أن يبدأ السير في الاتجاه الآخر.

انغلق الباب ببطء بجانبي، لكنني لم أتحرك من مكاني بينما تلاشى الرجل في الضباب تاركًا رائحة التبغ تعبئ المكان خلفه. وبمجرد أن استدار حول المنعطف، وضعت حذاءً واحدًا بين الباب والإطار قبل أن ينغلق.

تدفقت الأصوات من الداخل إلى الزقاق، ونظرت من فتحة الباب لأحاول أن أرى ما في داخله. أخفى جدار طويل الجزء الرئيسي من المستودع، لكن ضوء المصباح تسلل عبر الممر الواسع ملقيًا وهجًا كهرمانيًا كشف عن بعض الأماكن المظلمة.

دلفت إلى الداخل وتركت الباب ينغلق بهدوء قبل أن أتتبع طريقي مُبحرة عبر الظلام من خلال تمرير أطراف أصابعي على طول الجدار. وكان المستودع دافئًا ورائحته مألوفة مثل رائحة خشب البلوط، أو ربما الحطب. انحنى الممر وكان وهج الفانوس يزداد شدة مع كل خطوة أخطوها إلى الداخل. جفلت من الضوء الساطع للصالة الرئيسية وأنا أختلس النظر من خلف الحائط، انفرجت شفتاي في دهشة عندما رأيت ما كان يحدث في الداخل.

رأيت أمامي هيكلًا ضخمًا لسفينة تقف على عوارض خشبية، وبدت مثل هيكل عظمي لحوت عملاق.

تنقلت عيناي في الغرفة بشكل محموم. وكانت المصابيح الزجاجية تتلألأ في كل موقع تقريبًا، وتُلقي وهجها الدافئ على طاولات العمل الواسعة، حيث يعمل الرجال والنساء بجد.. كان العمال محاطين بمجموعة من الأدوات المعدنية وأكوام من الخشب والمسامير الحديدية بمختلف الأحجام. وبرز من بينهم رجل ذو شعر أسود مرتب وقميص أبيض نظيف.

وقف إزرا في نهاية إحدى الطاولات مشمرًا كُميه حتى مرفقيه. وكان يمسك بقطعة معدنية طويلة ومسطحة في يديه يكشط بها قطعة خشبية رفيعة بوتيرة منتظمة.

لقد كان يعمل. لكن هذه لم تكن ورشة عمل تاجر أحجار كريمة أو حداد. وإنما كانت ورشة خاصة بصناعة السفن.

السابع والعشرون

خرجت من خلف الجدار، وأنا أتقدَّم نحوه ببطء، بينما ملأني شعور شديد بالقلق، وتسارعت نبضات قلبي.

انحنى إزرا على الطاولة الطويلة، وكانت يده تنزلق بمهارة على طول السطح الأملس للخشب الجديد. وكانت عيناه مركزتين على عمله بينما زم فمه كما كان يفعل دائمًا وهو في ورشة الأحجار الكريمة. إنه يعمل إذن في ورشة لصنع السفن، بدا أنه متدرب.

وبينما كانت تتصارع تلك الأفكار في ذهني، توقفت يداه على الخشب، ثم رفع نظره تدريجيًّا، وكأنه شعر بوجودي. بدت عينا إزرا الداكنة كحجر التورمالين المصقول والمتلألئ، وانقبض فكه وهو يحدق إليَّ. امتلأت عيناه بنظرات تنم عن الخوف والقلق، كأنه قد ألقي القبض عليه، واكتُشف أمره. لكن ما الذي كان يفعله هنا؟

وقفت هناك بينما وضعت يدي على جانبي، وأغرقته بنظراتي الثابتة. وضع الأداة بعناية على الطاولة، ووقف يفكر. كنت أشعر بتلاطم الأفكار في رأسه، وكان العمل مستمرًّا في المستودع كما كان. فلم يلاحظني أحد، أو يشعر ببحر الصمت البارد الذي امتد بيني وبين إزرا.

ارتفع من خلفه الإطار العظيم للسفينة على تلك العوارض الخشبية، بدت كأنها سفينة شراعية من النوع الذي كانت توفره ساريا من وقت لآخر لتجار نيمسمير. ولكن لماذا يقوم صائغ الفضة الأكثر موهبة في باستيان ببناء السفن؟

عندما عدت بناظريَّ إلى الطاولة كان إزرا بدأ يتجه سيرًا في الممر نحوي بخطوات بطيئة. حبست أنفاسي حتى وصل إليَّ، لكن بمجرد أن فتحت فمي أمسك بذراعي، وقادني إلى الجهة الأخرى من الممر الذي أتيت منه. ولم يترك يدي حتى اختفينا في الظل. تلألأت بشرته، وكان قميصه الداكن يحمل بقعة داكنة من آثار العرق حول منتصف صدره، كما احمرت وجنتاه بشدة.

قلت له لاهثة: «ماذا تفعل هنا؟».

شعرت بالقلق والتوتر وأنا أتفحص عينيه الواسعتين، لم أره هكذا من قبل، لقد بدا مذعورًا تقريبًا.

صحت به مكررة سؤالي مرة أخرى: «ماذا تفعل هنا؟».

تلعثم قائلًا: «أنا»، ثم أخذ يمرر يديه في شعره، ويدفعه إلى الخلف بعيدًا عن وجهه، ثم أضاف «أنا أعمل هنا».

سألته بصوت عالٍ: «لدى صانع سفن؟» لم يبدُ لي ذلك منطقيًا على الإطلاق.

أخيرًا نظر إليَّ إزرا، وتفحص وجهي بدقة، كانت عيناه تتحركان ذهابًا وإيابًا، وهو ينظر إلى عينيَّ كأنه قد تعمَّد ذلك، ثم قال في النهاية: «هيا بنا».

تجاوزني، وهو يتقدم عبر الممر، ولاحظته يختفي عبر الباب قبل أن أتبعه. في الخارج، اختفى الرجل الذي كان يضيء مصابيح الشوارع.

تبعته من كثب، بينما كان يسير في الزقاق نحو الماء المتلألئ المظلم. توهج قميصه الأبيض تحت ضوء القمر، وشكلت أنفاسه ضبابًا انجرف في هواء الليل.

عندما وصل إلى حافة الضفة توقف منتظرًا. وكانت أمواج المياه تتحطم على الصخور في الأسفل مكوِّنة رغوة بيضاء في خط منحنٍ. اقتربت لأقف إلى جانبه، لكن عينيه كانتا

شاخصتين نحو تلك المساحة الفارغة بين البحر البهيم والسماء الغارقة في الظلام.

بدا أكثر هدوءًا الآن، وتبدد القلق الذي كان يعلو ملامح وجهه التي اكتست الآن بصرامة وعزم واضحين، وقال لي: «أنتِ من دخلتِ إلى غرفتي إذن».

لم أجبه، فلم أكن بحاجة إلى ذلك؛ لقد بدأ بالفعل فهم ما حدث، ربما كان قد ربط الخيوط بعضها ببعض في اللحظة التي رآني فيها، لكنني ما زلت لا أفهم شيئًا.

ناديته بصوت ناعم للغاية، فاجأني أنا شخصيًا: «إزرا. ما الذي يجري؟».

أجابني، بينما أبقى نظراته مثبتة على الماء: «أتدرب هنا على صناعة السفن منذ ما يقرب من عام».

كان ذلك بالضبط ما بدا عليه الأمر، وكان هناك سبب واحد فقط هو ما يدفعه إلى فعل ذلك، فسألته بقلق بالغ: «أنت تريد ترك العمل في صناعة الفضة إذن إيذانًا برحيلك، أليس كذلك؟» شعرت بثقل هذه الفكرة يجثم على صدري.

لقد أراد أن يرحل.

أومأ برأسه، وغرق في صمت طويل قبل أن يبدأ التحدث أخيرًا: «عندما حصل هنريك على خاتم التاجر للتجارة في منطقة سيروس، علمت أنها مسألة وقت فقط قبل أن يحصل على خاتم التاجر في باستيان. وعندما يحدث ذلك، لن يكون لديَّ مخرج للهروب منه».

كان إزرا محاصرًا بالفعل من نواحٍ عدة نظرًا إلى احتياج هنريك إليه، ولكن بمجرد أن يعتمد عليه في الإنتاج للنقابة في باستيان، فلن يكون مجرد صانع فضة بعدئذ، بل سيكون سجينه المحاصر. لم يكن الأمر يتعلق إذن بخدمة آرثر أو خيانة هنريك، بل كان يخص إزرا فقط.

أضاف: «كنت أعرف أنه إن أردت أن أرحل، فعليَّ أن أحصل على حرفة».

قلت له: «لديك واحدة بالفعل أنت صائغ فضة».

قال بحزم: «لا! فقد كان اليوم الذي وقفت فيه للمرة الأولى أمام المسبك والفرن هو اليوم الذي انتهت فيه حياتي. أنا لا أريد أن أصنع الفضة مرة أخرى، لأي أحد». توقف عن الكلام قليلًا، ثم تابع: «بناء السفن هو وسيلة جيدة لجني العملات. إنها أحد الأعمال القليلة التي لا تتقاطع غالبًا مع أعمال هنريك».

هذا كل ما كان في الأمر إذن. لم يكن بإمكان إزرا أن يعلم عندما كان طفلًا يمسك بأدوات صنع الفضة في يديه للمرة الأولى، أنه سيتحوَّل إلى موهبة نادرة يتخاطفها هؤلاء الرجال ذوو النفوذ، وأنه سيظل أسيرًا لهنريك إلى الأبد. وبالنسبة له، كانت موهبته لعنة.

سألته بصوت منخفض: «إلى أين ستذهب؟».

أجبني: «إلى أي مكان لا يعرفني فيه أحد».

التفتت لأنظر إلى الماء، وأغلقت عينيَّ. كانت هذه كارثة؛ إذ سينتظرني هنريك في الصباح لأبلغه بما اكتشفته فيما يتعلق بما كان يفعله إزرا في الميناء. لكنني لم أتخيَّل أن الأمر سيكون هكذا».

سألته: «هل يعرف مورو ذلك؟».

أجابني: «لا أحد يعرف».

قلت له: «حسنًا، هنريك يشك في أنك تخفي شيئًا».

ازدرد إزرا ريقه، فربما كان يعرف ذلك أيضًا.

أغمضت عينيَّ مرة أخرى، ثم قلت له: «لقد أخبرته بأنني... أنني أعتقد أنك الشخص الذي ساعد آرثر على الحصول على رعاية».

صاح فجأة قائلًا: «أنتِ فعلت ماذا؟».

مسحت دمعة طائشة على خدي، وقلت له: «أنا آسفة». لم أكن أعرف السبب وراء بكائي، وما بالضبط مصدر الألم داخلي. كنت أعرف فقط أن الأمر برمته يؤلمني بكل تفاصيله.

سألني في دهشة: «لماذا؟ ما الذي جعلك تقولين ذلك؟».

أجبته: «لأنني رأيتك مع آرثر في بيت التجار». ثم أضفت متلعثمة: «وكنت غاضبة منك لأنك كذبت عليَّ».

ضغط إزرا على طرف أنفه بإصبعيه كأن رأسه يؤلمه.

أوضح لي الأمر قائلًا: «لم أقابله لشيء يخص هنريك، بل لشيء يخصني أنا».

تساءلت في دهشة: «أنت؟ كيف؟».

أجابني: «لقد علم آرثر بأمر عملي في صناعة السفن، وكان يهددني بإبلاغ هنريك بذلك، فاضطررت لأن أدفع إليه المال لأسكته».

عضضت على شفتي محاولة منعها من الارتعاش. فإذا لم يكن هو من أمَّن الرعاية لآرثر، فقد كان في انتظاره مشكلة كبيرة، صنعتها أنا له عن غير قصد.

كان لا يزال يبدو مرتبكًا، وهو يسألني: «ومتى كذبت عليكِ؟».

عاودني في تلك اللحظة ذلك الغضب الجامح الذي جاء بي من المدينة إلى الميناء، وقلت له بنبرة ساخرة: «أعرف أمر كوين».

تغضن جبين إزرا وتساءل في دهشة: «ماذا عنه؟».

أجبته بحزم: «سألتك إذا كنت على علم بأمر زواجي به، وأنكرت ذلك».

قال لي: «لكنني لم أكن أعرف عن ذاك الأمر بالفعل».

تفحصته جيدًا، وبدا كأنه يحاول جاهدًا فهم ما أعنيه، وكان يشعر بالحيرة بالفعل. فحاولت توضيح الأمر له قائلة: «لقد أخبرني هنريك بأن زواجي لكوين كان فكرتك أنت. وأنك كنت تحاول التخلص مني».

ابتسم إزرا فجأة لكنها كانت ابتسامة مريرة، وقال: «أنا أصدقكِ تمامًا في أنه فعل ذلك».

فسألته: «وماذا يعني ذلك؟».

صاح وهو يشير بيده نحو السماء المظلمة: «لقد كذب يا برين. إنه كاذب. لم تكن لديَّ أي علاقة بذلك الأمر. لقد عرفت ذلك في الوقت نفسه الذي عرفته أنتِ فيه».

قلت له: «لكنني رأيت الرسالة!».

سألني: «أي رسالة تقصدين؟».

أجبته: «تلك الرسالة التي وردت إليك من سايمون، وذكر فيها أنك تريد ربط العائلتين».

صرخ إزرا قائلًا: «كنت أقصد من خلال الحصول على الرعاية! فبحكم العلاقة التي كانت تربطني بسايمون طلب مني هنريك عرض هذه الفكرة عليه؛ لذلك فعلت، فهذه الرسالة لا علاقة لها بك».

بدأت أدرك الأمر تدريجيًّا، كان يعني إذن بعبارة ربط العائلتين أمورًا متعلقة بالعمل وليس الزواج.

لكنني أضفت مستفسرة: «لكن هنريك قال لي إنك تريد التخلص مني، ولم ترد أن يحضروني إلى هنا، أليس كذلك؟».

أجابني: «نعم، لم أكن أريد إحضارك، وما زلت أرفض وجودك هنا».

حدقت إليه في انتظار تفسير لهذا الكلام.

قال بنبرة هادئة: «أنت لست مثلهم يا برين. ما كان يجب أن تأتي إلى باستيان من الأساس».

قلت له: «لم يكن لديَّ خيار»، لكنني شعرت عندئذ بأن كلماتي تفتقر إلى الصدق.

لم يتحدث إزرا، لكنني رأيت في عينيه ما كان يفكر فيه. كان بإمكاني رفض هذا الأمر بالتأكيد، فعلى الرغم من أن ساريا كانت قد عقدت اتفاقها مع هنريك، لكنني باركته، ووافقت عليه. كنت أتوق للمجيء إلى هنا، وأن أكون جزءًا من عائلة روث. والحقيقة هي أنني لم تكن لديَّ أي فكرة عما كنت على وشك إقحام نفسي فيه.

لقد كذب هنريك عليَّ إذن؛ لا بد أن عرف حقيقة شعوري نحو إزرا. كنت قد كشفت نفسي في العشاء عندما دافعت عنه، وبالطبع خشي خالي أن يكون ولائي لشخص غيره، فسعى إلى تشويه صورة إزرا أمامي. ازدردت ريقي على الرغم من ما شعرت به في حلقي من ألم. لقد أخبرني بالضبط بما أكد شكوكي ليجعلني أفعل ما يريد وقد صدقته.

سألني إزرا ببطء وهو يضع يديه في جيبيه: «هل اعتقدتِ أن زواجك بكوين كان فكرتي؟»

لم أجبه لكنني شعرت بأن تلك العقد المتشابكة داخلي التي جثمت على صدري منذ أيام بدأت تنحل ما جعلني أتنفس بشكل أفضل من ذي قبل.

أضاف: «أنا أفضِّل أن أراك تغادرين باستيان على أن أراكِ معه».

سألته: «تقصد مع كوين؟».

أجابني وهو ينظر في عينيَّ دون أن يشيح نظره عني ولو ثانية: «مع أي شخص. لكن ليس بوسعي التدخل في قرارات من هذا القبيل؛ إذ لا تسمح لي مكانتي في العائلة بذلك».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يعترف فيها بأنه يُكن مشاعر تجاهي. هذا الأمر الذي دائمًا ما آلمني وأرقني التفكير فيه ليلًا ونهارًا. فهمت حينها لما رفض معانقتي عندما كنا في الورشة، فهو كان يخطط للرحيل، إنه عازم على الرحيل بكل تأكيد.

حدقت إلى الماء الأسود الممتد أمامي، وقلت مرة أخرى: «أنا آسفة». لقد كنت حمقاء، ووقعت مباشرة في فخ هنريك، وكان إزرا هو من سيدفع ثمن ذلك.

ظل هادئًا فترة طويلة يشاهد تموج ضوء القمر على صفحة المياه، ثم قال: «هيا بنا نذهب».

طرفت عيناي، وتساءلت: «إلى أين سنذهب؟».

شبك أزرار الجزء العلوي من قميصه، وأعاد شعره إلى الخلف، وقال: «إلى هنريك».

نظرت في وجهه محاولة فهم السبب، وسألته: «لماذا؟».

قال: «لتقولي له الحقيقة».

قلت له: «لا، لن أفعل ذلك».

قال إزرا بنبرة أكثر صرامة: «بل ستفعلين. فقد أصبح لا يثق بي على الإطلاق، ولا توجد وسيلة لإصلاح لذلك؛ لكن يمكنك استخدام هذا لصالحك للحصول على ما تريدين، أخبريه بالحقيقة وسيُكسبك ذلك أهمية كبيرة بالنسبة له. فهذا أمر لا يقدر بثمن لو تعلمين». قال الجزء الأخير بنبرة منخفضة للغاية كأنه يحدث نفسه تقريبًا.

سألته: «وماذا عنك، كيف سيكون مصيرك إذن؟».

انقبض فكه قائلًا: «كنت أعرف عواقب المخاطرة التي أقوم بها يا برين».

بدأ السير بالفعل إلى خارج المرفأ، لكنني ظللت واقفة في مكاني بلا حراك.

قلت له: «لن أخبره».

ضاقت عينا إزرا عندما استدار لينظر إليَّ، وقال لي عندئذ: «سترتكبين بذلك خطأ كبيرًا».

قلت له: «أنا الوحيدة التي تعرف ما كنت تفعله هنا. سأذهب إليه في الصباح، وأخبره بأنك كنت ذاهب إلى مقابلة فتاة في نورث إند، أو شيء من هذا القبيل. سوف يصدق ذلك. وسأحتفظ بسرك حتى تنتهي من تدريبك على صناعة السفن وتغادر» كان مجرد التفكير في الأمر لا يطاق.

قال لي بينما أصبحت نظراته أكثر حدة: «قد يبدو لك الأمر بسيطًا، لكنه ليس كذلك. قد يؤدي بك ذلك إلى معاداته، وأنت لا ترغبين في حدوث ذلك بالطبع يا برين».

قلت له: «إنه عدوي بالفعل»، كان هذا صحيحًا، فقد خسرت كل شيء، لقد استخدمني هنريك بأكثر من طريقة للحصول على ما يريد؛ لذا قررت المشاركة في لعبته لكن ضده هذه المرة.

اصطدم الماء بالصخور في إيقاع ثابت، وأخذ إزرا يحدق إلى الشاطئ صامتًا لحظات طويلة، ثم سألني: «لماذا ستفعلين ذلك من أجلي؟».

أجبته: «لأنني...» هربت الكلمات من لساني، فلم أستطع أن أكمل.

اقترب مني خطوة، ثم عاود سؤالي: «أخبريني لماذا؟».

أجبته: «لأنني أهتم بك» بينما كنت أنظر إلى عينيه، حضرتني العديد من الكلمات التي كنت أنوي إخباره بها، لكنني لم أستطع قول أيٍّ منها، لكنها كانت واضحة وحاضرة في نظراتنا

وكلماتنا حتى في صمتنا. كان سيغادر باستيان حتمًا، فلِمَ أبوح بتلك الكلمات وأعبِّر له عن مكنون قلبي إذن؟

كان كلانا يدرك جيدًا المخاطر التي ينطوي عليها الأمر، ومع ذلك كنا مصممين على إيجاد حل. سنجد حتمًا طريقة ليحصل من خلالها هنريك على خاتم التاجر، وسأستخدم بيت الشاي لخلاصي من الزواج بكوين. ومع ذلك، كنا نعلم أن هنريك على الرغم من فوزه بخاتم التاجر، كان سيخسر الشيء الوحيد الذي منحه القوة وهو صائغ الفضة، وكذلك سأفقده أنا أيضًا.

الثامن والعشرون

استيقظت قبل وقت طويل من ظهور الشمس تدريجيًّا من خلف البحر.

حدقت من النافذة، وأنا أشاهد لون الماء البعيد يتحوَّل من الأسود إلى الرمادي ثم إلى الأزرق. كان بإمكاني بالفعل سماع حركة سيلفي في المطبخ في الطابق السفلي، ولكن كان هناك صوت واحد فقط كنت أنتظر أن أسمعه، ألا وهو باب غرفة مكتب هنريك.

تفحَّصت نفسي في المرآة، وأزحت شعري عن وجهي، وعدلت سلسلة الساعة التي تدلت من جيب سترتي. كنت قد اتفقت أنا وإزرا على خطة مضمونها أن أخبر هنريك قبل إعداد طاولة الفطور بأن إزرا كان يقابل فتاة في نورث إند خلال الأشهر القليلة الماضية.

ووفقًا لما قاله إزرا لم تكن مرافقة الفتيات بالأمر المحظور داخل العائلة، وإنما كان من الأفضل أن تظل طي الكتمان. كان ذلك من شأنه أن يبدد شكوك هنريك، ويدعم لديه اعتقاد أن إزرا كان يكذب. كما سيساعد افتتاح بيت الشاي واقتراب موعد المعرض في تشتيت انتباه هنريك بعيدًا عن إزرا. كنت آمل فقط أن يستمر ذلك وقتًا طويلًا بما يكفي ليتيح له الرحيل عن باستيان دون أن يلحظه أحد.

كانت غرفة إزرا المجاورة لغرفتي ساكنة، لكنه ربما كان مستيقظًا. فقد عاد إلى المنزل بعد منتصف الليل، وتوقف عند باب غرفتي مدة ثلاث ثوانٍ تقريبًا قبل أن يواصل السير إلى غرفته.

نظرت إلى عينيَّ حينما كنت أتفحص انعكاس صورتي في المرآة، وطرفت عيناي ببطء. كان هناك شيء واحد لا أسمح لنفسي بالتفكير فيه أكثر من لحظة، وهو أنني إذا كذبت

على خالي، فإن إزرا سيغادر باستيان وربما إلى الأبد.

صرفت الفكرة عن ذهني، واتجهت نحو الباب. كانت مقابلة إزرا والإعجاب به آخر شيء توقعت أن يحدث لي عندما استجبت لرسالة هنريك، وصعدت على متن السفينة جاسبر متجهة إلى باستيان؛ لكن حبه تجذر داخلي كما تتجذر الأشجار في الأرض الخصبة، لذا لم أرغب في التفكير فيما سيحدث عندما يبتعد عني.

نزلت الدرج حتى وصلت إلى الطابق الأول المضاء بنور الشمس، وسرت مباشرة نحو غرفة مكتب هنريك، وكان بابها مغلقًا. تنفست عدة مرات قبل أن أطرق الباب، وبعد ثوانٍ قليلة فقط، جاء صوت هنريك قائلًا: «ادخل».

تركت الباب ينفتح حتى آخره، رأيت هنريك جالسًا خلف مكتبه ممسكًا بريشة في يده، يبدو أنه يدون شيئًا ما. ولم ينظر لأعلى حتى انتهى من كتابة الأرقام التي كان يعمل عليها، فدخلت بهدوء ووقفت أمامه.

يبدو أنه كان ينسخ بعض الأرقام من أحد تقارير نويل؛ إذ كان من المفترض أن يسلم دفتر الحسابات أثناء وجبة الفطور إلى مورو الذي سيتحقق من صحة ما ورد به من أرقام.
أدركت أخيرًا أنني عرفت كيفية سير أمور العمل والمهام الموكلة لكل شخص في هذا المنزل، حتى إنني ألفت العمليات والإجراءات الروتينية داخله، بل إن حركات وتعبيرات خالي الصغيرة فقدت بعض غموضها بالنسبة لي.

قال بعد أن أغلق دفتر الحسابات: «صباح الخير». كان ينظر إليَّ بعينين مشرقتين، فاسترخيت على الفور، يبدو أنه كان في مزاج جيد، وأردف: «ستنتهي سيلفي من إعداد الفطور في غضون دقيقة. هل أنت بحاجة إلى شيء ما؟».

بذلت جهدًا كبيرًا للحفاظ على نبرة صوتي هادئة ومعتدلة: «لديَّ أخبار جيدة».

قطَّب حاجبيه، وقال: «حقًّا؟».

قلت: «لقد كنت مخطئة. تتبعت إزرا الليلة الماضية إلى نورث إند. واكتشفت أنه يقابل فتاة هناك تعمل في محل للخياطة». وعلى الرغم من محاولاتي السيطرة على الأمر، وجدت نفسي أتحدث بسرعة كبيرة، وأبتسم كثيرًا.

لم تتغير التعبيرات على وجه هنريك، بينما كان يحلل المعلومات في ذهنه. دق قلبي بصوت عالٍ لدرجة أنني كنت متأكدة أنه يستطيع سماعه.

وأضفت: «لا أعتقد أن له علاقة بآرثر، فسوف يضره الأمر إذا لم تحصل على خاتم التاجر من النقابة. لقد كانت فكرة غبية».

طوى يديه أمامه بينما كان يفكر في كلامي جيدًا، ثم قال أخيرًا: «هذا مريح».

ابتسمت ابتسامة صغيرة، وقلت: «نعم، إنه كذلك. أعترف بأنني كنت غاضبة عندما أخبرتني بأنه لا يريدني هنا، وربما تركت هذا الغضب يتغلَّب عليَّ».

تنهد هنريك: «أنا متأكد أن بإمكانك فهم ما يعنيه إزرا بالنسبة لي. لقد ربيته، وتعاملت معه على أنه ابني، واعتبرته من دمي». ألقى نظرة خاطفة إلى أعلى، ثم تابع: «أنا متأكد أن والدي لم يكن ليوافق على ذلك. بالطبع كان سيحب إزرا إلى حد كبير، لكنه لم يكن ليقتنع قط بأن شخصًا غريبًا يمكنه أن يكون واحدًا منا، لكنني بنيت سمعتي في هذه المدينة بمساعدة إزرا، ولولاه لما امتلكت هذا الخاتم» رفع أصابعه وهو يحدق إلى جوهرة عين النمر التي تتوسط الخاتم الذي يرتديه في يده اليمنى، ثم اعترف أخيرًا: «ودونه، أعلم أنني لن أحصل على الخاتم الآخر أبدًا».

لقد أدركت ذلك جيدًا، فقد كان اهتمام هنريك بإزرا مدفوعًا في المقام الأول بالعمل، وليس بالارتباط العاطفي العميق. كانت له نظرة صحيحة في قدرات إزرا البارعة، وغامر بناءً على ذلك الحدس، وربح في النهاية. فقد بنى مملكته على كتفي إزرا. وعلى الرغم من مهارة

خالي الفائقة في تشكيل الزجاج وجعله يشبه الأحجار الكريمة الأصلية إلى حد التطابق، فإن موهبة إزرا في صياغة الفضة كانت تفوقه بمراحل.

نهض من مكانه قائلًا: «أعتقد أنكِ بدأت تفهمين القواعد السائدة في هذا المنزل، وكذلك معنى أن تكوني جزءًا من هذه العائلة يا برين».

قلت: «نعم، لقد بدأت أفهم بالطبع». عنيت ما قلته جيدًا، فقد توصلت أخيرًا إلى استنتاج مفاده أن القواعد الوحيدة هي تلك التي أضعها بنفسي. وكان عليّ أن أختار جانبًا، واخترت جانب إزرا. حتى لو كان ذلك يعني أنني سأتدبر أمري بمفردي بين عائلة روث.

وعلى الرغم من كل شيء، ملأني كلام هنريك بالفخر، فمنذ أن دخلت باب هذا البيت سعيت لنيل رضاه. فهو الشيء الذي دائمًا ما تعلّمت الفوز به. وها قد نلته ومنحني حصتي الخاصة في أعمال العائلة، وهيأ لي مساري الخاص. وعلى الرغم من عيوبه وقيامه ببعض أعمال الاحتيال، لم يسعني إلا الشعور بالامتنان لهذه الفرصة التي منحها لي.

ثم أضاف بنبرة أكثر صرامة: «لهذا السبب أنا مندهش من أنك تعتقدين أنني سأترك مثل هذا الأمر في يد فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا مغرمة بصائغ الفضة الذي يعمل لديَّ».

وقعت كلماته عليّ مثل الصاعقة، وشعرت بوخزات قوية في جلدي.

قلت في دهشة بصوت خافت حتى إنني لم أتمكن من سماعه: «ماذا؟».

بيد أن تعبيرات وجهه لم تتغير، بينما كان ينظر إليّ، وبدا كما كان دائمًا هادئًا وواثقًا. ثم قال: «أحب دائمًا أن تكون الأشياء مرتبة، وتأتي في الوقت المناسب». أربكتني نبرة صوته بشدة.

انتقل الثقل الذي شعرت به فوق صدري إلى بطني، فلم أعد أقوى على التنفس، وشعرت بحرقة شديدة في رئتي الفارغتين من أي هواء.

بينما استرسل هنريك قائلًا: «أنا لا ألومك، فلولا أخطاؤنا ما تعلمنا الصواب». ثم دار حول المكتب متجهًا نحو الأبواب المزدوجة المغلقة المؤدية إلى مكتبة صغيرة.

عرفت ما كان ينتظرني وراءها حتى قبل أن يفتحها. أحدثت الأبواب صريرًا، وتدفق ضوء الشمس بقوة إلى الغرفة ما آلم عيني. رأيت إزرا جالسًا على أحد المقاعد الجلدية ذات الذراعين، ووجهه مضطرب بطريقة لم أرها من قبل. توردت وجنتاه، وانقبض فكه وهو ينظر إليّ. وكان مورو يقف خلفه صامتًا، وعيناه مثبتتان على الأرض.

كان هنريك يعرف الحقيقة إذن.

قال بينما كان يقف على عتبة باب المكتبة، وذراعاه متشابكتان فوق صدره: «يبدو أن صائغ الفضة الخاص بي يعتقد أنه يستطيع أن يتدرب مهنيًّا ليكون صانع سفن دون أن أعرف، كان ذلك خطأه الأول، أما الثاني فهو اعتقاده أنه سيفلت من العقاب. لكنني أرى أن هذا المخطط الصغير استمر فترة طويلة بما فيه الكفاية، وآن أوان كشفه».

كانت أنفاسي تتسارع بشكل كبير لدرجة أشعرتني بالدوار الشديد. استشعرت الخطر القادم الذي يحيق بنا، وقد بدا أشبه بالزيت المنسكب من المصباح الذي من المحتمل أن يشتعل في غضون لحظات تاركًا نيرانه تلتهمنا.

تابع هنريك: «أما الآن، فأعتقد أنه قد حان وقت إصلاح ذلك الأمر، وهذه العملية ببساطة ما هي إلا تذكِرة لك بدورك المحدد ومكانك هنا».

المرعب حقًّا أنني استوعبت كل كلمة قالها هنريك وصدقتها، فقد كان يعني ما يقوله؛ إذ كان ذلك انعكاسًا واضحًا لشخصيته الحقيقية.

نظر إلى مورو قائلًا: «اترك يديه، لا يزال بحاجة إليهما في العمل».

وقفت مشدوهة وأنا أتنقل بنظراتي بين مورو وإزرا. بدا التوتر على وجه مورو بينما انتفخت فتحتا أنفه، لكنه أومأ لهنريك مطيعًا أوامره. كان هو من سينفذ العقوبة، أعتقد أنها كانت تذكِرة له أيضًا.

سار هنريك ببطء، وتوقف أمامي، فسالت دمعة حارة على وجنتي الساخنة، بينما كنت أنظر إليه، وتوسلت إليه قائلة: «أرجوك لا تفعل به هذا، لقد كان الكذب فكرتي».

نظر إليَّ نظرة لا تخلو من الشفقة، وقال وهو يضع يده فوق كتفي: «ليس هو وحده من سيدفع ثمن خطئه يا برين».

طرفت عيناي وسقطت دمعتان أخريان من ذقني.

وعندئذ أضاف: «لن تتحركي من هنا حتى ينتهي مورو، فعقابك هو المشاهدة».

أحكم قبضته على كتفي بقوة قبل أن ينزلها، ثم غادر غرفة المكتب دون أن يضيف أي كلمة أخرى. أُغلق الباب بهدوء خلفه، وعندما نظرت إلى الجانب الآخر من الغرفة، رأيت إزرا وقد نهض من مقعده. ثم فك أزرار قميصه وخلعه وألقاه على المقعد. شاهدته بذعر وهو يقف في مواجهة مورو مُهيئًا نفسه لنيل العقاب، بينما شمر مورو كمي قميصه.

بدأ الغضب في الاشتعال على وجه مورو المكظوم، لم أكن واثقة إن كان غضبه موجهًا نحو هنريك، أم نحوي، أم إزرا، كان لديه الحق في أن يغضب منا جميعًا. ففي كل الأحوال تورَّط في هذه الفوضى على الرغم منا، سواء كنا نقصد ذلك أم لا.

أطلقت تنهيدة وأنا أمسح الدموع من وجهي.

قال إزرا دون أن ينظر إليَّ: «أغمضي عينيك».

أغمضتهما بشدة، وأنا أتنفس بصعوبة، بينما احتد وقع الصمت المروع في الغرفة. كان الترقب يثقل كاهلي، وشعرت بالألم يقطع أمعائي. عندما تبدد الصمت السائد من خلال

صوت أول لكمة، احتضنت نفسي بقوة مطوقة صدري بذراعيَّ، وأدخلت أصابعي في كمي قميصي. ضغطت على جسدي بقوة أكبر حتى وصلت إلى حالة من الخدر.

كان صوت اللكمات المتتالية التي يكيلها له مورو تخترق سمعي واحدة تلو أخرى. وكان وقع همهمات الألم التي يصدرها إزرا أشبه بضربات السياط على جسدي.

غمرني في تلك اللحظة شعور بالوهن، وأصبحت نقاط ضعفي واضحة أمامي على مرأى العين، ولم يكن هناك أي شيء يمكنه توفير الحماية لي من هذا الجرح العميق الذي سبَّبه لي هذا الإدراك.

التاسع والعشرون

ثمة ذكرى وحيدة من ذكرياتي في باستيان هي التي ما زالت عالقة في ذهني، تزورني أحيانًا في اللحظات الأخيرة من أحلامي، وأحيانًا أخرى عندما أغوص في بحر أفكاري وأنا أحدق من النافذة.

حيث أتذكر نفسي وأنا صغيرة أقف على الدرج حافية القدمين، تتسلل برودة الأرض إلى قدميَّ. وأشاهد في تلك الأثناء الظلال وهي تتراقص على الأرض الخشبية، بينما تخفت الأصوات في غرفة الطعام تدريجيًّا. ثم كما يلبث أن يلفت انتباهي وميض بريق ذهبي أمام نار المدفأة، حيث يُخرج والدي ساعته المصقولة من جيب سترته ويفتحها، ثم يتردد صوت نقرة رقيقة وهو يغلقها مرة أخرى، وهنا يتوقف حبل الذكريات، إذ لا يسعه الامتداد لما هو أبعد من ذلك.

دائمًا ما سألت نفسي مئات المرات ما إذا كانت هذه ذكرى حقيقية بالفعل، أم أنها نتاج قصص ساريا المنسوجة بشكل معقد في تفاصيل الصور الصغيرة التي تزين جدران غرفة مكتبها. وقد امتزجت هذه التفاصيل معًا مكونة صورة مركبة حُفرت في ذهني. وعلى الرغم من أن هذه الذكرى لا تبدو حقيقية، ظلت دائمًا قيدًا يربطني بعائلة روث باعتباري واحدة من أفرادها.

أما البيت الواقع في لوير فالي فقد حُفر في ذاكرتي باعتباره البيت الذي يشع دفئًا وأمانًا، على الرغم من كونه البيت الذي فقد فيه والداي حياتهما بشكل مأساوي. وانتابني شعور بالخوف من أن أفقد حياتي أيضًا فيه.

غصت تحت الغطاء بينما كنت أرقد في سريري، وضممت ركبتيَّ إلى صدري. بدا هذا اليوم كأنه سيمتد إلى الأبد، وأن ليله لن يأتي أبدًا، واستغرقت الشمس ساعات طويلة حتى بدأت الاختفاء، وأُعدت الوجبات وتناولها الجميع في غرفة الطعام دون أن أكون بينهم هناك؛ إذ لم يطرق أحد بابي.

في الواقع لم أكن حاضرة بذهني كليًا في تلك اللحظة؛ إذ عدت بذاكرتي إلى تلك الليلة التي جاء فيها إزرا ليعلمني كيف أفتح قفلًا، تذكرت عينيه المركزتين على ما كان يفعله، وضوء الشمعة المتراقص فوق بشرته الناعمة، وبريق الندبات الفضية على يديه. لقد كنت غاضبة في تلك الليلة، لكنها كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بأن أحدًا يراني على حقيقتي، لا تلك الفتاة التي كنت أعرف جيدًا كيف أصطنع سلوكها وحركاتها. وكانت أيضًا المرة الأولى التي لانت الجدران التي بناها إزرا حول نفسه، وبدت أسهل في اختراقها للوصول إليه.

لقد كان يعرف حينها أنه سيغادر باستيان؛ فقد كانت خطته في طور التنفيذ حتى قبل أن أنضم إلى عائلة روث بوقت طويل. وعلى الرغم من أن مجرد تخيله يرحل يُشعل النيران في قلبي، فإن تلك المشاعر الخانقة لا تقارن باليأس الذي ضاق به صدري حين علمت أنه سيضطر إلى البقاء في ظل تلك الظروف. فهو شخص ذو قيمة كبيرة؛ جوهرة هنريك الغالية، ولم يكن ليتركه يرحل مطلقًا، بل أدركت حينها أنه لم يكن ليترك أيًّا منا يرحل.

عندما انساب ضوء القمر أخيرًا عبر نافذتي دفعت الغطاء بعيدًا، وقمت ببطء، ثم أشعلت الشمعة التي كانت بجوار سريري. تمنيت لو أنني لم آتِ إلى باستيان قط، لو أنني رفضت أن أصعد على متن السفينة جاسبر، وجازفت بمواجهة غضب خالي. تساءلت عن رد فعل ساريا لو أنني طلبت منها أن أظل معها، وأن تشاركني أعمالها، وتزوجني بشاب جيد من تلك العائلات التي تعمل في التجارة.

بدت الأشياء التي ارتعبت منها سابقًا ملاذي الآمن حاليًا. فقد كان انضمامي لعائلة روث مميتًا، أشبه بالسم يسري في عروقي، فقد قادني إلى الذبول في ريعان شبابي؛ لكن ساريا

قد أرسلتني إلى هنا دون أن تذرف دمعة واحدة، ولم تعطني شيئًا سوى تلك الرسالة المزعجة.

قطبت حاجبيَّ في دهشة عندما تذكرت ما وضعته في الدرج عندما وصلت إلى لوير فالي، فقد نسيت الرسالة تقريبًا بعد عدة أيام لازمني فيها الخوف من فتحها وقراءة ما بها. وجدت قدماي طريقهما إلى الدرج الذي أصدر صريرًا وأنا أفتحه. كانت الرسالة التي أعطتني إياها ساريا مختبئة داخله بين كومة من الأوراق الفارغة.

أمسكتها، ثم جلست على الأرض بجوار سريري، وفضضت ختم الشمع عنها. فتحت الورقة فتغلغلت في أنفي رائحة الحبر القوي الخاص بساريا ما جعلني أشعر بالحنين إلى بيتها، واغرورقت عيناي بالدموع مرة أخرى.

كتبت الرسالة بخط متمهل واثق مثلها تمامًا، لكن الرسالة لم تكن كما توقعتها، حيث اعتقدت أنها مجموعة من الفقرات المليئة بكلمات الوداع وما يعقبه من اشتياق، لكنها كانت عبارة عن سطرين تقريبًا.

برين،

لم يكن اليوم الذي ولدت فيه فردًا من عائلة روث هو اليوم الذي تشكل فيه مصيرك، وإنما هو ذاك اليوم الذي تنزلين فيه من على متن السفينة إلى رصيف باستيان.

مع حبي،

ساريا.

زادت مشاعر الاضطراب والتوتر داخلي حتى بلغت أوجها بينما كنت أقرأ كلماتها، ثم أحكمت قبضتي على الورقة حتى تجعدت أطرافها. لقد استطاعت ساريا أن تجد مخرجًا من هذا المنزل؛ لكن ذلك لم يتحقق إلا من خلال المساعدة الكريمة التي قدمها إليها أخوها

فيليكس. لم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل عن الثمن الذي دفعته مقابل الحصول على حريتها، فقد حصلت على ما لا يستطيع بقيتنا الحصول عليه، على الأقل في ظل سيطرة هنريك على هذه العائلة.

تطلعت عاليًا نحو النافذة المغلقة، تلك التي هرب منها ابن ساريا، ورحل بعيدًا، ولم يعاود أدراجه قط. تساءلت عن السبب الذي جعله يرحل فجأة. ترى، ما الذي رآه؟ وما الذي فعله؟

دارت عيناي في كامل الغرفة قبل أن تستقر عند الباب المغلق، وقفت على قدميَّ، ومسحت الدموع عن وجهي قبل أن أفتح الباب. كان الممر مظلمًا باستثناء النور الآتي من غرفة مورو.

كان لا يزال مرتديًا ملابسه ومنكبًا على دفاتر الحسابات التي طلب منه هنريك تفحُّصها، ولم يعطِ أي إشارة تدل على أنه قد سمعني وأنا أقف لأشاهده. بدا أصغر سنًّا وأكثر لينًا وهو يجلس على مكتبه، ووجهه مضاء بفعل الشمعة المشتعلة في المصباح أمامه.

عندما شعر بوجودي توقفت يده التي تحمل ريشة الكتابة في الهواء، ونظر إليَّ، فارتجفت حين رأيت يديه. وكانت مفاصل يديه الاثنتين متورمة وحمراء، وكان الجلد الذي يغطيهما متشققًا وعليه علامات تدل على أن أحدهم قد ضمده، وعلى الأرجح سيلفي. لم يكلف مورو عناء لف يديه بأي قماش، ربما لكيلا ينسى ما فعله، لكن وقع التعذيب بدا ثقيلًا على وجهه، وبدا أنه لم ينم منذ أيام.

قال وهو يبلع ريقه: «كان سيفعل الشيء نفسه معي إذا ما طُلب منه ذلك».

لقد كانت فكرة مروعة للغاية ولم أتحمل مجرد التفكير فيها. هذا إذن هو العرف السائد في هذه العائلة. فقد نفذ مورو أوامر هنريك دون تردد للسبب نفسه الذي جعل إزرا يضرب ترو لخطئه في الحسابات، وشككت في أنه السبب نفسه الذي جعل إزرا يقف دون حراك ويشاهد آرثر يضربني في ذلك الزقاق. كان هناك دائمًا نوع من المقايضة.

لو أن مورو قد رفض أن يفعل ما أمره به هنريك، كان كازيمير أو نويل سيمتثلان له. ولم يكن ذلك بسبب ازدراء الجميع لإزرا هنا. فقد كان أسوأ سيناريو يمكن أن يحدث هو أن ينفذ هنريك الأمر بنفسه، وكان مورو يعرف ذلك.

همست بأسى: «أنا آسفة لإقحامك في هذا الأمر».

تنهد مورو تنهيدة عميقة ثم قال: «كلا، فأنت لم تفعلي ذلك»، ثم نظر نحو دفاتر الحسابات متابعًا «لقد كنت أعرف».

سألته بدهشة: «ما الذي كنت تعرفه؟».

تلاعب بالريشة بين أصابعه قبل أن يضعها على المكتب، ثم أجابني: «لقد كنت أتتبع فترة من الوقت إزرا في الميناء حتى اكتشفت أمره. كنت أعرف أن شيئًا ما يحدث، وشعرت بالقلق عليه».

فسألته في لهفة: «ألم تقل أي شيء؟ ألم تسأله عن الأمر؟».

هز مورو كتفيه، ثم قال: «قلت إنه سيخبرني إذا أراد ذلك».

كانت تلك هي الطريقة التي تجري بها الأمور هنا، لا أحد يسأل عن شيء لا يخصه. وقد أبقى مورو فمه مغلقًا من أجل إزرا؛ لأنه كان يعرف ما سيحدث بالضبط إذا اكتشف هنريك أمره، لكنني أدركت من خلال ما عشته هنا أن هنريك يكتشف الأسرار المخفية دائمًا.

همس قائلًا: «سيغيب هنريك حتى الصباح، فهو يحاول أن يصل إلى حل فيما يتعلق بموضوع رعاية آرثر». ثم نظر خلفي نحو باب إزرا المغلق قبل أن يعاود النظر مرة أخرى في دفاتر الحسابات أمامه.

حملت كلماته بين طياتها بعض النصائح غير المعلنة، وهو ما اعتاد فعله معي. خمنت أنه عرف حقيقة مشاعري تجاه إزرا. ربما لا يتحدث مورو كثيرًا، لكنه يتمتع بقوة الملاحظة،

فقد كان يراقب الوضع دائمًا. وربما قد عرف مشاعري قبل أن أتأكد منها.

عاد إلى العمل في صمت، فازدردت ريقي بصعوبة. لقد كان مورو سجينًا مثلنا جميعًا، لكنه أراد أن يموت وهو يحمل اسم عائلة روث، لم يكن لديَّ شك في ذلك. وعلى الرغم من تجاهله بعض الأمور، فإن ولاءه سيظل دائمًا إلى هنا، إلى هذا المنزل وهذه العائلة.

مشيت ببطء وتجاوزت غرفتي متجهة إلى غرفة إزرا، حامت يدي حول مقبض الباب في تردد فتنهدت تنهيدة عميقة، ثم أدرته، ودفعت الباب لينفتح. كانت الغرفة الصغيرة مظلمة، لكنني استطعت تبين شكل جسده الملفوف بالغطاء بينما جلس في مواجهة النافذة. وعلى الرغم من سلوكه الصارم دائمًا، بدا إزرا بين جنبات هذه الغرفة جسدًا هشًّا محطمًا.

لم يتحرك عندما دلفت إلى الداخل، وأغلقت الباب خلفي. كان قميصه الملطخ بالدم مطويًّا بعناية فوق المقعد في الزاوية، كما امتلأ حوض غسيل اليدين بالماء الممزوج بالدم. استطعت على الرغم من الظلام رؤية الكدمات التي غطت الجلد العاري لذراعيه وظهره.

صدر عن الألواح الأرضية صرير، بينما كنت أسير في الغرفة متوجهة نحوه، سحبت الغطاء من فوقه، لكنه لم يتحرك أيضًا. ثم جلست إلى جواره، لكنه لم يقل أي شيء أو يتحرك بعيدًا عني، ولم ألحظ تصلب جسده من أثر لمستي.

ظل ساكنًا فترة طويلة ثم مد يده ممسكًا بيدي، وشبك أصابعه بأصابعي، ثم وضع راحة يدي على صدره، حيث استشعرت نبضاته القوية.

كان هذا هو إزرا الحقيقي الذي يختفي تحت قناع القسوة الذي يظهره، وقد لمحت ظل تلك النسخة اللطيفة منه المفعمة بالعواطف عندما قابلته، ونظر إليَّ للمرة الأولى، وها قد ارتبطت أقدارنا معًا دون أن نعلم إلى أين تقودنا.

في الأيام التي سبقت العشاء في منزل سايمون كنت أشعر بانجذاب شديد نحوه بالضبط، كما تنجذب الفراشات نحو اللهب. وعندما أخبرني هنريك بأن إزرا يريد عقد صفقة مقايضة

أمثل أنا أحد أطرافها، لم تكن الصفقة وحدها هي التي حطمتني، وإنما فكرة تخليه عني؛ فقد أردت أن أستمر في اعتقادي عدم قدرته على الابتعاد عني، وأنه أرادني لنفسه كما أردته لنفسي.

ربت كتفه وتحسست مواضع الكدمات على ظهره. فتنهد تنهيدة عميقة، وأغلقت عينيَّ، بينما تساقطت الدموع برفق منهما حول أنفي ثم اختفت في شعري.

همست بصوت مبحوح: «أنا آسفة».

لم يقل شيئًا، ومرت الدقائق حتى هدأت دقات قلبه تحت راحة يدي. بدأت أنفاسه تهدأ وتصبح طبيعية، وشعرت بعضلاته ترتخي بعض الشيء. وظللت أتابع أنفاسه حتى شعرت بقبضته ترتخي، بدا أنه قد استغرق في نوم عميق.

أطلقت نفسًا عميقًا، وأغمضت عينيَّ، وظللت بجواره. فحتى لو كنا عالقين في مشكلة ما، فعلى الأقل نحن معًا.

الثلاثون

كان العشاء في تلك الليلة يشبه الليالي الأخرى، وكانت تلك هي المشكلة.

وصل الجميع قبل أن يدق جرس المرفأ كالمعتاد. وقفنا خلف مقاعدنا، والنار تتأجج في المدفأة، بينما كانت سيلفي تحضر أطباق الطعام وأباريق الشراب، وتضع كل شيء في مكانه المعتاد على الطاولة. وتشابهت حتى المحادثات التي أجريناها أثناء انتظارنا مع ما كان يجري من قبل، بل أعاد نويل سرد محادثة أجراها مع أحد التجار أثناء حديثه مع كازيمير، كما تبادل مورو وترو المزاح بصوت هامس، بينما أغرت أنثيليا جيمسون بقطعة من قطف عنب ليخرج من تحت الطاولة.

عندما استيقظت ذلك الصباح، وجدت إزرا قد رحل بالفعل، وكان مكانه على السرير باردًا. نزلت لأفطر فوجدته قد بدأ العمل، ولم يغادر الورشة منذ الفجر.

استمعت طوال اليوم إلى ضجيج مطرقته ساعة تلو أخرى. كان الصوت بمنزلة تذكرة وعبرة للجميع، لقد أعيد إزرا إلى مكانه، وقُص جناحاه.

وقف هنريك عند رأس المائدة، وجلس الجميع في مقاعدهم بهدوء. شاهدته بحذر يفتح منديله، وقد لاحظت أنه يستخدمه بالطريقة الصحيحة، يبدو أنه ماهر في تعلم كل ما هو جديد عليه.

حضر إزرا أيضًا، وكان يرتدي ملابس نظيفة أخفت معظم الجروح والكدمات التي غطت جلده، لكن الكدمات على وجهه كانت لا تزال ظاهرة. ظلت يداه المليئتان بالندوب سليمتين كما طلب هنريك. فعلى الرغم من كل شيء، كان ما زال بحاجة إلى سلامة يديه ليصنع بهما

أجمل القطع التي ستضاف إلى المجموعة التي ستعرض على النقابة. كان الدليل الوحيد الذي استطعت تمييزه على ما حدث، هو الطريقة التي انكمش بها إزرا وهو يتكئ على الحائط، كما لو أن مجرد لمس أي جزء من جسده يؤلمه. لكن مظهره الخارجي ظل كما هو، هادئًا ومنطويًا كما كان دائمًا.

حتى مورو بدا كأنه قد عاد إلى حالته الطبيعية، على الرغم من أن يديه كانتا مزخرفتين بمفاصل حمراء زاهية. وكان يتناول الطعام الذي أعدته سيلفي بنهم، ويأخذ قضمات كبيرة جدًا بالنسبة لفمه. وعلى النقيض من ذلك، ظل طبقي على حاله، إذ لم أتناول منه شيئًا.

صُبَّ الشراب في كئوس كل الموجودين، وأخذوا يناقشون التقارير بداية من كازيمير. ظل نظري مثبتًا على إحدى الشمعات المشتعلة في منتصف الطاولة، ولم تطرف عيناي بينما استمرت المحادثات عن التجار، والمخبرين، وصفحات من دفاتر الحسابات. كما كانت هناك أخبار جديدة عن عقد سايمون مع سفينة سيربينت. كان نويل التالي، فأعطى هنريك تقريره عن حمولة البضائع الآتية من منطقة المضايق. وشارك مورو الشائعات التي سمعها في المقهى، ولم يبدِ هنريك اهتمامًا إلا بواحدة منها. وعرض إزرا عدد القطع التي انتهى منها، سواء تلك التي كان مقررًا لها أن تباع للتجار في منطقة سيروس، أو تلك التي كانت ستضاف إلى مجموعة هنريك للمعرض. وبينما كان جميعهم يتحدثون، كان هنريك يدوِّن الملاحظات المهمة الواحدة تلو الأخرى في دفتره، كان يخطط ويكيد، ولا يتوقف عقله عن العمل، كان كذلك دائمًا.

قال هنريك: «وماذا عنك يا برين؟» رفعت عينيَّ عن الشمعة فجأة، ونظرت إليه.

مرت الدقائق، وفرغت جميع الأطباق والكئوس ما عداي. نظرت إلى شوكتي، وأدركت أنني الوحيدة التي لم تتناول لقمة واحدة من طعامها.

أمسكت الشوكة بقوة، وأنا أتطلع إلى تعابير وجه خالي التي تنم عن تعجرفه وسيطرته. فها هو يجلس على عرشه فارضًا سيطرته والجميع يتبعه.

نظر إليَّ إزرا نظرة حذرة، كان ساكنًا للغاية، لكن كان هناك تحذير في عينيه يرجوني أن أحسن التصرف.

كانت ملامح وجهه تعكس كلمات ساريا التي رددتها على مسمعي كثيرًا: عليك التحكم في أعصابك يا برين.

قال نويل الذي كان يجلس إلى جانبي: «أين تقريرك؟» ولكزني بمرفقه بلطف في لفتة سرية وغريبة، فهو أيضًا كان متوترًا من أن أبدي تصرفات حمقاء، أو أتلفظ ببعض العبارات غير المناسبة.

تنحنحت وقلت: «حسنًا» ثم أخرجت دفتري الصغير ذا الغلاف الجلدي من داخل سترتي، ووضعته على الطاولة أمامي. كان صوتي متوترًا عندما بدأت بينما ارتعشت أصابعي وأنا أقلِّب الصفحات. وبدا أن مورو قد لاحظ ذلك، فانحنى إلى الأمام قليلًا ليُخفي نصف جسدي عن مجال رؤية هنريك.

ربما يمكنني الوثوق به، والاعتماد عليه فيما هو قادم.

تابعت قائلة: «من المقرر أن نفتتح بيت الشاي في غضون يومين. لقد طلبت بالفعل الشحنة التالية من الشاي، كما أن أحجار النرد أصبحت جاهزة. لقد أعددنا المكان بطريقة رائعة، كما ساعدنا وجوده على أطراف حي التجار في الترويج له بشكل فعال، فقد انتشر خبر افتتاحه بسرعة كبيرة». بعد أن انتهيت من تقديم تقريري بإتقان، أضفت: «لقد تحدثت مع كوين، وقال إن أخباره تنتشر مثل النار في الهشيم».

أثار ذلك انتباه هنريك، فسألني: «هل تحدثت إلى كوين؟».

أجبته: «أردت أن أدعوه إلى الافتتاح شخصيًّا، ووعدني بأن يأتي، وآمل أن يجذب بحضوره كثيرًا من الشخصيات المهمة».

ابتسم ابتسامة لطيفة، وقال: «يبدو أنكما شريكان متناسبان على الرغم من كل شيء».
حاولت منع نفسي من النظر إلى إزرا، لكنني لم أستطع، كان محدقًا إلى الطاولة وفمه مزموم.

أومأ هنريك برأسه، وقال: «جيد جدًّا. كلما انتشرت الأخبار والأحاديث، أسرع سايمون في تقديم رعايته لنا رسميًّا. لن يقاوم هذا الوغد أن يكون جزءًا من تلك الضجة المثارة، فدائمًا ما كان يحب أن يكون مثار حديث العامة».

شهق كازيمير عاليًا، فلفت انتباه هنريك.

سأله متعجبًا: «ماذا هناك؟».

وضع كازيمير مرفقيه على الطاولة، وهو يفكر مليًّا، قبل أن يقول ما ينوي قوله، ثم تحدث أخيرًا: «لقد دفعنا الكثير من العملات المعدنية للاستثمار في شيء دون أن نضمن مقابله. إذا أردنا أن نحصل على معلومات، فنحن نحصل عليها من المقهى كما عهدنا دائمًا».

أغلقت دفتر الحسابات، بينما وضعت علامة على المكان الذي وقفت فيه، ودافعت عن مشروعي قائلة: «المقهى مليء بعامة التجار وعمال السفن؛ لذا يمكنك الذهاب إلى هناك إذا كنت تريد الحصول على معلومات عن الموانئ أو البضائع المختلفة، فهذا هو المكان المناسب للحصول عليها. أما إذا أردت الحصول على معلومات قيِّمة ومهمة عن علية القوم التي من شأنها أن تمنحك نفوذًا في النقابة، فعليك الذهاب إلى الأماكن التي يقضي فيها هؤلاء الأشخاص أوقاتهم. إن تغيير نشاط أعمال هذه العائلة بعيدًا عن الأحجار الكريمة المزيفة إلى تجارة مشروعة سيتطلب منكم جميعًا الانخراط في عالم كبار التجار. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي من شأنها أن تيسر لكم ذلك». قلت ذلك بينما كنت أنقر بإصبعي على دفتر الحسابات.

وجَّه كازيمير انتباهه إليَّ: «هل تعتقدين حقًّا أنه يمكن تحقيق ذلك؟».

أجبته: «نعم، أنا واثقة بذلك».

كنت بحاجة إلى إنجاح ذلك المشروع إذا أردت الإفلات من زواجي بكوين. وقد رأيت ذلك ينجح؛ فقد تمكنت ساريا من ترسيخ مكانة خاصة لنفسها في نيمسمير من خلال إدارة أعمالها، وقد فعلها سايمون هنا في باستيان. فإذا كان بإمكانهما فعل ذلك، فيمكنني أنا أيضًا.

قال هنريك بثقة: «إذا قالت إنها تستطيع فعل ذلك، فستفعل ذلك». لكن عندما نظرت إليه، رأيت تعبيرات وجهه الباردة واللامبالية. شعرت حينها بمرارة شديدة؛ فقد كنت أدرك تمامًا حقيقة موقفه. هو لم يقل إنه يؤمن بي، بل قصد أنني سأفعل ذلك لأنني مضطرة إلى ذلك. ولأن الفشل في القيام بهذه المهمة تحديدًا ستترتب عليه عواقب وخيمة.

أضاف هنريك: «سنحصل على رعاية سايمون، أنا متأكد من ذلك. ومن ثم ستصوِّت النقابة لنا بكل تأكيد».

سأله نويل: «وماذا إذا صوتت لآرثر بدلًا منك؟».

أجابه هنريك بشكل قاطع: «أنا أتولى هذا الأمر، وأخطط له جيدًا، وأنا متأكد من أنني في النهاية سأحمل خاتم التاجر بين يدي. ومن ثم سيبدأ فصل جديد في حياة عائلتنا. هل الأمر واضح للجميع؟».

تحركت عيناه عبر الطاولة، وأومأ كل منهم برأسه واحدًا تلو الآخر، حتى أنثيليا التي بدت عليها علامات الخوف الشديد.

لقد فهمت الآن سبب محاولاتها الدائمة إبعاد نفسها عن الأمر برمته، ومحاولة اختبائها بشكل دائم خلف طفلها، ورفضها تولي أي دور في أعمال العائلة. كان ذلك المكان الأكثر أمانًا الذي يمكن أن توجد فيه، وتساءلت عما إذا كان نويل هو من أمرها بالجلوس هناك. فربما أبقى زوجته بعيدًا عن متناول أخيه.

تدخل مورو في الحديث، وقال شيئًا ما عن المقهى، وانجرفت المحادثة بعيدًا عني. وكان إزرا يضيف بضع كلمات كل حين، واستطعت أن أرى أنه لم يكن هناك توتر بينه وبين مورو؛ فلم يكن هناك ذاك الغضب المكبوت الذي كان حاضرًا في اليوم السابق. يبدو أن الأمر قد انتهى، وجعلتني تلك الفكرة أشعر بالاشمئزاز.

راقبت مشهد العشاء كله وهو يتكشف أمامي بشيء من الذهول. ففي الفترة القصيرة التي قضيتها في منزل عائلة روث، كان ذلك هو المشهد الأكثر غرابة على الإطلاق. فقد كانوا جميعًا ينقلبون على واحد منهم لخيانته إياهم، ثم يعيدونه مرة أخرى إلى كنفهم بلطف واهتمام. بدا الوضع برمته مشوهًا للغاية، لدرجة أنني لم أتمكن من العثور على كلمات لوصف طبيعته الملتوية.

لقد فعلت بالضبط ما طلبه خالي مني منذ أن أتيت إلى باستيان، مثل أي شخص آخر. فقد رأيت ما يحدث عندما أعصي أوامره. لكن ذلك جعلني أشعر بحيرة شديدة بشأن المغزى الحقيقي لكوني جزءًا من هذه المجموعة الملتفة حول الطاولة؛ فعلى الرغم من أن ذلك يمنحني فرصة للتحرر، فإنه يربطني بطموحات وأهداف الآخرين.

عندما انتهى العشاء، وشق أخوالي طريقهم نحو المطبخ، اخترت البقاء مكاني، أراقب النار بهدوء. وفي غضون يومين فقط كنت سأفتتح أبواب بيت الشاي وأُدخِل عائلتي إلى عالم حي التجار. فإذا نجحت، فسأفوز بحريتي ولو مؤقتًا على الأقل. أما إذا فشلت، فسأجد نفسي متزوجة كوين لإبرام صفقة تجارية بين العائلتين. أما ما كنت متأكدة منه، فهو أن هنريك سيحصل على ما يريد في أي من الحالتين.

عندما نهضت أخيرًا عن الطاولة، توجَّهت نحو الدرج. لم تكن لديَّ أي رغبة في الانضمام إليهم في المطبخ، وتناول الكعك، والمشاركة في جولات لعبة ثري ويدوز. لم أكن أرغب في التظاهر بأنني جزء من مجموعتهم. فقد أوضحت الأحداث التي وقعت خلال الأيام القليلة الماضية شيئًا واحدًا، وهو أنني لا أنتمي إلى هؤلاء الأشخاص. بيد أنني شعرت بخوف عميق من أن أكون قد صرت واحدة منهم بالفعل.

وبينما وضعت قدمي على الدرجة الأولى من السلم، تجمدت أوصالي عندما رأيت هنريك. كان يقف في الظل الذي شكَّله ضوء المطبخ الساطع داخل الردهة، متكئًا على الحائط بجانب باب الورشة المغلق. كان يحدق إليه، ويستمع إلى الصوت الحاد الذي يرن في كل مرة تنزل فيها مطرقة إزرا على السندان.

قال وهو يلقي نظرة خاطفة نحوي: «لقد انصب تركيزه مرة أخرى على عمله هنا، وهذا أمر جيد للغاية».

لم أكن متأكدة مما إذا كانت كلمات هنريك تهدف إلى تبرير ما حدث منه، أم أنه قصد بها طمأنة نفسه. بدا من غير المعقول بالنسبة له أن يشعر بالذنب. ولم يكن لديَّ سبيل لمعرفة ما إذا كانت الكلمات موجَّهة إليَّ أم إليه.

قال وهو يبتعد عن الحائط: «الآن يمكننا العودة إلى العمل. أيًّا كان ذلك الذي حدث في الليلة الماضية، فقد انتهى، هل تفهمين؟».

امتقع وجهي ما جعلني أشعر بقشعريرة باردة تسري في جسدي. إذن، كان يعلم أنني قضيت الليلة في غرفة إزرا. وكان ذلك بمنزلة عقبة كبيرة تقف في سبيل خططه، ولم يكن يريد ذلك بالتأكيد، بل لم يكن ليسمح به.

وتابع حديثه قائلًا: «لقد عقدت معك صفقة، وقطعت على نفسي عهدًا، وأنا لا أخلف عهدي أبدًا. فإذا نجحت في تحقيق ما هو مرجو من افتتاح بيت الشاي، فسنتحدث في أمر زواجك، لكن هذا...» وأشار إلى باب الورشة مستطردًا: «ليس في قائمة الخيارات».

كززت على أسناني غيظًا حتى إنني شعرت بأنها قد تتكسر.

سألني في النهاية: «هل اتفقنا؟».

ظللت هدفًا لنظراته الحادة حتى جاء جيمسون راكضًا في الردهة، فأمسك به، ورفعه في الهواء، وهو يبتسم ابتسامة عريضة. صرخ جيمسون وهو يتلوى بين ذراعي عمه، وشاهدتهما يتوجهان إلى داخل المطبخ حتى تواريا عن ناظريَّ، كان صوت ضحكات مورو يتردد عاليًا في الداخل. أما في الورشة، فلم يكن هناك صوت يعلو فوق صوت قرع المطرقة.

الحادي والثلاثون

بعثت رؤية هذا المشهد السرور في قلبي، كان التحوُّل الذي حدث مذهلًا حقًّا؛ ففي غضون أسبوعين فقط أصبح بيت الشاي الذي كان مردومًا بالغبار سابقًا، جوهرة لامعة تتلألأ في نهاية زقاق مرصوف بالحصى قبالة الطريق الرئيسي لحي التجار. حقق الموقع توازنًا دقيقًا، فقد كان منزويًا بدرجة تكفي توافر الشعور بالخصوصية، ولكنه كان لا يزال ضمن نطاق المجتمع المرموق. لم أكن لأختار موقعًا أكثر مثالية، ولا يسعني إلا أن أفترض أن والدتي وضعت تلك العوامل في اعتبارها عندما اشترته. كما خطرت ببالي فكرة أخرى وهي أنها وساريا - صديقتها المقربة - اشتركتا معًا في بلورة هذه الفكرة، لكنني أحببتها على أية حال.

وقفت خلف المنضدة أتفقد فناجين الشاي مرة أخرى، إذ كان يتميز كل منها بتصميم رائع، مع حواف ذهبية مرسومة يدويًّا بدقة على الخزف العاجي الناعم، ومزينة بباقات رقيقة من الورد، بينما رُسمت في قاعدة كل فنجان وردة زرقاء. كانت مجموعة فريدة من نوعها، على الأغلب قد طُلبت من إحدى المدن الساحلية المتخصصة في صناعة مثل هذه القطع في منطقة البحر المجهول، وقد ظلت مخبأة بعيدًا بعد كل هذه السنوات في بيت شاي منسي، وآن لها أن ترى النور أخيرًا.

وضعت الفنجان بلطف على الطبق، ونظرت إلى الأرض متفقدة المكان، غطت الملاءات البيضاء الناصعة الطاولات المستديرة، بينما تدلت الثريات فوقها متلألئة، فكانت أشبه بمجموعة من النجوم. كان المكان رائعًا، والمشهد ساحرًا حقًّا، كانت ساريا ستُعجب به بالتأكيد، فقد كان ذلك إنجازًا عظيمًا.

تسللت مشاعر ألم طفيفة إلى صدري بينما غمرت ذكراها ذهني؛ فعلى الرغم من عدم إظهارها الحب والرعاية أثناء تربيتي، فإنني وثقت بها كثيرًا. وقد أدركت يومًا بعد يوم كم كان ذلك شيئًا نادرًا حقًّا، فعلى الرغم من وجودي في منزل أجدادي محاطة بأقاربي انتابني شعور جامح بالوحدة وعدم الثقة. ومع ذلك، أدركت دائمًا أن ساريا بأسلوبها الفريد، تقف بجانبي داعمة ومؤيدة.

وقف العديد من المارة في الخارج للنظر من خلال النوافذ، حيث كان اسم بيت الشاي مكتوبًا على الزجاج ومطليًّا باللون الذهبي اللامع: بيت شاي إيدن. لكن في كل مرة كنت ألمح فيها شخصًا واقفًا، كنت أظن لوهلة أنه ربما يكون إزرا.

لم أتحدث معه منذ تلك الليلة التي ذهبت فيها إلى غرفته لأخفف عنه هول ما ألمَّ به. لكنني بعد تحذير هنريك لي بعدم الاقتراب منه إلا في نطاق العمل، حافظت على مسافة بيني وبينه، وهو أيضًا ظل بعيدًا عني. وقد عاد خلال الأيام الماضية إلى عمله مرة أخرى، وكان ينفذ ما يؤمر به. وفي كل مرة كدت أطرق فيها باب غرفته أو أذهب إلى الورشة لإلقاء نظرة عليه، أذكِّر نفسي بما حدث في المكتبة عندما كنت أقف هناك، وأستمع إلى صوت اللكمات التي يكيلها مورو له.

فزعت عندما جلجل جرس الباب، وكدت أُسقط فنجان الشاي من فوق الطبق. جاء مورو فجأة، وتنهدت بخيبة أمل، فقد جاء كل فرد في العائلة من أجل الافتتاح باستثناء إزرا.

قال مورو وهو يلهث ويخلع سترته الرطبة: «كيف حالكم؟» لمعت عيناه بالإثارة عندما انضم إلى هنريك وكازيمير ونويل في المقصورة الموجودة في الزاوية، حيث كانوا يجلسون.

أجاب هنريك: «نحن بخير. تعالِ إلى هنا يا برين».

استجمعت رباطة جأشي بينما كنت أقترب من المنضدة، وألقيت أثناء ذلك نظرة على انعكاس صورتي في المرايا المثبتة في الخلف. كانت البدلة التي أرتديها مصممة بدقة تتميز بدرزات واضحة، وأزرار مصقولة جيدًا. كان قماش التويد ذا لون كهرماني غني، بينما تدرج شعري الداكن على كتفيَّ في سلسلة من الأمواج.

لقد كان شعورًا غريبًا أن أرى نفسي في هذه الحُلة وسط تلك الغرفة الأنيقة المذهبة. فقبل بضعة أسابيع فقط، كنت سأرتدي أفخم أنواع الثياب لأبرع مصممي الأزياء، لكنني سئمت من ارتداء ثوب غير ثوبي الحقيقي، وقررت أن أكون على طبيعتي كما أحب. وسرعان ما سيعرف هنريك ذلك.

حرك الكوب بسلاسة إلى حافة الطاولة، وملأه بينما كنت أسير نحوهم. صحيح أن هذا بيت شاي في الأساس، لكن أخوالي كانوا يشربون زجاجة من مشروبهم المفضل. لم أستطع أن أتخيَّل صورة أكثر ملاءمة لهم من تلك، حيث كانوا يجلسون مرتدين بدلاتهم التي لا تشوبها شائبة، وشعر كل منهم مصفف بشكل مثالي.

رفع هنريك كأسه في الهواء، بينما بدت في عينيه لمحة من الفخر، ولوهلة بدا كأنه متردد في قول ما سيقوله، ثم نطق أخيرًا: «نخب إيدن».

ساد صمت قصير، حيث نظر كل من كازيمير ونويل أحدهما إلى الآخر.

ثم بددت ذلك الصمت ورفعت كأسي إلى أعلى قائلة: «نخب إيدن».

أرجعت رأسي إلى الخلف، وتجرعت المشروب مرة واحدة، وجفلت بشدة؛ فقد أشعل نارًا حارقة في حلقي.

ربت كازيمير على ظهري ضاحكًا، ثم ملأ لنفسه كأسًا أخرى. لم يكن لديهم أي عمل في هذه الليلة، بل كانوا مجرد مشاهدين، وكان الأمر متروكًا لي لتقديم عرض جيد لهم.

صفق هنريك بيديه بينما تناول زجاجة مشروب أخرى من كازيمير، وصاح: «افتحها!».

فتح الخدم الباب عندما بدأ جرس المرفأ يرن إيذانًا ببدء مراسم الافتتاح. وظهر عبر النوافذ المغطاة بالستائر موكب من الأشخاص الذين يرتدون العباءات يحفهم وهج مصابيح الشوارع. ستبدأ بيوت الشاي في الامتلاء في جميع أنحاء المدينة، كنت سأعرف مصيري خلال لحظات. فإذا نجحت، فسأكون أقرب إلى الفوز باستقلالي عن هنريك. وإذا لم أفعل، فسيجد أن أفضل عمل لي هو الزواج بكوين.

عدت إلى المنضدة، ورأيت ثلاث نساء ينتظرن عند المدخل، وعيونهن الواسعة تتفحص بيت الشاي من كثب من تحت أغطية رؤوسهن. هرع رجلان إلى الأمام لأخذ عباءاتهن، وتنهدت بارتياح عندما رأيتها تنسدل عن أكتافهن. برزت أثوابهن الرائعة كما تلألأت المجوهرات الباهظة حول أعناقهن ومعاصمهن، ما كشف لي أنهن لسن مجرد عاملات في المتاجر. وإنما كن حسبما اعتقدت زوجات وأخوات التجار أنفسهم.

جاء الضيوف واحدًا تلو آخر، رجالًا ونساءً من حي التجار، يرتدون ستراتهم وقبعاتهم الأنيقة، بينما تزينت النساء بالثياب الرائعة والمجوهرات اللامعة، ووضعن مساحيق التجميل. امتلأت أعين الجميع بنظرات التعجب والانتظار، مترقبين ما سيحدث. تفحصوا المكان بكل زواياه، وكان لسان حالهم يقول إنه ما كان ينبغي لهم أن يكونوا هنا، وأن ذلك المكان قد لا يليق بهم. لكنه كان لائقًا بما يكفي ليكون مقبولًا. وكان ذلك التوازن الدقيق بين النقيضين هو ما اعتمدت عليه، واستثمرت فيه آمالي.

بعد دقائق فقط من فتح الأبواب، رأيت شابًّا طويلًا بين الحضور، ذا شعر بني فاتح مصفف بشكل أنيق على جانب واحد.

إنه كوين.

كان برفقة مجموعة من الشباب، وارتسمت البسمة على شفتيَّ عندما رأيته. ترك أصدقاءه متوجهًا نحوي. وشعرت بخالي من الخلف يراقبني.

تفحص كوين ملابسي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مرحة، وقال: «يجب أن أعترف بأن لك نمطًا فريدًا خاصًا بك يا برين في كل شيء حتى الملبس».

بادلته الابتسام، صحيح أنني لا أرغب في الزواج منه، لكنه كان يمتلك بعض الصفات التي أحببتها كثيرًا. فقد كان ذا أسلوب متواضع ميَّزه عن غيره من أفراد المجتمع الراقي، كما أنه لم يكن يخشى السخرية من نفسه أو أفعاله؛ ربما لأنه قد نشأ مع أب من ويست إند. ومع ذلك، أظهر أيضًا بعض السذاجة في اعتقاد أن الزواج بفتاة غريبة بعض الشيء لن تكون له أي عواقب سلبية على منصبه في منطقة التجار بمجرد أن يرث منصب والده في النقابة. ومن ثم فإنني كنت أقدِّم لكل منا معروفًا من خلال تجنب إتمام خطة الزواج التي تمناها خالي.

ظلت عيناه مثبتتين عليَّ فترة أطول، ولاحظت أنهما كانتا أكثر لمعانًا من المعتاد. وعندما تنفست بعمق، شممت رائحة الشراب تفوح منه. من الواضح أنه وأصدقاءه قد بدأوا أمسيتهم بالفعل بتناول بعض المشروبات.

قال وهو يتفقد بيت الشاي من حولنا: «أحسنت صنعًا يا برين».

كنت أقف بجانبه أشاهد الضيوف يجلسون على مقاعدهم، فقلت له: «شكرًا لك».

بدأت السيدات خلع قفازاتهن من أيديهن بالفعل، واندفع الخدم حول الطاولات حاملين أواني الشاي. طلت الزهور المرتبة حديثًا من المزهريات الذهبية الموضوعة في منتصف الطاولات، ورأيت امرأة تبدي إعجابها بها، كان هذا نوعًا خاصًّا من الزهور طلبتها خصيصًا من بيت نباتات في نورث إند.

فاجأني بقوله: «هذا سخيف، أليس كذلك؟».

نظرت إليه في دهشة محاولة استيضاح الأمر: «ماذا تقصد؟».

قال: «أقصد ما ترينه الآن. فهؤلاء الأشخاص الأثرياء من هذه المدينة يعتقدون أنه من العار تناول الشاي في مقهى تابع لعائلة روث. إن الأمر كله أشبه باللعبة».

كان الشراب قد لعب برأسه، وجعله يفصح عن مكنون صدره، فقلت له: «حسنًا فليكن، المهم أنني أحقق فوزًا الآن».

أومأ برأسه: «أعتقد أنك تحققين ذلك بالفعل».

فكرت فيما إذا كان هناك معنى أعمق وراء تلك الكلمات، شيء يتجاوز ما أستطيع إدراكه. ربما كان يعلم أنني اعتمدت على بيت الشاي بوصفه وسيلة لتجنب الزواج به. لكنه ظل يتفحص المكان من حولنا، وحافظ على تعبيرات وجه مرحة حتى استقرت عيناه على الباب.

قال متفاجئًا: «يا إلهي!».

انفتح الباب، فهبت رياح محملة بحبات المطر. ودلفت إلى الداخل امرأة ترتدي سترة مخملية، وقبعة من الساتان ذات لون أحمر داكن منسدلة فوق جبهتها. وفجأة اختفت الضجة داخل بيت الشاي، وركز الجميع عيونهم عليها بفضول كبير.

همست وأنا أضيق عينيَّ: «من هذه؟».

أزالت القبعة عن رأسها، ورأيت ابتسامة مرتسمة على شفتيها الحمراوين، كنت أعرف وجهها، لكنني لم أستطع تذكر من تكون.

قال كوين بضحكة ساخرة: «هذه فيوليت بليك».

انتابني شعور شديد بالدهشة. لقد تذكرتها، إنها المرأة التي قابلتها في الزقاق عند بيت الشاي لدى رؤيتي إياه للمرة الأولى، وانصرفت دون أن تكشف لي عن اسمها.

همست وأنا أنظر إلى كوين: «هل أنت من دعوتها؟».

ضحك: «فيوليت بليك لا تطيق النظر إليَّ، كما أنها تكره والدي منذ أن انتزع منها عقد سفينة سيربينت. من الواضح أن لديك أصدقاء في مكانة أعلى مني كثيرًا».

لكنني في الواقع، لم تكن لديَّ علاقات من هذا النوع. فقد كان سايمون وكوين هما الروابط الملموسة الوحيدة التي كانت تربط هنريك بمجتمع التجار الراقي.

وجَّهت فيوليت ابتسامة ودية نحو النساء اللائي كن ينتظرن إتاحة بعض المقاعد الشاغرة لهن بفارغ الصبر، فأفسحن لها الطريق على الفور، لكنها لم تكن متجهة إلى طاولة. بل تفحصت بعينيها المكان بدقة حتى استقرتا عليَّ. فابتسمت ابتسامة عريضة، وشقت طريقها نحو المنضدة التي كنا نجلس عليها.

مدت لي يدها المكسوة بقفاز من الفرو، قائلة: «أنتِ برين». غمرتني عيناها وهما تتفحصان بدلتي بافتتان.

وقفت باعتدال، وترددت وهلة قبل أن أمد يدي لمصافحتها، لكنني فعلت، وأجبتها أخيرًا: «أنا هي. يشرفني استقبالك سيدة بليك».

قالت وهي تميل برأسها قليلًا إلى أحد الجانبين: «الشرف لي. لقد أرسلت لي ساريا رسالة لتبلغني بأنه لا بد أن أحضر افتتاح بيت الشاي الخاص بحفيدتها. ليس هناك الكثير ممن يمكنهم إعطائي الأوامر، ولكن ساريا واحدة منهم». كان صوتها ينضح بروح دعابة دافئة، ذكَّرتني باليوم الذي التقينا فيه للمرة الأولى في الزقاق الذي كان يخلو من المارة.

ساريا، لم أرسل رسالة واحدة إليها، لكنها كانت تتابع أخباري، ربما عن طريق هنريك.

فسألتها في دهشة: «هل تعرفين ساريا؟».

زمت شفتيها الرقيقتين المطليتين باللون الأحمر القرمزي، وقالت: «نعم، أعرفها. فهي من علّمتني ممارسة لعبة ثري ويدوز إن لم تخُني ذاكرتي». واقتربت مني أكثر، ثم همست: «لكن هذا ليس الشيء الوحيد الذي تعلمته منها».

بدت ملامح الدهشة الكبيرة على وجه هنريك، بينما كان يجلس في الخلف. وكان يمسك بكأسه بأطراف أصابعه وهو يراقبنا، واختار البقاء في مكانه، وكان ذلك أمرًا حكيمًا منه؛ فآخر ما كنت أريده هو أن يفسد كل شيء بتصرفات غير لائقة.

قالت فيوليت وهي تسحب القفازات من يديها الصغيرتين: «والآن، أنا لم أحضر هنا لتناول الشاي، وإنما جئت لألعب».

ابتسمت، وأعطيت إيماءة للرجل الذي كان يقف خلف المنضدة، فانطلق إلى الأمام بحقيبة صغيرة مخملية موضوعة على صينية فضية، التقطت الحقيبة، وناولتها فيوليت في يدها.

غمزت لي، وقالت: «شكرًا لك يا عزيزتي، لم يحالفني الحظ في الفترة الأخيرة». حوّلت نظرتها عن قصد نحو كوين، في إشارة إلى عقد السفينة الذي خسرته لصالح سايمون. ثم أضافت: «دعونا نرَ ما إذا كان بإمكاني تغيير ذلك».

تنحيت جانبًا، وأشرت إلى أحد الخدم لإحضار مقعد لفيوليت التي جلست، وكانت تنورتها تنساب من حولها مثل شلال من الريش. صمت الجميع عندما رفع الخادم المزهرية عن الطاولة، ومدت فيوليت يدها إلى الحقيبة الصغيرة الملتفة حول معصمها، وسحبت أربع قطع من النحاس، ثم وضعتها في وسط الطاولة، فحذا الرجل الذي كان بجانبها حذوها، ووضع أمواله أيضًا.

رفعت كلتا يديها لأعلى وأغلقتهما حول قطع النرد، فساد الصمت جميع أرجاء بيت الشاي مرة أخرى. انفتحت أصابعها، وسقطت قطع النرد على ملاءة الطاولة المصنوعة من الكتان،

وأعقبت ذلك موجة من الهتافات المبتهجة عندما أظهرت قطع النرد ثلاث نجمات.

ضحكت فيوليت مبتهجة بفوزها، ثم عاد الصخب يملأ جنبات بيت الشاي، حيث سُمعت خشخشة فناجين الشاي اللطيفة وصلصلة العملات المعدنية. سار الأمر تمامًا كما تخيلته، مليئًا بالقصص التي ستُسرد خلال وجبة الفطور غدًا. وجدت نفسي أبتسم وأنا أتفقد المكان المضاء بالشموع. لقد فعلتها، لقد نجحت في ذلك بالفعل.

قال كوين وهو يتطلع إلى المكان الذي جلس فيه أفراد عائلة روث: «ألم يستطع صائغ الفضة الحضور؟».

جذبني السؤال من أفكاري، وتبدل الفخر الذي شعرت به، ليحل محله ألم ناتج عن تذكر وجه إزرا المليء بالكدمات.

أجبته: «لا». لم أكن متأكدة من مشاعري، فكرت فيما إذا كنت أشعر بالارتياح أو بخيبة الأمل بسبب غيابه، فلم تعجبني فكرة أن يشاهدني إزرا أمارس حيل هنريك وألاعيبه، لكنه كان الوحيد الذي يدعمني حقًّا هنا في باستيان. قلت في محاولة لإضفاء المرح على الأمر: «كما تعلم، إنه يفتقر إلى الحظ في لعبة ثري ويدوز».

ضحك كوين بصوت عالٍ جدًّا، ولم تكن هذه هي ضحكته الودود التي أعرفها، بل ضحكة حادة ومستفزة، ربما تناول قدرًا من الشراب أكبر مما ظننت، ثم قال: «الحظ لا علاقة له بالأمر».

أبعدت عينيَّ عن فيوليت بليك، وتفحصت وجه كوين، وسألته: «ماذا تعني؟».

اتكأ بإحدى ذراعيه على المنضدة بجانبي، وقال: «في بعض الأحيان، ما يبدو أنه مجرد ضربة حظ، يكون في الواقع مجموعة من الظروف المرتبة بعناية».

استدرت نحوه، وقلت: «أخشى أنني لا أفهم ما تعنيه».

اقترب كوين أكثر، بينما بدت نظرات التآمر في عينيه، وقال: «لقد أعطيت النرد إلى هنريك».

حدقت إليه، وما زلت أحاول أن أفهم.

أضاف: «لقد أحببت إزرا بالتأكيد، فلم يكن لديَّ أي أشقاء، وبطريقة ما صار هو شقيقي. لكن موهبته حظيت باهتمام كبير من والدي، وقد أرادني أن أمتلك الموهبة نفسها في صياغة الفضة، لكنني لم أظهر قط بوادر مبشرة في ذلك الأمر. كنت أعرف أن والدي تمنى بشدة لو كان إزرا هو ابنه، أدركت ذلك منذ أن كنت صغيرًا جدًّا».

ضاقت عيناي، وأنا أنظر إليه، وسألته في دهشة: «ماذا تقول؟».

تابع قائلًا: «كان والدي وهنريك قد أفرطا في الشراب في تلك الليلة، لم يكونا صديقين، لكنهما تشاركا بعض الأعمال التجارية، وكانا قد انتهيا من فورهما من مهمة كانا يخططان لها منذ عدة أشهر، وكانا يحتفلان بذلك. وعندما اقترح هنريك أن يلعبا ثري ويدوز وحدد الجائزة التي يريد الحصول عليها حال فوزه، أرسلني والدي لجلب قطع النرد، وذهبت لإحضارها بالفعل».

تنهدت بعمق، وسألته في دهشة: «أعطيته قطع نرد مغشوشة، أليس كذلك؟».

افتر كوين عن ابتسامة بجانب فمه، ولمعت عيناه، فكانتا أشبه بعيني الذئب: «نعم. ورحل إزرا في اليوم التالي. علينا أن نصنع مصيرنا بأنفسنا في بعض الأحيان».

استندت إلى المنضدة بكامل وزني، بينما أخذت أحدق إلى الأرض، وشعرت بثقل كبير في صدري كان على وشك أن يطرحني أرضًا. في تلك اللحظة المحورية وُضِع كل شيء في مكانه الصحيح، وكانت الأجزاء المتناثرة من أفكاري تصطف معًا مثل لغز مكتمل. شعرت بالخواء والضعف. ودارت كلمات ساريا في رأسي مثل دوامة قوية، ما زاد من حدة ما شعرت به من اضطرابات:

لم يكن اليوم الذي ولدت فيه فردًا من عائلة روث هو اليوم الذي تشكل فيه مصيرك، وإنما هو ذاك اليوم الذي تنزلين فيه من على متن السفينة إلى رصيف باستيان.

نظرت إلى ذلك المكان عند الزاوية، حيث جلس هنريك وأخوالي مع مورو. اعتقدت أن مستقبلي كان مخططًا له منذ اللحظة التي ولدت فيها. ودائمًا ما انتظرت وصول خطاب خالي هنريك كل يوم، وعندما جاء استجبت له دون تردد.

انجرفت نظرتي إلى كم سترتي فسحبته إلى أعلى وكشفت عن ذلك النقش المميز لعائلة روث.

لقد كنت واحدة من أفرادها، وخُلقت على صورتهم، وقد حان الوقت لأبدأ التصرف على هذا النحو.

الثاني والثلاثون

غادر أخوالي ومورو بيت الشاي، وذهبوا إلى المقهى، لكنني بقيت جالسة في المقصورة التي كانوا يجلسون فيها، بينما كان الخدم يقومون بأعمال التنظيف في نهاية الليلة. اندمجت في الأجواء الهادئة، حيث كانت الشموع تنطفئ واحدة تلو أخرى. وبعد أن عم الظلام المكان، أنهيت أخيرًا احتساء آخر كأس من الشراب، وانصرفت متجهة إلى المنزل.

تمكَّنت من النجاح على الرغم من كل الصعاب، وأكثر ما أدهشني كان قيامي بهذا العمل بسهولة كبيرة، كأن ذلك أمر طبيعي بالنسبة لي. لم تكن ساريا تعرف ما الذي ينتظرني عندما أرسلتني إلى باستيان، لكنها أعدتني بشكل جيد لذلك خلال فترة إقامتي معها، على الرغم من أنني اعتقدت أنها فعلت ذلك لأغراض خاصة بها. لكنها في الواقع أرسلتني وقد زودتني بكل ما أحتاج إليه، وكانت متأكدة من أنني سأصنع مساري الخاص. وبينما كنت أقف في الشارع ذي الإضاءة الخافتة أنظر إلى النافذة الوحيدة المضاءة في منزل عائلة روث، شعرت بموجة من التصميم، فقد أدركت أن هناك العديد من المسارات التي أرغب في شقها لنفسي.

صعدت الدرج ببطء، وتوقفت عند آخره عندما رأيت باب غرفة إزرا مفتوحًا. انتابتني رغبة خفية في أن يكون قد تركه مفتوحًا عمدًا من أجلي. فما خفي من كلمات في هذا المنزل كان أكثر كثيرًا مما يقال، كما كانت الأسئلة المطروحة تفوق الإجابات بشكل كبير.

تجاوزت غرفتي، وتسللت بحذر إلى تلك المساحة المضيئة. كان إزرا يجلس إلى المكتب، وأمامه زجاجة مفتوحة من مشروبه المفضل، بينما أضيئت الغرفة بفعل وهج شمعة متضائلة. اتكأت على الحائط خارج غرفته، وأخذت أراقبه في صمت بعض الوقت. ألقى الضوء الناعم لونًا كهرمانيًا دافئًا على بشرته الشاحبة، بينما بدا شعره المقصوص حديثًا

داكنًا مثل الحبر تقريبًا. وكانت هناك ثلاث قطع من النرد على طاولة أدوات الزينة مقابل الحائط.

قال دون أن ينظر إلى الأعلى: «سمعت أن الأمور سارت على ما يرام». ابتسمت وتساءلت عما إذا كان هناك أي شيء يحدث في هذا المنزل ولا يعرفه. وقلت له: «ظننت أنك ستأتي». ولم أعد أهتم بما قد يفهمه من ذلك. فقد مر وقت التظاهر منذ فترة طويلة.

قال لي: «طلب مني هنريك أشياء لأفعلها هنا».

ابتسمت له ابتسامة مرحة، وقلت وأنا أعني ما أقول: «اعتقدت أنك ربما كنت تختبئ مني».

تنهد بعمق، ومرر يدًا واحدة خلال شعره، كما يفعل عادة عندما تهرب الكلمات من شفتيه، فلا يدري ما يقول: «ربما قليلًا».

تضاءلت ابتسامتي قليلًا، هكذا إذن كان صريحًا هو أيضًا. دلفت إلى الداخل، وأغلقت الباب خلفي، وشققت طريقي نحو طاولة أدوات الزينة. التقطت إحدى قطع النرد، ووضعتها وسط راحة يدي وتفحصتها جيدًا. بدت كأي قطعة نرد أخرى، وربما كانت كذلك أيضًا في تلك الليلة المشئومة. ربما لم يكن هنريك يعرف عندما ألقاها أنها قد جرى غشها لصالحه.

عندما نظرت لأعلى، لاحظت أن عيني إزرا تنتقل بيني وبين النرد. ربما سأخبره يومًا ما بما قد فعله كوين، لكن ليس الليلة. لا بد أن تكون هناك عواقب للكشف عن مثل هذه الحقيقة، وكان إزرا قد تحمَّل بالفعل ما يكفي من الأعباء.

قام من المقعد وسار إلى النافذة، وأزاح الستارة ليراقب الشارع في الأسفل، ثم قال: «يجب ألا تكوني هنا، هنريك لن يعجبه الأمر».

تتبعت بنظراتي أثر الكدمات على جلده حتى اختفت تحت قميصه، ثم قلت له: «إن هنريك لا يعجبه الكثير من الأشياء».

قال بصرامة أكبر: «أنا جاد. عليك أن تكوني حذرة معه، إنه يراقبك».

قلت له: «أنا أعرف».

اتكأ على الحائط عاقدًا ذراعيه على صدره قائلًا: «لا أعتقد أنك تأخذين حذرك بناء على معرفتك هذه، فما زلت تعتقدين أنك يمكنك الحصول على ما تريدين».

قلت له: «لا، لم أعد أرغب في الحصول على موافقة أحد. فسأفعل ما يحلو لي».

قال لي: «لا تجري الأمور بهذه الطريقة».

جادلته: «هذا ما فعلته أنت، لقد حصلت على تدريب في صناعة السفن دون علم أحد، أنت...»

قاطعني: «وانظري إلى أين أوصلني ذلك، لقد كنت غبيًّا عندما اعتقدت أنني يمكنني الرحيل، وأن هنريك سيسمح لي بذلك».

سألته في لهفة: «هل استسلمت إذن؟».

أجابني: «أنا أعرف أنني خسرت يا برين».

وضعت قطعة النرد على المنضدة إلى جانب الاثنتين الأخريين، وأخذت أحدق إلى ثلاث قطع. لقد تقرر مسار حياتي من خلال صفقة، وهو ما حدث كذلك مع إزرا، لكنني انتهيت من ترك الآخرين يقررون لي مصيري. لم تكن قوة هنريك روث أكثر من مجرد دخان متطاير في الهواء. فلم تكن له قوة حقيقية ملموسة، وإنما استمد قوته من مجموعة من

المعتقدات والأساطير والقصص التي نُسجت عنه، أما الآن فأنا مستعدة لصياغة حكاياتي الخاصة ومشاركتها مع العالم، والتحرر من ظلال حضوره الأسطوري.

قلت له: «لن أتزوج كوين، سأبقى هنا، وأدير بيت الشاي».

حدَّق إلى وجهي: «إذا بقيت هنا، فسيسيطر عليك تمامًا، ولن يكون لك الحق في تقرير أي شيء يخصك».

سألته: «هل تقصد أنني يجب أن أتزوج كوين؟».

أطلق تنهيدة عميقة قائلًا: «أنا لا أعرف ماذا أقول».

تقدمت ووقفت أمامه مباشرة، وكادت أطراف حذائي تلامس حذاءه. رأيت من خلال النافذة النجوم المتلألئة والمتناثرة في السماء القاتمة الممتدة فوق البحر البهيم. وتسلل نسيم بارد عبر النافذة، وغطى الضباب الزجاج على طول زواياه. وكان هناك خارج حدود هذا المنزل عالم واسع ينتظر من يكتشفه. وفي تلك اللحظة، بدت الحياة نفسها كأنها قفص فُتح عن غير قصد. وملأني شعور بالتحرر، وأدركت الفرص اللامحدودة التي تنتظرني بمزيج مبهج من الترقب وعدم اليقين.

أشرت إلى نافذة غرفة نومي وقلت له: «أخبرني ترو بأن أوستر قد هرب عبر تلك النافذة، يمكنك رؤيتها من هنا، ولم يعد قط».

تصلب إزرا عندما ذكرت اسم أوستر، وارتعشت عضلة فكه، وقال: «أنا أعلم، لقد رأيته».

سألته مندهشة: «هل رأيته حقًّا؟».

«أظن أن هذا هو ما جعلني أعتقد أن بإمكاني الهروب من هنا. عاد أوستر العام الماضي، وقد صنع حياة كاملة لنفسه. كأن كل تلك السنوات التي قضاها في هذا المنزل لم تكن،

ولم...»، بلع ريقه بصعوبة، ثم أضاف: «وعندها بدأت أفكر في أنني أستطيع أن أرحل أيضًا».

قلت له: «ما زال بإمكانك فعل ذلك».

عادت نظرات إزرا إلى الشارع المظلم في الأسفل: «ربما كان ذلك ممكنًا من قبل».

سألته: «من قبل ماذا؟».

ابتلع ريقه ثانية، وقال: «قبل أن يكون لديَّ سبب للبقاء».

نظرت إليه، لكنه أبقى نظراته ثابتة على النافذة. شعرت بأن الألم الذي كان يسكن صدري زحف إلى حلقي، وشعرت بوخز الدموع في عينيَّ.

أضاف هنريك: «بحلول الوقت الذي اكتشف فيه هنريك أمر تدربي على صناعة السفن، كنت قد اتخذت قراري بالبقاء».

رددت اسمه برقة ونعومة متناهيتين لم أكن لأجرؤ على نطقه هكذا من قبل: «إزرا». شعرت بأن حديث كوين معي قد منحني دفعة كبيرة من الحماس والشجاعة لكسر كل القيود التي كانت تقف حائلًا بيني وبين أحلامي، وصار العالم فجأة بالنسبة لي أبيض أو أسود، محددًا بالأشياء التي أرغب فيها وتلك التي لا أرغب فيها. أما من جعل هذا العالم أكثر إشراقًا وروعة، فكان هو من يقف أمامي.

قال: «اسمعي يا برين، إن هنريك...»

تقدمت نحوه فجأة، ولم أجعله يكمل كلماته، وارتميت في حضن ذلك العالم الذي اخترته لنفسي دون أن أفكر فيما قد يحدث بعد ذلك. حدق إليَّ في دهشة كبيرة، بينما سمعت صوت أنفاسه وهي تحتدم في صدره فتجعله يعلو ويهبط بقوة غير معهودة.

لكنني كنت قد اتخذت قراري، وعزمت على أن أقرن مصيره بمصيري بأي وسيلة كانت، ومهما كلفني ذلك.

فعلت ما ظننته من قبل مستحيلًا، وها قد صرنا أخيرًا جسدين في جسد يربطنا رباط أبدي مقدس. لم أعد خائفة بعد الآن، فقد كانت تلك المشاعر التي استشرت في أعماقي، وهزت أوتار قلبي عندما كنت في حضوره هي الشيء الوحيد الذي شعرت بأنه حقيقي حقًّا. فكان حبي له يفوق في أهميته خطاب هنريك الذي ظللت أنتظره، واتفاقي مع ساريا الذي أبرمته، بل كان أهم من امتلاكي بيت الشاي، وموضوع زواجي بكوين. كان لي وحدي بمنزلة كيان كامل أنتمي إليه يسكن أعماقي ووجداني.

بدا إزرا مندهشًا من جرأتي، وناداني ليجعلني أفيق من مشاعري التي طغت عليَّ: «برين».

بدا مرعوبًا مما قد يحدث بعد ذلك، وسقط ظلام على وجهه، لكن ذلك أيضًا لم يعد يخيفني بعد الآن. لقد عقدت العزم، وأردت أن تكون الليلة هي ليلة تحديد المصير.

حاول إفاقتي مرة أخرى من نشوة الهوى التي تملكتني، وقال لي: «هل تعرفين عواقب ما تفعلين؟».

لكنني لم أكن أخشى ما هو آتٍ، أردت فقط أن أكون له وحده. اقتربت منه أكثر حتى شعرت بأنفاسه، كانت عيناه تتفرسان في عينيَّ، والأفكار تتسارع داخلهما بسرعة كبيرة، حتى إنني كنت أشعر بما يفكر فيه.

قلت بينما ملأت الدموع عينيَّ مرة أخرى، وأنا أردد كلمات كوين: «أنا أصنع مصيري بنفسي». لكنها لم تكن دموع حزن بل دموع فرح وارتياح، ثم أضفت بنبرة صارمة: «إذا بقينا هنا يا إزرا، فسنبقى معًا».

كان ذلك أملًا ورجاءً ينتظر رده حتى يصير حقيقة. ووقفت أمامه منتظرة رده إن كان يرغب في أن يكمل حياته معي أم يتركني لغيره. أردت أن يتحلَّ بالشجاعة الكافية هذه

المرة ليعبر ذاك الحاجز الخفي بيننا.

وقد اتخذ قراره بالفعل، وكسر ما كان يحول بين قلبينا من قبل، واعترف لي بأنه لن يفرط فيَّ، وسيحارب العالم من أجلي.

ذابت الشمعة أخيرًا تاركة وراءها أثرًا على شكل دوائر من الدخان المتصاعد في الهواء، واستسلمت الغرفة للظلام، بينما تركز ضوء القمر على نصف وجهه ما خلق توهجًا ناعمًا وأثيريًّا.

سألني بصوت متهدج: «هل سبق أن دق أحدهم باب قلبك من قبل؟».

لم يحدث ذلك، على الرغم من أنني خمنت أنه ربما يكون قد أحب إحداهن من قبل. ولم أشعر بالحرج بل بالسعادة. فلن أتزوج على طريقة الجواري لمن يدفع أكثر، بل سأتزوج ممن أحببت واختاره قلبي.

قلت له بصوت يملؤه الخجل: «لم يحدث ذلك من قبل. لكنني أعتقد أنه قد حدث الآن».

احتضنني الظلام، وأطلق العنان لأفكاري التي استرشدت بذاك الحب الذي نبت في قلبي. لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي كنت أختار فيها بصدق. إنني هنا في ذاك المنزل القابع في نهاية أحد الأزقة في لوير فالي أحدد مصيري بنفسي غير مبالية بما قد ينتظرني.

الثالث والثلاثون

استيقظت بينما ساد الغرفة من حولي الصمت العميق، لكنه لم يكن ذاك الصمت مخيفًا، وإنما كان باعثًا على الطمأنينة والأمان. لم أفتح عينيّ، فلم أكن أرغب في رؤية ضوء الشمس، أو معرفة أن جرس المرفأ سيقرع قريبًا. وبدلًا من ذلك أخذت نفسًا بطيئًا وعميقًا، فشعرت بأن رائحة إزرا تتخلل أعماقي، إنه يسكنني حقًّا.

لم أشعر قط بمثل هذا السكون من قبل، كان سكونًا ممتلئًا بأمل في الغد، جعلت هذه الفكرة الدفء يسري داخلي، فابتسمت ابتسامة هادئة. ويمكنني أن أجد طريقة لصناعة مصيري بين عائلة روث كما قالت ساريا. لقد بدأت تلك الرحلة بالفعل، وكان بيت الشاي هو الخطوة الأولى. أما إزرا، فكان هو مرشدي خلال هذا الطريق.

سمعت صوت طرق خافت يأتي من مكان بعيد في المنزل، أعادني إلى أرض الواقع. وبينما تلاشت أفكاري البطيئة تدريجيًا، نظرت أمامي لأجد إزرا واقفًا ينظر إليّ. ويبدو أنه كان يقف مستمعًا لما يدور في خلدي من أفكار. سمعنا صوت خطوات آتٍ من الدرج.

قال إزرا بنبرة تمتلئ بالخوف: «يا إلهي!» نهضت مسرعة، كان يخشى أن يكون هنريك هو القادم. سمعت طرقًا على الباب، ثم انفتح فجأة، كان مورو هو الطارق. وقف مشدوهًا عندما رآنا، وبدت علامات الاندهاش على وجهه الوسيم، ثم نطق أخيرًا قائلًا:

«حضر سايمون مع كوين، وهما الآن في صحبة هنريك، وقد أرسلني لاستدعائكما».

صاح إزرا قائلًا: «اخرج إذن».

أغلق مورو الباب واختفى، وكان صوت حذائه ما زال يطرق الدرج، بينما كنت أصفف شعري بأصابع متسرعة. وكان إزرا ينتظرني أن أنتهي. كانت الملابس التي يرتديها تغطي معظم آثار عقوبة هنريك، وكان ما تبقى منها فقط هو الجرح الموجود على شفته والكدمة على خده.

نظرت إليه وأنا أرتدي حذائي، ورأيت ابتسامة ترتسم على زاوية فمه، فابتسمت أيضًا، وقلت له: «صباح الخير».

ضحك، فتجمدت يداي على الأربطة، لم أعرف إذا كنت قد رأيته يضحك هكذا من قبل. وظهرت لمحة جانبية لأسنانه، بيضاء لامعة، ما جعلني في حالة من الدهشة وأنا أحدق إليه.

نظر إلى ساعة جيبه، وتساءل مندهشًا: «لِمَ تنظرين إليَّ هكذا؟».

أجبته بابتسامة: «لا شيء». تلاشت تلك الابتسامة عندما انتهيت من ربط حذائي. إن تلك الملامح البشوشة التي بدت على وجهه يمكن أن تكون حقيقته الفعلية، ما كان يمكن أن يكونه إذا تمكن من الهروب من هذا المنزل.

أردت أن أصدق أنه يمكننا وضع قوانيننا الخاصة تحت هذا السقف، تلك التي قد تجعل العيش هنا أسهل. أردت أن أصدق أن اعتراف إزرا بحبه لي كان يحمل بصيصًا من الأمل في أننا قد نجتمع معًا بوصفنا زوجين. لكن الحزن ازداد داخلي عندما رأيته يبتسم بهذه الطريقة، فلم أكن أرغب في التساؤل عما إذا كنت سأرى تلك الابتسامة مرة أخرى.

أمسك إزرا بمقبض الباب، وانتظر قليلًا، ثم فتحه، وابتسم لي ابتسامة حانية، وهو يربت على كتفي. ثم انطلق. رأيت في ابتسامته شعاع أمل يرسم لنا حياتنا المستقبلية كما تمنيناها. وكنت عازمة على التمسك بهذا الأمل مهما حدث.

انتظرت دقيقة قبل أن أنزل إلى الطابق السفلي وأتى صوت هنريك قادمًا من المكتبة، وكان بإمكاني سماع صوت سايمون أيضًا، كانا يتحدثان عن شيء له علاقة بأحد التجار في سيروس، وكانت نبرة صوتهما تنم عن السعادة والمرح. أملت أن يعني ذلك أن سايمون كان هنا لينقل لنا الأخبار الجيدة التي كنا ننتظرها.

لكن عندما مررت بغرفة الفطور، رأيت سيلفي تعد الطاولة، وخطر ببالي أن مثل هذه الزيارة المبكرة كانت غريبة. وأثارت هذه الفكرة العابرة تحذيرًا خافتًا في أعماق ذهني، لكنني اخترت تجاهلها.

دخلت فوجدت هنريك وسايمون يجلسان على اثنين من المقاعد الجلدية ذات الذراعين. وكان كوين يقف أمام خزانة الكتب خلف مقعد والده، وابتسم لي ابتسامة دافئة عندما رآني. كانت عيناه أكثر نقاءً مما كانتا عليه في الليلة الماضية.

جعلتني ابتسامته أشعر ببعض النفور الداخلي، بعد علمي ما فعله بإزرا. لم يكن ذلك صادمًا، فقد نشأ محاطًا بسلوكيات وعادات أشخاص من لوير فالي ونورث إند، ونشأ على يد أب يعرف كيف يحصل على ما يريد. لقد وجد كوين طريقة للتخلص من إزرا، وخمنت أنه لم يشعر بأدنى قدر من الأسف حيال ذلك.

أومأ لي سايمون إيماءة بسيطة تحية لي، وقال: «آه، ها هي ذا». وبادلته التحية بالطريقة ذاتها.

ثم قلت: «صباح الخير، أنا آسفة للتأخر عليكم».

كان إزرا في مكانه المعتاد، مدسوسًا في الزاوية مثل مراقب صامت، وذهبت إلى الجدار المقابل له وأنا أقاوم رغبتي في النظر إليه. كانت هذه اللحظة التي كان ينتظرها هنريك، أو تلك التي كان يخشاها، وإن تداعيات الأخيرة ستؤثر بالسلب فينا جميعًا.

قال سايمون: «إنه صباح جميل، وأردت أن يكون كلاكما هنا لهذه المناسبة».

استطعت أن أرى حماسة هنريك وترقبه الشديد خلف قناعه الهادئ الذي أبداه. فإذا ما قال سايمون إن حضوره هنا كان لمناسبة ما، فهذا يعني شيئًا واحدًا فقط.

شبَّك سايمون يديه معًا في حماس، بينما توجه بحديثه إلى خالي قائلًا: «لقد قررت أن أقدِّم إليك رعايتي لدى نقابة الأحجار الكريمة».

ظهرت ابتسامة واسعة على شفتي هنريك، وانحنى إلى الأمام، وصافح يد سايمون بقوة أكبر من اللازم، وقال: «شكرًا لك يا صديقي العزيز».

نظر هنريك مباشرة إلى إزرا الواقف خلفي، وكانت نظراته تنم عن فخر وابتهاج، كان هذا ما انتظره طويلًا. فقد بذل كل ما يلزم من الجهد من أجل تحقيق ذلك. وأول شخص نظر إليه هو إزرا، وقد نمت نظراته عما هو أكبر من الفخر، إذ تضمنت مودة وحبًّا؛ فلم يكن هذا إنجازه هو فقط، وكان يعرف ذلك.

كان هذا هو الشيء المخيف في هنريك، ما فعله كان بدافع الحب.

قال سايمون: «لقد استحققتها، أعتقد أنه يمكننا جميعًا الاتفاق على هذا. والمجموعة التي ستقدمها إلى النقابة ستثبت ذلك».

قلت له: «تهانينا»، لكنني لم أستطع استشعار صدق مشاعري في تلك اللحظة.

مع أن نجاح هنريك يعني نجاحي، لكن ما آلمني هو أنه استخدم إزرا لتحقيقه. وعندما حاول إزرا أن يختار طريقه الخاص، عاقبه أشد العقاب. وبغض النظر عما يكنه خالي حقًّا من مشاعر تجاه إزرا، وعما لديه من أسباب لفعل ذلك، فإنني لن أسامحه أبدًا على ما حدث في غرفة المكتب، ولن أنساه أبدًا.

صاح هنريك وهو يقوم من مقعده متوجهًا نحو الباب المفتوح: «أحضري الشراب على الفور يا سيلفي!».

انطلقت المرأة في الردهة بسرعة كبيرة، ودوَّى صوت قعقعة الكئوس في المطبخ.

قال هنريك: «لن تندم على هذا يا سايمون، سيكون إزرا جاهزًا بالمجموعة قبل الموعد المحدد، و....»

رفع سايمون يده في إشارة إليه بالتوقف عن الكلام، بينما كانت سيلفي تصب الشراب في الكئوس وتوزعها قائلًا: «ليس لديَّ شك في هذا».

أبقيت كأسي أمامي، وكانت الرائحة المنبعثة منه في هذا الصباح الباكر تثير داخلي إحساسًا بالغثيان. وعندما رفع هنريك كأسه، فعل سايمون الشيء نفسه، وتبعهما بقيتنا.

صاح هنريك: «نخب المعرض!».

ترددت الأصوات في الغرفة الصغيرة: «نخب المعرض!».

بدا هنريك منتشيًا بشكل واضح جراء هذه الأخبار المفرحة، وكرهت إدراك أن رؤيته على هذا النحو قد أثارت داخلي شعورًا بالاسترخاء، فقد كان عدم القدرة على التنبؤ بحالته المزاجية بشكل مستمر مرهقًا للغاية.

استرقت نظرة نحو إزرا، فقد أردت أن أهدئ من روعي، لكنه كان ينظر إلى كأسه دون إبداء أي تعبير واضح، لم يبدُ سعيدًا أو مرتاحًا، ولم يبدُ محبطًا أيضًا. كان أكثر خبرة مني في فهم مشاعر هنريك المتغيرة، وكان يعرف كيفية التعامل مع مثل هذه التحولات.

انحنى هنريك إلى الأمام في محاولة ليبدو لطيفًا، لكنه لم يكن كذلك على الإطلاق، كان أشبه بقنفذ البحر، وتوجه بحديثه إلى سايمون: «لكن يا عزيزي لا تزال هناك مسألة آرثر. أنا متأكد أنك سمعت أنه قد حصل أيضًا على رعاية».

قال سايمون وهو يحتسي شرابه على مهل: «لقد سمعت بذلك بالتأكيد. فأنا من رتبت هذا الأمر». كان هناك شيء ما في حركاته المتعمدة هذه جعلني أشعر بقشعريرة تسري في

ظهري.

توقفت يد هنريك، بينما كان يرفع كأسه إلى شفتيه، وتساءل، وهو يضحك بغرابة: «ماذا تقول؟».

كان كوين يقف خلف سايمون، مبديًا تعجبه مما يُقال؛ إذ بدا أن كل ما قاله سايمون كان جديدًا بالنسبة لابنه.

قال مرة أخرى: «لقد أمَّنت الرعاية لآرثر. بالطبع فعلت ذلك».

تجهم هنريك: «لماذا فعلت ذلك؟».

قال سايمون بسخرية: «هنريك، أخشى أن تكون قد اعتقدت أنني وافقت على الرعاية من منطلق حسن نيتي».

قال هنريك متلعثمًا: «أنا، أنا لا أفهم».

دلفت سيلفي إلى الغرفة وهي تحمل صينية فضية، ووضعتها على الطاولة المنخفضة. كان عليها طبق من الفاكهة، وبعض الجبن، التي توضع عادة على طاولة الفطور. سمح سايمون لنفسه بالتقاط عدة حبات قليلة من العنب قبل أن يعيد ملء كأس هنريك. جلس خالي مكانه بلا حراك، كأنه لم يكن متأكدًا مما يجب فعله.

وهنا أوضح سايمون مقصده: «إذا كنت تريد رعايتي، فسأطلب منك شيئًا في المقابل»، وضع سايمون إحدى حبات العنب في فمه ومضغها. وتجاوزتني عيناه نحو زاوية المكتبة، حيث كان يقف إزرا يشاهد ما يحدث في صمت.

اتسعت فتحتا أنف هنريك، واهتزت الكأس في يده. قال سايمون وهو يبتلع جرعة أخرى من الشراب دفعة واحدة: «سيعود إزرا إلى العمل معي».

اتسعت عينا كوين، وفتح فمه مشدوهًا، بينما وقف مرتبكًا. كان من الواضح أن هذه الخطة ظلت حبيسة عقل سايمون، ولم يفصح عنها لأحد حتى ابنه. بالطبع لم يكن كوين سعيدًا بأن يجد نفسه مرة أخرى في منافسة مع إزرا على نيل إعجاب والده واحترامه.

نظرت إلى هنريك الذي كان يستشيط غضبًا، لقد أدرك أنه محاصر. وإذا لم يوافق سايمون على تقديم رعايته إياه، فسيحصل آرثر على الخاتم باعتباره المرشح الوحيد في المعرض.

مد سايمون يده نحو هنريك لإتمام الصفقة، وقال منتظرًا أن يمد هنريك يده لمصافحته معلنًا موافقته: «سيعود إزرا إلى حيث كان، وستحصل على خاتمك».

قال له هنريك: «ما الذي يضمن لي ذلك، إذا كنت قد أمَّنت لآرثر رعاية أيضًا؟ فيمكن للنقابة أن تختاره ليحصل على الخاتم. فما الذي سأملكه إذن؟».

أسقط سايمون يده، وهز رأسه: «أوه! بالطبع، لقد نسيت إخبارك بتلك التفاصيل. إن منحك رعايتي شيء، وتأمين حصولك على الأصوات في النقابة شيء آخر، فسيتطلب ذلك مقابلًا منفصلًا». ثم رفع عينيه نحوي، وأضاف: «ستتزوج برين بكوين، كما ناقشنا هذا سابقًا».

صاح كوين وهو ينظر إلى سايمون: «أبي!». كانت الكلمة تحمل قدرًا كبيرًا من التوبيخ، لكن نظرة سايمون الصارمة التقت بنظرة ابنه، وفي تلك اللحظة، أغلق كوين فمه.

لم أستطع منع نفسي من النظر إلى إزرا. كان لا يزال جامدًا مثل الحجر، وبدا فكه مغلقًا بإحكام. كان هناك اضطراب غير مرئي يثور تحت مظهره الخارجي الهادئ، فكان يشبه في حدته حافة سكين حادة تضغط على جلد رقيق.

أضاف سايمون وهو يضحك: «سيندرج بيت الشاي تحت أعمالنا. يبدو من المناسب أن نعود إلى النرد مرة أخرى، ألا تعتقد ذلك؟».

زمجر هنريك، وألقى نظرة اشمئزاز نحو سايمون. وسأله بصوت مخنوق: «هل هذا هو دافعك يا سايمون؟ هل يتعلق الأمر بلعبة ثري ويدوز إذن، هل كنت لا تزال تسعى إلى الانتقام، على الرغم من كل تلك السنوات الماضية؟».

كان كوين يقف متوترًا خلف سايمون. نظر إليّ بوجنتين محمومتين، فقد كنا أنا وهو الوحيدين اللذين عرفنا أن اللعبة التي تحدث عنها هنريك كانت تنطوي على غش.

حدق سايمون إلى كأسه قبل أن يرفعها إلى فمه، وساد صمت بارد ومقلق أرجاء الغرفة قبل أن يضع الكأس على الصينية مرة أخرى. ترك التوتر يغلف المكان قبل أن يجيب قائلًا: «لا، لا يتعلق الأمر بلعبة ثري ويدوز، وإنما يتعلق بها» جاءت أنفاسه شديدة ومتعاقبة، وهو يلقي نظرة خاطفة على اللوحة التي كانت على الحائط.

إيدن.

سايمون لم يكن مجرد صديق أمي إذن، بل كان يحبها. وكان واضحًا من الطريقة التي كان ينظر بها إلى هنريك، إنه يحمله المسئولية عن وفاتها، وعن كل شيء آخر على ما يبدو.

نهض سايمون من مكانه، وأشار إلى ابنه بذقنه ليتبعه، فذهب بالفعل في إثر والده وهو يندفع خارج الغرفة بخطوات حازمة. وقفنا نحن الثلاثة هناك صامتين نسمع باب المنزل ينفتح وينغلق، ثم ساد الصمت.

امتقع وجه هنريك، وبدا فجأة أصغر حجمًا في ذلك المقعد، بدا ضعيفًا، كان المشهد مثيرًا للاشمئزاز. لقد صار رجلًا هشًا، ملكًا أطيح به. لكن على الرغم من الاضطراب الذي كان يعتمل داخلي جراء كلمات سايمون، فقد أحببت رؤية خالي هكذا.

الرابع والثلاثون

اجتمعت عائلة روث حول الطاولة، ولكن هذه الليلة لم يكن هناك عشاء.

جلس هنريك منتصبًا في مقعده، بينما اشتعلت نيران المدفأة من خلفه، وألقت وهجًا شديدًا على ظهره. كان الجميع في حالة من الترقب ينتظرون، على الرغم من أن سبب الانتظار ظل غير واضح. دائمًا ما كان لخالي شخصية غامضة يصعب معرفة ما يدور داخله، لكنني رأيت على وجهه اليوم ما لم أره من قبل، فقد بدا متفاجئًا حقًّا؛ إنها مفاجأة كلية لم يقوَ على إخفائها. وقد ظهر رد الفعل هذا عليه عندما كان جالسًا في غرفة المكتب يستمع إلى مطالب سايمون. جعلنا ذلك جميعًا في الغرفة نشعر بخطر يحيق بنا، كأن أرضية تلك الغرفة مصنوعة من طبقة رقيقة من الجليد الهش. نتأرجح جميعًا على سطحها غير المستقر، ولم نفكر فيما إذا كان سيتحطم بنا، بل كنا نفكر في اللحظة التي سيتحطم فيها حتمًا.

استدعي الجميع، حتى أنثيليا وترو. أخذت سيلفي جيمسون إلى المطبخ وأطعمته شرائح المشمش حتى لا يبكي. أما أنثيليا فقد جلست خلف نويل في أبعد مقعد على الطاولة، لتكون لديها المساحة لحماية نفسها من غضب هنريك. لم تكن هذه المرة الأولى التي تفشل فيها خطة وضعها هنريك، ولن تكون الأخيرة، على الأقل لم يفقد أحد حياته هذه المرة. أو لنقل حتى الآن على الأقل.

وضع هنريك قبضته على سطح الطاولة الخشبي الأملس، وقال وهو يتنفس ببطء محاولًا الحفاظ على رباطة جأشه: «أريد أن أعرف كيف حدث هذا؟».

كان أخوالي وابن خالي مورو يتبادلون النظرات لتحديد من سيبدأ بالكلام. وفي هذه الأثناء، ظل إزرا صامتًا، وهو يحدق من النافذة وذراعاه معقودتان على صدره، كعادته لم يكن مستعدًّا لتولي زمام المبادرة، وترك للآخرين مسئولية القيام بذلك بكل رضا.

تحدث كازيمير أخيرًا قائلًا: «لا بد أن يكون سايمون قد أمَّن الرعاية لآرثر قبل أن يقدِّم مطالبه ليتأكد أننا سنضطر إلى الامتثال لها، إن الراعي هو الشريك التجاري لشركة سايمون، بيد أن أعمالهم التجارية غير معروفة على نطاق واسع في باستيان؛ لذلك لم نتواصل معهم من قبل».

تساءل هنريك، وعيناه مثبتتان على الطاولة: «هل أبلغ سايمون النقابة برعايته لي؟».

أجاب كازيمير: «لم يعلن بعد، إنه في انتظار موافقتك على شروطه». ثم سحب رسالة من جيبه ووضعها على الطاولة، لكن هنريك لم يُظهر أي اهتمام بالتقاطها. وتابع كازيمير حديثه: «أمامنا حتى موعد قرع جرس الميناء في مساء الغد لنرد عليه».

شعرت بغصة في حلقي، وابتلعت ريقي بصعوبة، ورفعت عينيَّ نحو إزرا مجددًا، لقد تجاوزت عواقب هذا الوضع حدود حريتنا؛ فحتى قبل أن يظهر سايمون عندنا ذلك الصباح، كنا مجرد أسيرين لدى هنريك. لكن كان هناك ما هو أخطر من ذلك. وهو ما يتمثل في إجباري على الزواج بكوين في حين أنني واقعة في حب صائغ الفضة الذي يعمل في ورشة والده. كان التفكير في مثل ذلك الأمر يصيبني بألم شديد يشبه إلى حد كبير ابتلاع زجاج مكسور.

لم أكن أعرف ما إذا كان إزرا يفكر في الشيء نفسه، كانت تعبيراته غامضة، فيما عيناه مثبتتان على شيء بعيد في الأفق.

قلت بنبرة يائسة أفصحت عن شعوري في تلك اللحظة: «ربما هناك طريقة أخرى يمكننا من خلالها الحصول على راعٍ جديد».

هز هنريك رأسه: «لقد فات أوان ذلك».

قال نويل: «سيصوّت أعضاء النقابة للفائز بخاتم التاجر في غضون ثلاثة أيام. كان فوزنا برعاية سايمون أمرًا صعب المنال، وسيكون تأمين رعاية جديدة في ذلك الوقت أمرًا مستحيلًا. ولا أعرف أي تاجر قد يغامر بمواجهته. إذا لم نقبل، فسوف ينتشر الخبر، ولن يتجرأ أحد على دعمنا».

قلت: «إذن فلنرفض، وننتظر الفرصة التالية، وفي النهاية سيموت شخص ما أو يفشل. ومن ثم قد نتمكن من الفوز بالخاتم بدلًا منه إذا ما تحلينا بالصبر».

شهق هنريك: «أنتِ لا تعرفين أي شيء عن أي من هذا».

قلت بحذر: «هذا ليس صحيحًا. لقد نشأت في هذا العالم، وأعرف كيف تجري الأمور في النقابات».

قال لي بنبرة قاطعة بينما كانت نظراته تحمل لي ازدراءً مطلقًا كاشفة عن مشاعره الحقيقية: «أنت تجيدين جذب الآخرين بأسلوبك الشائق وتكوين العلاقات، لكنك لا تعرفين أي شيء عما يجب القيام به في مثل تلك الظروف الصعبة لتحقيق المرغوب، وهو ما قد يمتد للقيام بأفعال محظورة. ما كان يجب أن أوافق أبدًا على السماح لساريا باصطحابك إلى نيمسمير في المقام الأول. كان ذلك خطأً كبيرًا».

صحت بنبرة حادة: «وما الفرق بين وجودي هنا أو في نيمسمير إذا كنت سأباع في أي من الحالتين إلى زوج يؤمن للعائلة وضعًا أفضل؟».

قال هنريك: «زواجك هو أقل ما يقلقني! إن نجاحاتنا تعتمد على عمل إزرا، ودونه لن نحقق أي شيء، ولن نقوى على المنافسة على الإطلاق».

شاهدت إزرا يبتلع ريقه، ثم نظر أخيرًا نحو الطاولة. ولهذا السبب إذن قال إنه لا يرغب في مواصلة عمله في صياغة الفضة بعد الآن، فقد صنع لنفسه مجموعة من الأغلال بهذه الموهبة. لكن الأكثر وضوحًا فيما قاله هنريك هو أن زواجي بكوين لم يشكل أي معضلة بالنسبة له. لقد كان مستعدًّا بالفعل لتسليمي إلى كوين من قبل، والسبب الوحيد الذي جعله يعيد النظر في الأمر هو أنني سأملأ جيوبه بالمزيد من العملات.

قال هنريك أخيرًا وهو يحكم قبضة يده: «ليس لدينا خيار آخر. سيعود إزرا إلى ورشة عمل سايمون، وستتزوج برين بكوين. وبمجرد أن أحصل على خاتم التاجر، سأجد طريقة لاستعادتك» كان يقصد إزرا بتلك الكلمة الأخيرة.

قلت وأنا أشعر بألم حاد ممسكة دموعي: «وماذا عني؟».

حدق هنريك إلى وجهي: «هل تريدين أن ننقذكِ من زواج رائع في عائلة ثرية وقوية؟».

أجبته: «نعم». رغبت حقًّا في أن ينقذني من هذا الأمر؛ لكنني كرهت الاعتراف بذلك.

قال هنريك وهو يدفع مقعده إلى الخلف معلنًا انتهاء المناقشة: «لدينا مشكلات أكبر يا برين»، ثم نظر إلى إزرا قائلًا: «تعالَ معي يا إزرا».

كززت على أسناني، وأنا أحدق إلى نيران المدفأة المتوهجة حتى اغرورقت عيناي بالدموع. خرج الجميع من الغرفة، وتركوني وحدي لأواجه دقات قلبي السريعة. والحقيقة هي أنني لم أكن أكثر تحررًا مما كنت عليه في نيمسمير. لقد كنت على علم بهذه الحقيقة بالفعل، ولا يهم مدى رغبتي في تشكيل مصيري؛ إذ بدت رسالة ساريا، بوعودها المغرية مجرد وهم وأمل خادع. كرهتها جدًّا في تلك اللحظة.

حتى هي لم تكن حرة. لقد تركت باستيان لكن المسافة بينها وبين أبناء أخيها لم تقطع علاقتها بهم أو بعائلة روث جميعًا. كانت مقيدة مثل بقيتنا، ألزمت بتربية فتاة جميلة لتقدمها هدية لهنريك في النهاية يفعل بها ما يحلو له.

قطع صوت ناعم الصمت الذي ساد الغرفة فجفلت فجأة، وسالت دمعتان ثقيلتان على خديَّ: «كانت تحبه، أقصد سايمون».

كانت أنثيليا لا تزال جالسة على الطرف الآخر من الطاولة تعبث بخصلة من شعرها بأصابعها. واكتشفت أنها لم تنهض عندما غادر الآخرون.

سألتها بصوت متهدج: «ماذا تقصدين؟».

قالت وهي تنظر إلى عينيَّ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك منذ مجيئي إلى هنا: «أقصد أن إيدن كانت تحب سايمون وأحبها هو الآخر، لكن إخوتها رفضوا زواجهما بحجة أن ذلك سيخلق الكثير من المنافسة في عالم التجارة داخل لوير فالي. وتزوجت بدلًا من ذلك بتوملين».

وبينما كنت أستمع إليها، اغرورقت عيناي بمزيد من الدموع التي كانت على وشك الانفجار، فعلى الرغم من أنه لم يتسنَّ لي رؤية أمي تلك التي كانت تتحدث عنها، وعلى الرغم من شعوري بأنها غريبة عني، آلمني ذلك الأمر بشدة. لم أحب معرفة أنها سايرت مخططاتهم كما فعلت أنا. وفي النهاية كانوا هم أنفسهم الذين تسببوا في قتلها.

قالت أنثيليا هامسة بينما كانت تنظر إلى مدخل الغرفة، وأدركت حينها أنها لا تريد أن يسمعها أحد: «لقد أرادت أن تقوم بواجبها تجاه العائلة، كما كانت خائفة أيضًا مما قد يحدث لسايمون إذا لم تطع إخوتها».

سألتها بغضب: «لماذا فعلتِ ذلك؟».

سألتني في دهشة: «ماذا فعلت؟».

أجبتها: «صرت جزءًا من هذه العائلة المتوحشة، وتربين أطفالك بينهم ليلقوا المصير نفسه».

لفت إصبعها في أطراف شعرها، وأخذت وقتًا قبل أن تتحدث، ثم أوضحت: «لقد أحببت نويل؛ لذلك لم أشعر بأن لديَّ خيارًا، لكنني كنت أملك خيارًا بالفعل، ولا يمر يوم دون أن أتساءل عما إذا كنت قد اتخذت القرار الخطأ».

بلعت ريقي وقلت لها: «لقد فعلتِ. لقد اتخذتِ الاختيار الخطأ».

لم أكن أعرف لِمَ اختارت أن تقول ما قالته لي الآن، أو لِمَ شعرت برغبة جامحة في معاقبتها. وتساءلت عما إذا كانت قد تحدثت مع أي شخص في هذا الموضوع صراحة من قبل. وكرهتها لاختيارها هذا الطريق الذي أُجبر بقيتنا عليه.

همست وأنا خائفة من الإجابة: «هل كان والداي يحب أحدهما الآخر؟».

تنهدت: «لقد بدوا شريكين جيدين».

فقلت لها: «لكن هذا ليس الشيء نفسه».

ابتسمت بحزن، وقالت: «نعم أنت محقة».

تردد صدى الصوت الحاد المفاجئ لمطرقة إزرا في الهواء، ما جعلني أغمض عينيَّ بشكل غريزي. أخذت نفسًا عميقًا، محاولة تهدئة نفسي مع استمرار شعوري بالألم في حلقي. عاد إزرا إلى الورشة مرة أخرى، فلم يكن يملك خيارًا آخر سوى ذلك.

وقفت متتبعة الصوت، وتركت أنثيليا في غرفة الطعام الفارغة. كان باب الورشة مفتوحًا، وانتشر الهواء البارد في المنزل الدافئ. ارتفع صوت مطرقة إزرا إذ كان يدق بها بغضب. عندما نظرت إلى الداخل، رأيته واقفًا متصلبًا أمام المسبك، وقد كوَّن الظل صورة له في مواجهة الوهج الناري المنبعث من المسبك.

أغلقت الباب خلفي، وتوجَّهت إليه، لكنه لم ينظر إليَّ بينما كنت أسير حول الطاولة، لم يتوقف عن الطرق بمطرقته حتى مددت يدي، وأمسكت بذراعه. شعرت بأن عضلاته صلبة

كالحجر، كما شعرت بنبضه المتسارع تحت أطراف أصابعي. استغرق الأمر لحظة حتى نظر إليَّ، لكنه عندما فعل ذلك لم أرَ فيه صورة إزرا الذي أحببته، تبددت العاطفة التي رأيتها في عينيه الليلة الماضية، وبدا أمامي الآن بوجهه الذي قابلته في الليلة الأولى التي أتيت فيها إلى باستيان.

قال بنبرة تخلو من أي عاطفة وهو يلقي بالمطرقة على الطاولة: «لا تقلقي بشأن زواجك بكوين».

سألته: «ماذا تعني؟ ألم تسمع ما قاله هنريك؟».

ابتعد عني خطوة متظاهرًا بانشغاله بالمنجلة التي على السندان، وقال: «أنا أعرف سايمون، يمكنني أن أعقد صفقة معه، وينتهي الأمر».

سألته: «أي نوع من الصفقات؟».

هز رأسه ولم يرد.

أمسكت بذراعه مرة أخرى، وشددت قبضتي عليه قائلة: «إزرا».

قال: «سأعتني بالأمر». لم يكن ليخبرني، مهما كان.

شاهدته بعجز وهو يعود إلى طاولة العمل. كان داخله بركان يتلظى، ويُلقي بحممه هنا وهناك، لاحظت مشاعره المضطربة على الرغم من محاولاته التظاهر بالصلابة واللامبالاة. فسألته: «وماذا عن صاحب ورشة صناعة السفن الذي كنت تعمل لديه؟».

قال بينما بدا عليه الإنهاك: «ماذا عنه؟».

قلت له: «ربما سيساعدك، أقصد يساعدنا».

هز إزرا رأسه بالنفي، وقال: «لقد تطلب الأمر الكثير لمجرد حمله على أن يقبلني، وهو ليس بالسذاجة التي تجعله يتحدى هنريك أو سايمون على أي حال».

قلت: «ربما...»

قاطعني بحدة وهو يشير إلى ورشة العمل من حولنا: «برين! هذه هي حياتي التي اعتدتها ولا يهم إذا ما كنت أطرق بالمطرقة هنا في لوير فالي أو في حي التجار، فكل الأمور بالنسبة لي سواء. لكن أن تكوني مع كوين...» هز رأسه ومرر يده على وجهه، ثم قال: «هذا ما لن أقوى على تحمله أبدًا».

عندما نظر إليَّ في تلك اللحظة، بدا مهزومًا وخائفًا. أخذ أنفاسًا بطيئة ومدروسة، كما لو كان يحاول احتواء أي اضطراب يُعتمل داخله. بدا الأمر كأنه على وشك الانهيار.

ربت على كتفه برقة محاولة تهدئته، وشبكنا أصابعنا معًا، وتعاهدنا بنظراتنا على البقاء معًا إلى الأبد.

كان هذا هو المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان في هذه المدينة، هذه المساحة الصغيرة التي تضمنا. أنا لست إيدن، لن أتركه يضيع مني مهما حدث. فإن لم تكن هناك طريقة للنجاة من هذه الورطة، فسأبتكر واحدة.

عندما نظرت إليه في تلك اللحظة رأيت خطًّا لامعًا على خده يختفي تحت خط فكه، مسحته بإبهامي ونظرت في عينيه، وقلت له: «هل ما زلت على عهدنا بالبقاء معًا؟».

فكر قليلًا قبل أن يجيبني وعيناه مثبتتان في عينيَّ: «نعم».

بمجرد أن قال ذلك أطلقت تنهيدة ارتياح، وقلت: «إذن لديَّ فكرة».

الخامس والثلاثون

امتلأ بيت الشاي عن بكرة أبيه بالزبائن خلال اليومين اللذين فتح فيهما أبوابه.

جلست في تلك المقصورة الصغيرة في الزاوية الخلفية أشاهد المكان من خلف الستارة المخملية السميكة. وكانت المقاعد ممتلئة، ولكن لا يزال الباب مفتوحًا ما أدى إلى دخول مجموعة من الحشود الصغيرة التي التفت حول الطاولات للمشاركة في لعبة ثري ويدوز التي كانت تملأ جيوبهم بالعملات.

أكثر ما أزعجني في هذا الموقف هو أن الخسائر الكبيرة في لوير فالي قد تؤدي إلى التعارك باستخدام الآلات الحادة، وتبادل الاتهامات بالغش. ومع ذلك، هنا بين هؤلاء التجار الذين يمتلكون وفرة من الثروة، فإن الأمر لا يعد أكثر من مجرد تسلية، بل بالأحرى إنه نوع محرم من التسلية.

حملوا أكواب الشاي اللذيذة المملوءة بشاي الهيرلوم الفاخر بأصابع مرصعة بالجواهر، وألقوا عملاتهم على الطاولة جولة تلو أخرى. ومع ذلك لم يكن هناك شيء سوى الابتسامات والضحك والبهجة.

في منزل روث، كانت الفوضى تعصف بعالمي الصغير، وتجعله يتداعى، لكن هنا كانت الفوضى السائدة تبعث في نفوس الحضور البهجة والفرح. كان كوين قد وصف هذا المشهد من قبل بالسخيف، لكن في هذه اللحظة بدا مزعجًا ومقززًا.

بلا شك كانت الخطة التي كنت أفكر فيها محفوفة بالمخاطر، وتعتمد على توافق محدد للظروف. ومع ذلك، كانت لديّ موارد واتصالات محدودة في هذه المدينة، ما لم يترك لي

سوى القليل من الوقت للمخاطرة بطلب المساعدة من ساريا. لكنني ترددت في إشراكها في مثل هذه الفوضى على أي حال. فقد قامت ببناء سفينتها الخاصة للإبحار بعيدًا عن هذه العائلة، ولن أكون من يغرقها.

سحبت ساعة جيبي من سترتي لأتحقق من الوقت. كنت أعلق كل أمل على هذا الاجتماع، وعندما مر المزيد من الوقت، شعرت بالحماقة لأنني اعتقدت أن الأمر سينجح. ولكن عندما اقتنعت بأنها لن تظهر، ظهرت فيوليت بليك عند باب بيت الشاي فجأة.

استحوذ فستانها الأرجواني الباهر على أنظار جميع مَن في الغرفة، ولاحظت هي الجميع بنظرة فاحصة من تحت قبعتها. لقد استمتعت باهتمام الآخرين بها، ولم تأبه بمن انتبه لذلك. ستكون هذه تفاصيل مهمة عليَّ استغلالها عندما أحاول إقناعها بمساعدتي.

خلعت قفازي الدانتيل الأسود من يديها، ورفعتهما برقة في الهواء حتى أخذهما الخادم. وبعد أن استمتعت بالاهتمام والمحادثات الصامتة، انتقلت نظرتها ببطء عبر بيت الشاي حتى استقرت عليَّ. وتبخترت عبر الغرفة بخطوات راقصة بينما تحركت من مكاني لمقابلتها.

استقبلتني بابتسامة، وبدت شفتاها المثاليتان كأنهما مرسومتان بفرشة رسام: «مرحبًا برين».

قلت لها وأنا أشير نحو المقصورة الصغيرة هناك: «أنا سعيدة لأنك أتيتِ». تبعتني، ثم جلست وهي تسوي تنورتها فوق المقعد المخملي حتى لا تتجعد.

قالت: «من الصعب مقاومة دعوة من أكثر أعضاء دائرة التجار شهرة في اللحظة الحالية».

نظرت إليها متسائلة: «هل سمعتِ ما حدث؟».

قالت: «تقصدين رعاية سايمون؟ بالطبع سمعت بها».

دققت فيما قالته، بدا الوضع غير منطقيّ على الإطلاق، فقد وافق هنريك على شروط سايمون، لكن النقابة لم تكن لتعلن عن الرعاية للتجار حتى المعرض.

أضافت فيوليت: «أنا أراقب الأمور من كثب يا برين. ولهذا السبب أعلم أن هذه ليست دعوة اجتماعية».

شعرت بالارتياح لأنها لم تلجأ إلى الحيطة والحذر بشأن هذه المسألة، بل كانت صريحة ومباشرة. وعلى الرغم من أنها نشأت على تبني الآداب المتبعة في عالم النقابات، فقد كانت لديها رغبة في الانحراف عن المعايير المتوقعة. التقطتُ إبريق الشاي من فوق الطاولة، وسكبتُ الشاي المصفَّى في فنجانها.

قالت وهي تميل إلى الأمام قليلًا لتشم رائحة البخار المنبعث من الشاي الذي كنت أسكبه: «أنا أشم رائحة شاي أرجون ويسبير الفاخر. هذا مشروب نادر، أتحاولين إثارة إعجابي؟».

وضعت الإبريق بيننا وأنا أقول لها: «شعرت بالحيرة وتساءلت عما إذا كان من اللائق أن أُقدِّم لكِ الشاي أم مشروبًا آخر».

ابتسمت ابتسامة عريضة، وهي تلتقط الملعقة الصغيرة لتقلِّب الشاي: «فلتقدمي لي الأغلى دائمًا، والآن، ما الذي تحتاجين إليه مني يا عزيزتي؟ أعتقد أنك بحاجة إلى شيء ما».

وضعت يدي على الطاولة، وجلست بشكل مستقيم. كنت أعلم أن لديَّ فرصة واحدة فقط لتقديم هذا الطلب، وكان الأمر يقتضي التحدث بصراحة وبطريقة مباشرة؛ لذا قلت لها على الفور: «أريد منك أن تقدمي رعايتك لهنريك».

جفلت على الفور كأن احتساء الشاي قد سبَّب لها ألمًا، ثم وضعت منديلها بسرعة على شفتيها، وعندما أنزلته رأيت بقعة وردية على المنديل الأبيض، وقالت مندهشة: «ماذا؟».

لم أتراجع بل قلت بنبرة هادئة وواثقة: «لم تُعلن النقابة عن رعاية سايمون لهنريك بعد؛ لذا أريد منك أن تتولي الأمر قبل الإعلان عنها».

أضاءت عيناي فيوليت الزرقاوان بشدة لدرجة أنهما بدوتا كأنهما مصنوعتان من الياقوت الأزرق. وتساءلت بنبرة هادئة: «لما قد أفعل ذلك؟».

أسندت ظهري إلى المقعد دون أن أبعد عينيَّ عن عينيها: وقلت: «خاتم التاجر ليس هو الجزء الوحيد من صفقة هنريك مع سايمون. صائغ الفضة كذلك، إزرا، هو جزء من هذه الصفقة».

عبست، وتغير سلوكها فجأة وهي تضع فنجانها على الطبق، وقالت مندهشة: «إزرا».

كنت أعلم أنها لن تحب ذلك، فقد كانت هي وسايمون في منافسة دائمة وشرسة، وكان عمل إزرا لدى سايمون سيجعل منه منافسًا أكثر شراسة وقوة، فحصول سايمون على أكثر صائغي الفضة موهبة لن يؤدي إلا إلى تفوقه عليها من حيث الثروة والشهرة.

ثم أضفت: «كما سيصبح بيت الشاي أيضًا تحت إدارة سايمون».

لفت هذا انتباهها بشدة، وتساءلت مندهشة: «لِمَ يوافق هنريك على ذلك؟».

أجبتها: «لأنه من المفترض أن أتزوج بكوين».

قالت فيوليت ساخرة: «هكذا تسير مثل هذه الأمور على هذا النحو. اسألي أي عضو في النقابة وسيخبرك بأن حل أي مشكلة بينه وبين منافسه هي أبسط ما يكون، فقط ليس عليه سوى ربط عائلتيهما بعلاقة زواج من هذا النوع»، أطلقت تنهيدة عميقة وأردفت: «إذن سايمون سيمنح هنريك رعايته، وفي المقابل يعطيه هنريك صائغ الفضة وابنة أخته، إلى جانب مقتنياتها». جمعت أجزاء اللغز وفحصتها بدقة، ثم أضافت أخيرًا: «يجب أن

أعترف بأنني لا أحب وقع ذلك على الإطلاق. ولن تكون ساريا سعيدة عندما تسمع أن هنريك قد زوَّجك عند أول فرصة».

قلت لها: «لا، لن تكون سعيدة بالتأكيد، لكن لا يوجد الكثير مما يمكنها فعله حيال ذلك الأمر من نيمسمير.إذا توليت أنت الرعاية، فسوف تمنعين سايمون من الحصول على تلك البطاقات الرابحة».

بدا أن فيوليت تفكر في الأمر، فقد استمرت في تقليب الشاي، حتى بعد أن ذاب السكر.

وأضفتُ لتحفيزها على الموافقة: «وربما تحصلين نتيجة ذلك على بعض المزايا من جدتي أيضًا».

ابتسمت: «ليس من السهل الحصول على ذلك».

قلت لها: «نعم، إنه ليس بالأمر السهل فعلًا».

أيًّا كان ما تفكر فيه فيوليت، فإنه لم يظهر على ملامح وجهها، فقد عرفت كيف تحتفظ بأفكارها لنفسها.

سألتني وهي تقوس أحد حاجبيها: «وصائغ الفضة؟ هل سأحصل عليه أيضًا؟».

أثارت الكلمات غضبي، ولاحظت هي ذلك، وأجبتها: «إنه ليس جزءًا من أي صفقة».

قالت: «إذن، فهذه ليست صفقة رابحة بالنسبة لي على الإطلاق» توقفت قليلًا لتقيِّم ردة فعلي، ثم تابعت: «كما تعلمين، لقد تعلمت الكثير من الأمور على يد ساريا، فهي من علَّمتني شق طريقي الخاص وحماية نفسي في هذا العالم، وأعلم أنها فعلت الشيء ذاته معكِ أيضًا. لذلك، لست بحاجة إلى أن أشرح لك أنني من خلال تقديم رعايتي لهنريك، سأحرم سايمون من الحصول على بعض الامتيازات. وهذا جيد جدًّا، لكن مقابل ذلك لن أكسب شيئًا لنفسي؛ لذا فإنها ليست صفقة مغرية».

وضعت مرفقي على الطاولة، ولم أهتم بأن تصرفي بدا غير مهذب بعض الشيء. في الواقع، كان لديَّ حدس بأن التصرف بجرأة وبشكل غير تقليدي سيكون مفيدًا في هذا الموقف. وسألتها بشكل مباشر: «ماذا تريدين يا آنسة بليك؟».

أجابت: «أريد الشيء الذي خدعني سايمون للحصول عليه، أريد عقد سفينة سيربينت».

حدقت إليها، وشعرت بخيبة أمل تملأ قلبي. كانت قوتي محدودة للغاية في هذه المدينة، ولم تمتد ولو جزئيًّا إلى التعامل مع التجار، فسألتها في دهشة: «سيربينت؟ ما الذي يجعلك تعتقدين أنني يمكن أن أحصل على شيء كهذا؟».

قالت: «إما يمكنك، أو لا يمكنك يا آنسة روث». رددت اسمي ببطء وعيناها تومضان.

قلت لها: «إن فرصتك في الحصول على هذا العقد أفضل من فرصتي كثيرًا».

قالت: «هذا صحيح. لكن اسمي لا يمكن أن يرتبط بأي شكل بهذا الأمر. أعلم أنك جديدة هنا، لكن لا بد أن تعرفي أن سايمون معروف بانتقامه الشديد، الذي يصل إلى القتل، من أي شخص يسعى لخداعه، وبغض النظر عن عدد السفن التي أمتلك عقودها، لا يمكنني جمع الأموال الوفيرة من خلال ذلك إذا ما قُتلت، أليس كذلك؟».

لا، لن تستطيع بالطبع جمع الأموال إذا قتلها سايمون. فإذا سمع أي خبر عن مشاركتها في هذا الأمر، فسيجعلها تدفع الثمن غاليًا. لا يهم مدى ولائها لساريا، فإنها لم تكن لتقدِّم حياتها من أجل هذا الولاء.

قالت: «ابحثي عن طريقة للحصول على هذا العقد، وسأمنح هنريك رعايتي». ثم أخذت رشفة أخيرة من فنجانها، وأضافت وهي تقف لتعدل هندمها بيديها الرقيقتين: «شكرًا لكِ على الدعوة، وآمل أن أحصل على أخرى قريبًا جدًّا».

ابتسمت لها ابتسامة بسيطة.

طافت نظراتها عبر الغرفة، وكانت الأنظار تتجه بالفعل نحوها. قامت بلف سلسلة قلادتها حول إصبعها بشكل عرضي، وعيناها تتألقان، وقالت أخيرًا: «إنه حقًّا بيت شاي صغير وجميل جدًّا». تمايلت تنورتها عندما استدارت منصرفة.

شاهدتها وهي ترحل بينما كنت ألقي السباب بصوت منخفض. كنت أعرف أنها فرصة بعيدة، لكنها كانت فرصتي الوحيدة. كنت أعرف كيف تجري الأمور فيما يتعلق بعقود السفن، وقد قضيت ما يكفي من الوقت بالقرب من التجار لمعرفة أنهم يهتمون بشيء واحد فقط ألا وهو العملات النحاسية. وكان سايمون قد قدَّم عرضًا أعلى من فيوليت، وهكذا فاز بالعقد بمنتهى البساطة. كان من المستحيل أن أجعل قائد سيريبينت يغيِّر رأيه وعدم التحدث عن هذا الأمر مع أي شخص. لقد رأيت أنه من الممكن إقناع سايمون بالموافقة على الصفقة بنفسه.

رفعت حاجبيَّ في دهشة وأنا أحدق إلى فنجان الشاي، وكان انعكاسي متموجًا في ذاك السائل الكهرماني الساخن. إن الطريقة الوحيدة الآن لتغيير العقد هي إلغاؤه، الأمر الذي يتطلب توقيعًا وختمًا. لكن ربما لم يكن توقيع سايمون وختمه هو ما كنت أحتاج إليه.

السادس والثلاثون

كان هناك مكانان فقط يمكن أن يوجد فيهما كوين في هذا الوقت، مع استبعاد أن يكون في ورشة سايمون بالتأكيد.

وقفنا أنا وإزرا عند مدخل الميناء، نراقب السفن الموجودة في الأسفل. كان كوين يقف في حوض الميناء، حيث يشرف على تحميل مخزون أحد التجار خلال الساعة الماضية، وظل يتفقد ساعته كأن لديه موعدًا في مكان آخر.

لم يكن ليحضر إلى هنا لو لم تكن الشحنة مهمة؛ لذا خمنت أنها من أكثر القطع الفخمة الخاصة بهم التي ربما تكون متجهة إلى نيمسمير أو أي مدينة ساحلية أخرى يوجد فيها عملاء يدفعون مبالغ طائلة مقابل الحصول على أشياء جميلة. ولم يكن سايمون ليثق بأي شخص آخر لأداء هذه المهمة. ونظرًا إلى عودة إزرا القريبة إلى صفوفهم، فإن كوين سيسعى لتقديم أفضل ما لديه لإرضاء والده، كما كان يفعل دائمًا.

في كل مرة كان يسحب فيها الساعة من سترته، كنت أشعر باضطراب شديد يضرب أمعائي. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي فكرت فيها للحصول على ما نريده، لكنني لم أكن أعرف كوين جيدًا بما يكفي لتخمين ما سيفعله. إن الشيء الوحيد الذي كنت متأكدة منه هو أنه يحب والده للغاية. وكانت فيوليت بليك أملنا الوحيد في الهروب من مخطط سايمون.

كنت أجيد قراءة تعبيرات وجه الآخرين، والنفاذ إلى عقولهم لقراءة أفكارهم وما تكنه صدورهم. وقد عرفت بعد فترة وجيزة من لقائي كوين أنه يريد شيئًا واحدًا فقط، وهو رضا والده.

عندما وُضع آخر صندوق في السفينة، رفع كوين يده في الهواء ملوحًا للربان الموجود على سطحها. صعد إلى الرصيف ورفع ياقته إلى الأعلى، وأمال قبعته إلى الأسفل، لكيلا ينتبه إليه أحد، لكن ذلك كان صعبًا، فقد كان وسيمًا ولافتًا للنظر يرتدي سترة رائعة تلفت انتباه كل من يمر به. ربما لم يكن الرجل الأكثر أهمية في حي التجار حتى الآن، ولكن كان لديَّ شعور بأنه يمكن أن يكون كذلك في نهاية المطاف.

سألني إزرا وهو يتكئ بظهره على الدرج: «هل تعتقدين حقًّا أن هذا سينجح؟».

نظرت إلى عينيه، كانت الكدمات الموجودة على وجهه بدأت تتلاشى، ولكن ستبقى مكانها ندوب قد لا تُرى إلى حد ما. قلت له بكل صراحة: «لا أعلم».

سألني: «ماذا لو لم ينجح الأمر؟».

لم تكن لديَّ إجابة عن هذا السؤال. فإذا لم أتمكن من إعطاء فيوليت ما تريد، فلن تمنح هنريك رعايتها. وسيقبل رعاية سايمون بدلًا من ذلك، ومن ثم أنتقل أنا وإزرا إليه مقابل هذه الصفقة. كان الخيار الآخر الوحيد هو المخاطرة بالهرب، لكن خالي سيتبعنا، وسايمون أيضًا. أن تكون عدوًّا لرجل خطير أمر سيئ بالتأكيد، فما بالك بأن تكون عدوًّا لاثنين من أسوأ الرجال، فلا شك أنه أمر في غاية الخطورة.

بدأ كوين صعود الدرجات ووقف إزرا بعيدًا في الظلام، وأنزل قبعته إلى الأسفل قليلًا فوق عينيه. فعلت الشيء نفسه، وراقبت كوين بطرق عيني حتى رأيت حذاءه الجلدي الأحمر يظهر أمامي. بدأت على الفور ودون تردد في التحرك حتى صرنا نسير جنبًا إلى جنب معًا.

استغرق الأمر منه ثانية ليلاحظني، وعندها تعثرت خطواته، وشهق قائلًا: «برين».

ثم رأى إزرا على الجانب الآخر منه، فرفع يديه في الهواء بشكل غريزي، كأنه كان يتوقع تلقي لكمة من أحد منا. وبالنظر إلى الأحداث التي حدثت، لم تبدُ هذه فكرة غير معقولة على الإطلاق، ولم تعد فكرة اللجوء إلى العنف تبدو فظيعة بعد الآن.

قال إزرا بنبرة حادة: «سر فحسب».

نظر كوين حولنا قبل أن يطع الأمر، وانطلقنا في الشارع بعيدًا عن الميناء، ومررنا من المدخل، وانعطفنا عند زاوية بيت التجار قبل أن يتحدث أخيرًا.

قال وهو يخلع قبعته، ويمرر يديه خلال شعره بتوتر: «اسمعي يا برين. لم أكن أعرف خطة والدي بشأن تقديم الرعاية لخالك. أقسم لك أنه لم يخبرني».

قلت له: «أنا أعرف». ربما كان كوين محتالًا، لكنني لم أشعر قط بأنه يكذب عليَّ.

كان ارتياحه لإجابتي واضحًا على وجهه. فقد لاحظت بما لا يدع مجالًا للشك أن كوين كان مندهشًا هو الآخر عندما وقفنا في غرفة مكتب هنريك ذاك الصباح. ويبدو أن والده لم يخبره حقًّا. والأهم من ذلك أنه كان يهتم برأيي فيما يفعله، وكان ذلك في صالحي بكل تأكيد.

قلت له: «لكن هذا لا يغيِّر من حقيقة أن لدينا مشكلة خطيرة، وهي مشكلة لك أنت أيضًا»

توقف كوين، وتساءل في دهشة: «أنا؟».

وجَّهت نظري إليه، وقلت: «هل تريد أن يعود إزرا إلى العمل في ورشة والدك؟».

نظر كوين إلى إزرا الذي وقف بجانبه دون حراك، وقال: «ليس بالضبط».

قلت له: «إذن، من الأفضل أن تستمع إليَّ» ثم بدأت أسير مرة أخرى. ولم أخطُ سوى بضع خطوات حتى سمعته يتبعني، وتردد وقع صوت حذائه على الأرض المرصوفة بالحصى.

قال وهو يلتقط أنفاسه: «حسنًا، ما الأمر؟».

قلت له: «أنا أعلم أن سايمون يعمل مع هولاند، يتاجر في قطعها الخاصة باستخدام ختمه» كنت أخمن التفاصيل، لكن رد فعله أكد لي أن تخميني صحيح.

اتقدت عيناه وزم شفتيه قائلًا: «أنت لا تعرفين أي شيء».

قلت له: «لا، بل أعرف. لقد رأيت دفتر الحسابات بنفسي».

سألني وقد بدت الدهشة جلية على وجهه: «ماذا؟ كيف؟».

نظرت إليه نظرة تنم عن الضيق والغضب، وقلت له: «في تلك الليلة حيث كنا نتناول العشاء في بيتكم عندما سكبت الشراب على فستاني، تسللت إلى مكتب والدك وفتحت قفل خزانته. كان اسمها موجودًا هناك مائة مرة تقريبًا، وأراهن أن معظم تلك المعاملات قد جرى بعد أن انتُزع منها خاتم التاجر الخاص بها».

بدا كوين مذعورًا بيد أنه لم يكن مصدومًا، فقد كان ذلك سرًّا كان هو على علم به.

«وهناك أكثر من تاجر في هذه المدينة يمكنه أن يساعدني على العثور على الدليل. إذا حدث ذلك، فسوف تنقلب النقابة على سايمون، وسيجرد من خاتمه أيضًا. وعندها لن نحتاج إلى رعاية لأنه سيكون هناك ما يكفي من الخواتم لنا جميعًا».

استشاط كوين غضبًا، لكنه كان بذلك قد فضح أمرهم بالفعل. كان متململًا وقلِقًا يتفقد الشارع خلفه كل بضع ثوانٍ كأنه خائف من أن يسمعنا أحد. ثم قال بنبرة حادة: «ماذا تريدين مني؟».

أومأت برأسي نحو عمود الإنارة الذي أمامي، حيث يتسع الشارع، ويؤدي إلى شارع آخر، فدفع إزرا كوين في هذا الاتجاه، وانزلقنا إلى الممر الضيق.

قلت له: «أريد منك أن تلغي عقدكم مع سفينة سيرببينت».

قال كوين بنبرة ساخرة وهو ينتقل بعينيه بيننا: «لا يمكن أن تكوني جادة».

وعندما لم نقل شيئًا، صاح قائلًا: «لا، هذا لا يمكن».

قلت له بنبرة غاضبة لم تكن تشبه نبرة صوتي المعتادة: «افعل ذلك، وإلا سأبلغ نقابة الأحجار الكريمة عن والدك» كان غضبي يتأجج مثل النار المستعرة داخل المدفأة، ولم أبدِ أي تأثر وأنا أشاهد وجهه المذعور وحركاته المحمومة. كنت أنا الشخص الذي يتمتع بالقوة حينها.

تفحص كوين الزقاق بنظراته هنا وهناك، وكانت أنفاسه المتوترة تخرج في شكل ضباب مرئي في ظل برد ذلك المساء، وقال: «حتى لو وافقت على فعل ذلك، فلن أستطيع».

كان إزرا ينظر إليه نظرة ارتياح، لقد كان مستمتعًا برؤية كوين منزعجًا إلى هذا الحد، وقال له: «أنت شريك في أعمال سايمون وقد وقَّعت العقد معه».

قال: «إن ربان سفينة سيريبينت لن يُخدع بهذا الأمر أبدًا. سيصر على التحدث مع والدي، وأنتما تعرفان ماذا سيقول. سيكون من الأفضل له أن يرى جثتيكما تطفوان على المياه بدلًا من التخلي عن هذا العقد. لن يوافق أبدًا، ولن يهمه ما تعرفانه من معلومات قد تدينه».

قلت: «ربما هو لا يهتم، لكنك تهتم بذلك بكل تأكيد».

ركز كوين نظراته عليَّ.

قلت له: «ربما لأنك تحبه حقًّا، أو ربما لأنك تعلم أنك سوف ترث ما يتركه وراءه. لا يهمني الأمر حقًّا، أنا فقط أريد منك أن تفعل ما أخبرتك به».

كان كوين يكافح من أجل الاستمرار في تظاهره بالهدوء، ووضع ذراعيه على جانبيه مُحكمًا قبضتي يديه، بينما احمر وجهه نتيجة هذا المجهود.

قلت له: «أبطل العقد وإلا سأطيح بسايمون، وفي كلتا الحالتين، سيحصل هنريك على هذا الخاتم. الأمر يتعلق فقط بما إذا كنت ستظل واقفًا إلى جانب والدك في النهاية أم لا».

لم أكن أصدق أنني قلت مثل هذه الكلمات، بيد أنني كنت صادقة فيها حقًّا؛ إذ كنت على استعداد تام لحرق كل شيء، قبل أن أرحل تاركة النيران خلفي، ولم أهب قط تلك الفكرة.

قال كوين: «متى؟».

قطبت حاجبيَّ مبدية عدم فهمي السؤال.

قال بشكل أوضح: «متى تريدين أن ألغي ذلك العقد؟».

أجبته: «الآن، أو بحلول المساء على أبعد تقدير. لكن يجب ألا يعرف أحد ذلك، ليس بعد».

سيكون هذا الجانب من مسئولية فيوليت، ولم أشغل نفسي في التفكير في الطريقة التي ستتعامل بها مع الأمر. وكان تركيزي الأساسي على وفائها بوعدها.

قال كوين والغضب يفتك به: «إذا فعلت ذلك، فلن يكون هناك مفر من نيلك عقابًا شديدًا، فحتى لو لم أخبر والدي بتورطك في الأمر، فسوف يكتشف ذلك. وسيقتلك» ثبَّت نظره عليَّ، ولم تكن هذه مجرد كلمات فارغة، فقد بدا قلق حقيقي في عينيه. وفي لحظة وجيزة، اعتقدت تقريبًا أنه يهتم بأمري.

قلت له: «لن يتمكن من العثور علينا».

تغضن جبين كوين قبل أن تبدو على وجهه ملامح فهم الأمر برمته، حيث قال متعجبًا وهو ينقل ناظريه بيني وبين إزرا: «علينا!». وبعد لحظة، بدا على وشك الضحك، ثم قال وهو يهز رأسه: «بالطبع».

أضاف وهو يمرر كلتا يديه على وجهه مطلقًا زفيرًا طويلًا: «حسنًا، سأفعل ذلك».

أخرجت نفسًا متهدجًا، وشعرت بأنني سأسقط على الأرض مما غمرني من راحة واسترخاء بعد غضب وانفعال، ثم قلت له: «شكرًا لك».

هبت الرياح فأسقطت شعر كوين على جبهته، بينما كان ينظر إليّ. يبدو أنه كان يعيد النظر أكثر من مرة فيما كان على وشك قوله. ثم قال لي في النهاية: «كوني حذرة يا برين. أعني ذلك».

ألقيت عليه نظرة أخيرة قبل أن أتوجه نحو الشارع الرئيسي، ولكن عندما لم يتبعني إزرا توقفت. لقد اتخذ خطوة بطيئة مقتربًا بشدة من كوين حتى كاد وجهاهما يتلامسان.

قال إزرا: «الآن أنت من يحمل قطع النرد المغشوشة». اتسعت عينا كوين، وشاهدت فمه ينفتح وهو يستعد لإنكار الأمر.

لكن إزرا لم تطرف له عين، ولم يتكلم، وكان هناك حزن تحت الغضب البادي على وجهه. كان من المؤلم النظر إليه. وأدار ظهره إلى كوين، وسحب قبعته لتغطي وجهه مرة أخرى، وعندما وصل إليّ، أمسكت بيده فأطبقت أصابعه على أصابعي بينما كنا نسير، لكنه ظل يراقب الشارع من حولنا بحذر.

تنهدت: «كنت تعرف إذن؟».

أومأ إزرا برأسه: «كنت أعرف دائمًا».

السابع والثلاثون

كان أفراد عائلة روث يرتدون أفضل ما لديهم من ثياب مع أحذية لامعة وساعات براقة، بينما كنا نقف أمام مقر لجنة نقابة الأحجار الكريمة. ستكون هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها هنريك إلى هذا المكان، وإذا وصل كوين وفيوليت، فلن تكون الأخيرة.

كان كازيمير يحمل الصندوق الخشبي المنحوت والمزين بشكل معقد بين ذراعيه، ساندًا إياه بجسده القوي، وقد زُينت جوانب الصندوق والجزء العلوي منه باللآلئ والأصداف، حيث صوَّرت هذه الزخارف مشاهد الأمواج المتلاطمة، وبقايا الهياكل العظمية المتناثرة في قاع المحيط، ما خلق تمثيلًا مرئيًا للحكايات الأسطورية المرتبطة بالبحر. كان قفله الذهبي مصقولًا بشكل وهاج لدرجة أنه عكس ضوء الشمس، فبدا أشبه بالمرآة.

احتوى على ثمار عمل هنريك كلها، وما ناضل من أجل تحقيقه منذ تلك الليلة المشئومة عندما ألقى النرد في منزل سايمون، كما ضم أيضًا كل شيء صنعته يدا إزرا الماهرتان؛ أفضل أعماله وأغلى إبداعاته.

كانت محتوياته تمثل كل ما أراد إزرا أن يتركه وراءه.

انفتحت الأبواب الثقيلة، ونظر إلينا من أعلى الدرج رجل يرتدي بدلة خضراء زمردية. لم نعد نبدو مثل قطع الأحجار الخام الآتية من لوير فالي، المجردة من الشوائب الخارجية، والمُشكَّلة لأغراض عملية، وإنما صرنا جواهر رائعة متألقة في حي التجار.

لوح لنا الرجل بالدخول، وظل إزرا قريبًا مني، بينما كنا نصعد الدرج، وذراعه تلامس ذراعي. كان الشيء الوحيد الذي يبعث الطمأنينة داخلنا في مواجهة الأحداث الوشيكة

يعتمد على اليقين بأن كلًّا من هنريك وسايمون لن يخاطرا بمكانتيهما لدى النقابة من خلال اللجوء إلى العنف داخل اللجنة. على الأقل، تمسكت بالأمل في أنهم لن يفعلا ذلك. لقد أخطأت في الحكم على تصرفات هنريك في الماضي.

كانت جدران ذلك الممر الفسيح مزينة بألواح خشبية فخمة مصقولة بشكل جيد، وسقف زجاجي علوي يسمح لأشعة الشمس الكثيفة بالتغلغل إلى الداخل، ما أغرق مقر اللجنة بوهج مشع. كانت الألواح نظيفة للغاية حتى إن السماء الزرقاء من فوقها بدت أشبه بلوحة فنية مرسومة ببراعة.

تعالت الأصوات من حولنا عندما انفتح الممر على قاعة كبيرة، حيث تجمع رجال ونساء النقابة حاملين كئوس مشروباتهم المفضلة في أيديهم. ارتدوا أفضل ملابسهم ومجوهراتهم لهذه المناسبة، وبذلوا قصارى جهدهم للظهور في أبهى حلة أمام المرشحين للحصول على الخاتم. وستكون مهمة هنريك هي إقناعهم بالمجموعة إذا أراد أن يحصل على أصواتهم.

راقبني العديد من التجار بنظرة حادة وفضولية، وكانت أعينهم تفحص بدلتي، وتمتد حتى حذائي الجلدي المصقول بعناية.

أشارت لنا إحدى السيدات قائلة: «من هنا». ثم قادتنا إلى الأمام نحو طاولة طويلة وإن لم تكن عريضة، مغطاة بغطاء من الحرير الأسود.

كان هذا هو المكان الذي ستعرض فيه المجموعة، حيث يقوم كل عضو في النقابة بإجراء تقييمه الخاص قبل الإدلاء بصوته. لقد كانت عملية دقيقة، فلن يصوِّت التجار بناء على جمال القطع المعروضة فحسب، وإنما بناء على شكل وهيئة المرشح أيضًا. ستضيف المجموعة الأكثر إثارة للإعجاب إلى شهرة نقابة الأحجار الكريمة وقوتها، ما يضمن احتفاظ مجلس التجار في منطقة البحر المجهول باليد العليا على منطقة المضايق. ومع ذلك، إن جلب تاجر جديد ذي مهارات عالية إلى النقابة يعني أيضًا إدخال منافس جديد، فقد كان هناك تسلسل هرمي شديد الانضباط يجب الحفاظ عليه.

لم يكن لديَّ أدنى شك في أن هنريك يستطيع التعامل مع هؤلاء الأشخاص وتحقيق النجاح بينهم. كان يجيد جذب الآخرين كما كان يجيد الكذب عليهم. والأهم من ذلك كله، أنه كان يعرف كيف يحصل على ما يريد.

في الجانب الآخر من الغرفة، كانت مجموعة آرثر جاهزة للمعرض، وكان من بينها مرايا يدوية مذهبة، وأمشاط فضية، وكئوس مرصعة بالماس. كان يقف بجانب الجدار مع رفاقه، يرتدي سترة ضيقة بعض الشيء، لكنه بدا واثقًا.

وضع كازيمير الصندوق بعناية على المنضدة، وسحب إزرا المفتاح الذهبي من جيبه وفتحه. ساد صمت هادئ في الغرفة عندما رُفع الغطاء؛ حيث كانت توجد صينية مرتبة بدقة داخله، تحتوي على القطع المعدة للعرض. أثار تألق الفضة همسات مسموعة من الأشخاص من حولنا.

كانت تعبيرات الرضا تبدو على وجه هنريك، حيث أخذ يحدق إلى المجموعة بعينين مسرورتين محاطتين بالتجاعيد، وبدا واثقًا بنفسه، وكان يمتلك كل الأسباب التي تجعله كذلك. فقد تصالح أيضًا مع خسارته أمام سايمون، مدركًا أنها إهانة لن تمر دون رد. كما كان يعرف أن عليه أن يكمل الطريق الذي بدأه مع الوضع في الاعتبار ضرورة التوصل إلى خطة لاستعادة إزرا. وعلى النقيض من ذلك، أدركت أنه سيترك لي التعامل مع التحديات التي أواجهها بشكل مستقل.

تعامل إزرا مع القطع بعناية، ووضعها على طول الطاولة بترتيب معين لضمان عرضها بشكل أمثل، وعندما مد يديه إلى قرطيْ طيور الفينش شعرت باضطراب في أمعائي. كانت الليلة التي ارتديتهما فيها هي الليلة التي أصبحت فيها فردًا حقيقيًّا من عائلة روث، وأجزم بأنها كانت أيضًا الليلة التي وقعت فيها في حب إزرا فينش.

تعالت الثرثرة حولنا، ونظرت إلى المدخل، حيث رأيت كوين مرتديًا بدلة أنيقة تتألق في ظل أشعة الشمس المنبعثة من السقف. كان يرتدي سترة سوداء، وربطة عنق فضية، ما أبرز

عمق عينيه الزرقاوين المذهلتين بالفعل. وقف سايمون إلى جانبه تعلو وجهه ابتسامة دافئة، وهو يحيي زملاءه التجار. كان هذا الحدث بمنزلة عرض يخدم أغراض المرشحين الطموحين والرعاة على حد سواء. لم يكن سايمون يعلم أن كل الأنظار ستتجه نحوه اليوم.

بمجرد أن يدعو رئيس نقابة الأحجار الكريمة إلى بدء المعرض، سيجري الإعلان رسميًّا عن رعاية سايمون، ما سيجعله رجل الساعة. لم تعلم نقابة الأحجار الكريمة أنها كانت صفقة أبرمها مع هنريك الطرف الخاسر فيها بوضوح.

عندما رآني كوين، تلاشت ابتسامته الهادئة، وانسحب من جانب والده، وشق طريقه نحوي وهو يتنقل بين الحاضرين، حتى وقف على بعد سنتيمترات مني.

قال وهو يرفع مرفقه إلى أعلى: «تأبطي ذراعي».

أطعته، وبدأ يسير نحو الجزء الخلفي من الغرفة. تبعتنا عشرات النظرات، وكنت أعرف السبب، لقد بدونا وسيمين معًا.

كان ذلك من شأنه أن يمنح عائلاتنا مميزات أكثر من الأعضاء الأساسيين في نقابة الأحجار الكريمة. لكنني لم أعد مهتمة على الإطلاق بأداء واجبي تجاه عائلة روث.

سألته: «هل تم الأمر؟».

تناول كوين كأسًا من أحد الخدم، وأعطاني إياها قبل أن يأخذ واحدة لنفسه. كان لا يزال مبتسمًا، ويتأكد من أن والده الذي كان يراقبنا من مسافة بعيدة يرى ذلك.

رفع الكأس إلى شفتيه، وقال: «تم الأمر».

أغمضت عينيَّ، وتنفست بعمق، وعندما فتحتهما رأيت كوين يتفصحني، واعتقدت أنني لمحت شعورًا بالألم في عينيه.

قلت له وأنا أسير مبتعدة: «شكرًا لك». لكنه أمسك بيدي، وأوقفني قائلًا: «برين».

تحدثت بصوت منخفض محاولة تجنب جذب انتباه الآخرين من حولنا: «ماذا هناك؟».

قال بجدية: «لا تعودي أبدًا، إذا فعلت ذلك، فسوف يقتلك».

كنت متأكدة من أنه كان على وشك البوح بما هو أكثر من ذلك، ربما وداعًا صادقًا من نوع ما، لكنه نظر إليَّ مرة أخرى فقط قبل أن يتركني ويسحب يده من يدي، ثم يختفي وسط الحشد.

شققت طريقي عائدة نحو إزرا، لكن يدًا أخرى أمسكت بي بقوة ما جعل شرابي يتناثر من حافة كأسي على يدي ثم على الأرض.

سمعت فجأة صوت فيوليت بليك الناعم بجانبي، كانت ترتسم على شفتيها ابتسامة لطيفة، بينما زينت عينيها بمسحوق متلألئ أبدى جمالهما الأخاذ، وقالت: «مهلًا، آمل أن تكون لديك أخبار جيدة لي».

قلت لها: «أُلغي عقد سايمون مع سفينة سيربينت. إنه لا يعرف ذلك حتى الآن، لكن أمره انتهى فيما يخصها».

قالت وعيناها تطرفان: «وكيف تمكنت من النجاح في ذلك بالضبط يا روث الصغيرة؟».

قلت لها: «هل يهم ذلك؟».

نظرت فيوليت حولنا وهي تدس خصلة من شعرها اللامع خلف أذنها. «أفترض أنه من الأفضل أن أستعد للإعلان الكبير إذن، من الجيد أنني ارتديت اللون الأحمر، ألا تعتقدين ذلك؟».

ألقيت نظرة سريعة على ثوبها الرائع المصنوع من قماش جميل أحمر بلون الدم، كانت متألقة حقًّا وهي ترتديه.

قالت وهي تأخذ رشفة من كأسها، وتنقر بخاتمها الماسي على قاعدته، وهي تفرغه: «هناك سفينة في الميناء تنتظر راكبين آخرين - سفينة ميستيك».

حدقت إليها: «ماذا؟».

قالت موضحة: «لا أريدك أن تكوني موجودة هنا حتى لا تتعقد الأمور أكثر بمجرد أن ينتشر الخبر».

قلت وأنا آمل أن تعرف كم أعنيها: «شكرًا لكِ». كنت أعرف أنها فعلت ذلك من أجل نفسها، لكنني سأظل مدينة لها بذلك، أنا مدينة لها إلى الأبد.

ارتسمت ابتسامة رضا على شفتيها، ورفعت ذقنها لأعلى، ونظرت إليَّ وهي تلتقط الكأس من يدي، وتأخذ رشفة منها وقالت: «من الأفضل أن تذهبي، سيفتتح الرئيس المعرض بعد قليل».

أعطيتها ابتسامة أخيرة قبل أن أتجاوز التجار لأصل إلى الطاولة، حيث اصطف أخوالي بعضهم بجانب بعض ثلاثيًّا وسيمًا، وذكَّرني المنظر بتلك اللوحة التي في غرفة المكتب، كان ينقصهم والدتي فقط.

التقت عيناي بعينيْ إزرا، فسار نحوي تاركًا مكانه بجانب مورو.

كان هنريك يراقب الغرفة، ويداه مطويتان خلف ظهره، بينما وقف منتصبًا وشاربه الأنيق يخفي الابتسامة على فمه، لكنها كانت مرئية في عينيه.

وقفت بجانبه، وقلت هامسة: «عليك أن تقرر الآن».

قال وهو يتطلع في وجهي: «ماذا تقصدين؟».

أدخلت يديَّ في جيبيَّ لأمنعهما من الارتعاش، وقلت له: «في غضون دقائق قليلة، سيعلن الرئيس عن حصولك على رعاية فيوليت بليك، إذا كنت تريدها».

سار هنريك بخطوات بطيئة مبتعدًا عن الغرفة، واتسعت عيناه من هول المفاجأة، وقال مندهشًا: «برين، ما الذي تقولينه؟». كان صوته لا يزال يحمل شعورًا بالإثارة، فلم يكن يدرك ما حدث بعد، وكيف يتسنى له ذلك؟

قلت له: «لقد وافقت فيوليت على أن تكون راعيتك، وهكذا سيكون لديك حليف قوي في النقابة، ولن تكون مدينًا بالفضل لسايمون».

امتلأ صوته بالشك: «ولماذا قد تفعل ذلك؟».

ترددت، وابتلعت ريقي وأنا أقول له: «عليك أن توافق. عليك أن تسمح لنا بالرحيل».

تغضن جبينه، وظهرت الدهشة على معالم وجهه التي اضطربت من هول الصدمة: وتسأل: «من تقصدين؟».

أخذت نفسًا عميقًا وقلت: «إزرا وأنا».

تحوَّلت نظرات هنريك ببطء إلى نظرات شريرة غاضبة.

حاولت إقناعه قائلًا: «إذا قبلت رعاية سايمون، فسينتمي إزرا له. قد تعتقد أنه يمكنك استعادته، لكنك لن تستطيع ذلك، ولن تتمكن أبدًا من السيطرة على تجارة الأحجار الكريمة إذا عمل إزرا لدى سايمون» توقفت قليلًا محاولة تمالك أعصابي، وأضفت: «أما إذا حصلت على رعاية فيوليت، فسوف تفقد إزرا لكن سايمون سيخسر أيضًا، وسيكون الملعب متساويًا».

كان إزرا بجانبي يستمع إلى ما أقوله، لكنه أبقى عينيه على الغرفة من حولنا.

أضفت: «سايمون عدوك، وسيظل دائمًا عدوك، لكن فيوليت يمكنها أن تكون حليفتك».

غمغم هنريك: «وماذا عنكِ؟».

أجبته: «لقد خسرتني في كلتا الحالتين».

كان يحدق إلى وجهي في انتظار تفسير.

قلت بصوت منخفض: «لقد خسرتني في اللحظة التي حاولت فيها بيعي لكوين. وحتى لو وجدت طريقة لإبقائي هنا، فلن تتمكن أبدًا من الوثوق بي مرة أخرى».

بدا هنريك مضطربًا كأنه ابتلع نارًا، إذ كان صدره يعلو ويهبط بشكل محموم تحت سترته، وتزايد احمرار جلده، وقال: «ما زال آرثر يمتلك الرعاية، وما زالت المنافسة قائمة بيني وبينه، ماذا لو لم يكن التصويت لصالحي؟».

هززت كتفي، وقلت: «إن الأمر متروك للقدر، كان الأمر دائمًا متروكًا للقدر».

بدا هادئًا، وكان كازيمير ونويل ومورو خلفه يتحدثون وهم يتناولون مشروبهم غير مدركين الحرب الصامتة القائمة على بعد أمتار قليلة فقط منهم.

مددت يديَّ إلى جيب سترتي، وأخرجت ظرفًا سميكًا، حدق إليه قبل أن يأخذه ويفتحه. كان داخله المفتاح وسند بيت الشاي، بالإضافة إلى دفتر الحسابات. وبمجرد أن أدرك ماهية ما وُضع في داخل الظرف وضعه بتكتم في جيب سترته وأخفاه.

قلت له بصوت مختنق: «ما زال بإمكانك فعل ذلك، بإمكانك إنهاء ما بدأته هي».

ظل هادئًا لحظة طويلة قبل أن يلتف وينظر إلى الغرفة بجميع جوانبها، وشاهدته وهو يجمع شتات نفسه ببطء. حتى عاد إلى أسلوبه الهادئ.

تحدث إلى إزرا: «إذا رحلت الآن، فأنت ترحل بلا أي شيء».

قال له إزرا: «أعرف ذلك»، كانت نظرة إزرا تحمل لمحة من الحنان، وهو ينظر إلى هنريك، كأن جزءًا منه حزين. ومن الممكن أن يكون قد شعر بهذا الشعور حقًّا. ووفقًا لمعرفتي المحدودة، كان هنريك هو أقرب مثال للأب بالنسبة لإزرا. كما كان منزل عائلة روث هو منزله على الرغم مما لاقاه فيه من صعاب.

ابتلع هنريك ريقه، وخفت الحدة التي علت ملامح وجهه، حتى عاد إلى طبيعته مرة أخرى، ثم قال وقد تسللت لمحة من المكر إلى صوته: «يجب أن أعترف لك بأنك على الرغم من نشأتك المدللة في نيمسمير، لم تفقدي قط جينات عائلة روث، فأنت تنتمين إلينا حقًّا».

أبقى نظراته مثبتة عليَّ، وشعرت بوخز من الألم في قلبي عند سماع كلماته. ويبدو أن هذا هو الشكل الوحيد للموافقة التي سأتلقاها من خالي. لم أستطع إلا أن أتساءل عما إذا كانت تلك الكلمات في نظره هي هدية الوداع.

نظرت خلفه إلى حيث كان مورو يقف عند الطاولة. كان يراقبنا، وقد اختفت ابتسامته المعتادة من وجهه. كان هناك تعبير متسائل في عينيه وهو ينظر إليَّ، لكنني لم أستطع الرد. ولم أعرف كيف أودعه. كان هذا مكانه، حيث ينتمي حقًّا، وسيظل ينتمي دائمًا.

وبينما كنت أفكر، ابتسم لي ابتسامة صغيرة، والتف نحو والده. كان ذلك وداعًا لطيفًا ومحببًا.

شعرت بيد إزرا فجأة على ظهري ما جعل عينيَّ تطرفان، وبعد ذلك بدأنا السير إلى الخارج، نحو النور. اختفى ضجيج الغرفة، بينما كنا نسير عبر الممر، وعندما خرجنا إلى الشارع، تنفست أعمق نفس استنشقته على الإطلاق، وملأ الهواء المشبع بالملح والحرية رئتيَّ.

وعندما ارتطمت أحذيتنا بالأحجار المرصوفة بالحصى بشكل متزامن، تسارعت نبضات قلبي ترقبًا.

رفع إزرا يده وفك ربطة العنق الحريرية الخضراء المعقودة حول رقبته، وألقاها في الشارع، ورفرفت خلفنا بينما كان يفك أزرار قميصه العلوية، ويفتحه بيديه المجروحتين. كدت أشعر بالحبال تتفكك من حوله، لا مزيد من الأوامر الصارمة، ولا مزيد من القبضات المشدودة، والكلمات الخانقة أثناء العشاء العائلي، ولا مزيد من التعليمات واجبة النفاذ.

خلفنا، بدأت اللجنة في الانعقاد، وخلال لحظات سيبدأ المعرض، وستقوم النقابة بفحص مجموعة إزرا دون أي فكرة عن رحيله، وأنه لن يعود أبدًا. وسيدلى كل عضو فيها بصوته، وإما أن يغادر خالي هذا المبنى بخاتم في إصبعه وإما لا. ربما لن أعرف أبدًا.

ظهر مدخل الميناء أمامي، وتوقفت عند أعلى درجة من السلم، أبحث عن السفينة المنشودة بين السفن المصطفة حتى رأيتها. كان طاقم السفينة يتدافع فوق سطحها، ورُفعت الأشرعة على الصواري، بينما كانت السفينة تتهيأ للإبحار.

قال لي إزرا وهو يقف بجانبي: «إلى أين ستتجه؟» تراقص شعره الأشعث في الريح، ما منحه مظهرًا مختلفًا. شعرت بأنني أرى نسخة أخرى منه؛ نسخة لم ألمحها إلا في تلك الليلة في غرفته عندما اعترفنا بحبنا أحدنا للآخر، وتعاهدنا أن نكمل الطريق معًا.

قلت: «لا أعرف. هل تهتم؟».

ابتسم إزرا، لم تكن ابتسامته ثقيلة أو مقيدة كما كانت من قبل، بل تلألأ بريق الضوء في عينيه هذه المرة، وهو يجيبني: «كلا. أنا لا أهتم».

شكر وتقدير

كانت هذه الرواية بمنزلة رحلة مذهلة منذ البداية إلى النهاية، وأنا محظوظة جدًّا لأنني كان لديَّ الكثير من الأشخاص الرائعين إلى جانبي، وقد مدوا لي يد العون لإخراج هذا الكتاب إلى النور.

أعبِّر عن عميق امتناني لعائلتي، وتحديدًا جويل، وإيثان، وجوشيا، وفينلي، وريفر، لأنهم يغمرون عالمي بالحب والضحك باستمرار.

والشكر موصول إلى كل من باربرا بويل التي لعبت دورًا حاسمًا في ضمان وصول هذا الكتاب إلى الجمهور. وإلى محررتي إيلين روتشيلد، التي سُميت عائلة روث باسمها. شكرًا لك على إيمانك الراسخ بأنني أستطيع القيام بذلك.

كما أقدم شكري إلى فيكي ليم التي تولت دور المحررة الخارقة لهذا المشروع. يا لها من مصادفة سعيدة أن نتعاون معًا!

كما أوجه عميق شكري لبقية أعضاء فريق عمل سلسلة روايات Wednesday Books كل من سارة جودمان، وليزا بونفيسوتو، ودي. جيه ديسميتر، وألكسيس نوفيل، وماري مواتس، وبرانت جانواي، ومصممة الغلاف كيري ريسنيك التي طبقت مهارتها وإبداعها لتصميم غلاف رواية أخرى مثيرة للإعجاب.

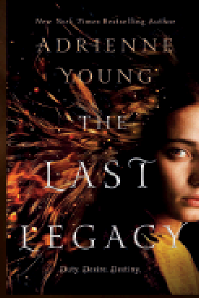
كما أرسل شكري أيضًا لكريستين دواير التي قادني تشجيعها إلى التخلي عن الحذر والاتصال بوكيل أعمالي بشأن هذا المشروع عندما ظلت فكرته تطاردني. وعلى الرغم من أنني ترددت في الكتابة بأنك كنت «على حق»، فإنني ممتنة حقًّا لأنني استجبت لنصيحتك.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى كارولين شويتز، التي كانت مساعدتي الحقيقية التي لا تقدر بثمن، ومن لعبت دورًا حاسمًا لا غنى عنه في العملية الإبداعية في هذه الرواية. فدونك، لم أكن لأتمكن حقًّا من إكمالها، وأنا ممتن للغاية لوجودك بوصفك جزءًا من فريقي.

شكرًا لناتالي فاريا، قارئتي التجريبية التي تكون دائمًا أول من يقرأ أي قصة أكتبها.

أعتبر نفسي محظوظة جدًّا؛ لأن لديّ نظام دعم مذهلًا، يشجعني ويحتفي بانتصاراتي، ويبقي عينيّ دائمًا نصب أهدافي. شكرًا لعائلتي كلها وأصدقائي الرائعين ومجتمع الكتابة المذهل الخاص بي على خوض غمار هذه المغامرة معي.

الغلاف الخلفي



لم أكن حمقاء على الإطلاق؛ فقد كنت أعرف عندما وطئت قدماي رصيف ميناء مدينة باستيان، أن الانضمام إلى عائلة روث لن يكون بسيطًا بقدر بساطة تولي مقعد أمي على الطاولة. كنت أعي أن العائلة بالنسبة لي هي طوق النجاة الذي سينقذني إذا ارتكبت خطأ أو إذا أصابني أي ضرر، لكن يبدو أن هناك خطًا فاصلًا وواضحًا بين أولئك المنصهرين بالفعل في بوتقة هذه العائلة وأولئك الذين يحاولون الانصهار فيها؛ إذ يبدو أن انخراطي معهم حتى أصبح جزءًا لا ينفصل عنهم سيتطلب ما هو أكثر من صلة الدم.

- من رواية الإرث الأخير

تتميزيانج ببراعتها في نسج شخصيات نسائية قوية كبطلات لقصصها، إلى جانب خلق عوالم مليئة بالتفاصيل الواقعية.

- موقع *Culturess*







ISBN 628-1072-14-035-9

